

اليهود وإسرائيل (١)

اليهود واليهودية في العصور القديمة

بين التكوين السياسي وأبدية الشرائع

ترجمة وتقديم

د. رشاد الشامي



المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

اليهود واليهودية في العصور القديمة (بين وهم الكيان السياسي وأبدية الشتات)

ترجمة وتقديم
دكتور/ رشاد عبد الله الشامي

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

الكتاب: اليهود واليهودية فى العصور القديمة
(بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات)

ترجمة وتأليف: دكتور/ رشاد الشامى
عن كتاب «السلام فى الأرض المقدسة
تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين»
فون ناجوت جلوب

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٤٠٨٥
الترقيم الدولى: ISBN
977--5841-5()--x

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة - نشر - تصدير كتب)
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة للمكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: هـ ش مصطفى طموم — المنيل — القاهرة
تليفاكس: ٣٦٤٥٤٨٧

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب الذى أقدمه للقارئ العربى تحت عنوان «اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات»، هو كتاب ألفه ونشره فون باجوت جلوب تحت عنوان «السلام فى الأرض المقدسة، تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين» بالإنجليزية إبان الستينيات، وقد أتيح لى أن أطلع عليه فى حينه، واستفدت منه كثيرا دون أن أدقق كثيرا فى منهجه ثم وضعته فى ملف خاص ونسيته تماما. وعندما عن لى أن أقدم للقارئ العربى مؤلفا يتناول تاريخ بنى إسرائيل واليهود فى العصور القديمة لسد الفراغ فى هذا المجال فى المكتبة العربية، تذكرت هذا الكتاب فأخرجته من الأضابير وعكفت على قراءته مرات ومرات مدونا ملاحظات على هوامشه إلى أن اكتشفت أن هناك خطان يربطان بين صفحاته يسيران بالتوازى هما: خط تطور الانغلاق الدينى وخط التبلور السياسى لبنى إسرائيل واليهود عبر التاريخ القديم. كما اكتشفت كذلك أن جلوب يسير على هدى المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم على المستويين الدينى والتاريخى، وأن هناك هدفا يسعى إلى إثباته عبر كل هذا، بالإفصاح تارة، وبالإشارة تارة أخرى، وهو أن بنى إسرائيل واليهود عبر الأحداث التاريخية التى مروا بها، ومن خلال التطور التاريخى الذى تبلورت من خلاله أسس العقيدة اليهودية فى صورتها الأخيرة على يد الأنبياء، لا يصلحون لأن يكونوا أمة أو جماعة سياسية لها دولة مثل سائر الشعوب، وأن تجاربهم فى هذا الصدد باءت جميعها بالفشل عبر التاريخ لأسباب موضوعية وأنهم لا يصلحون إلا أن يكونوا جماعة دينية تعيش فى وسط الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها. وقد شغلتنى هذه الفكرة وقررت أن أقوم بعملية تأصيل لها لتكون بمثابة مقدمة تعين القارئ على فهم منهج هذا الكتاب والذى أخذ به، فيما بعد، عدد لا بأس به من الباحثين الذين نفوا عن اليهودية صفة القومية وأكدوا أنها دين فحسب، وأن اليهود لا يصلحون إلا أن يعيشوا كجماعة تحكمها

سيكولوجية الطائفة الدينية في كنف الممالك الأخرى، وأن أية محاولة لبلورة سياسية لليهود في إطار دولة مآلها الفشل الذريع، وأنهم بالإضافة إلى ذلك، وعلى ضوء الأحداث التاريخية. كانوا دائماً يفضلون الحياة خارج فلسطين، في الشتات، على الحياة في فلسطين، رغم إرتباطهم الديني والروحي بها.

ويمكن إرجاع فشل الممالك اليهودية القديمة في البقاء والاستمرار، إلى أن اليهود لم يعتادوا أن يكونوا جماعة سياسية، لأن اليهودية هي عقيدة مغلقة وليست عقيدة سلطة، ولذا فإنها لم تستطع أن تكون مفهوماً خاصاً للسلطة ومفهوماً جديداً للأمة، وهما شرطان أساسيان لتكوين الدولة، كدولة وليس كجنسية، بمعنى أن الدول لا تجسد شرعية سلطتها في تحقيق إجماع سياسي يقوم على الشريعة الدينية. كذلك فإن العقيدة اليهودية لم تستطع أن تحقق نشوء ثقافة عليا، أى منظومة قيم إنسانية كونية، يمكن أن تحقق دولة مركزية تجمع أنظمة غير متجانسة ثقافياً وإجتماعياً، عل غرار الحضارة العربية، أو الحضارة الغربية الحديثة، لأن الانتماء إلى هذه الثقافة العليا هو أساس الانتماء إلى الأمة، لأنه قاعدة المساواة في الاشتراك في السلطة، ولأنها هي التي تحقق شرعية السلطة.

وهكذا أدرك حكماء اليهود (الحاخامات) أن ظاهرة إنهيار الممالك اليهودية، لا ترجع إل الظروف السياسية فحسب، بل تكمن في الأساس اللاسياسي الذي تنطوي عليه اليهودية ذاتها.. كما أدركوا كذلك أنه لا يكفي أن يكون الدين اليهودي هو الأساس المشترك بين اليهود الذين يعملون كطائفة دينية، من ناحية، واليهود الذين يعملون كأمة سياسية، من ناحية أخرى، كإطار للوحدة واستمرار البقاء. وبالتالي فإن الأساس السياسي في اليهودية، والذي إستند إليها اليهود في إقامة ممالك لهم في فلسطين، كان أساساً متأثراً بالحضارات التي كانوا في كنفها، ورغبة في إقامة دولة على غرار دول الحضارة، وهو ما باء بالفشل الذريع آنذاك،

ويتعرض في العصر الحديث لنفس المصير لنفس الأسباب، في إطار الصراع الدائر حالياً في إسرائيل بين الصهاينة العلمانيين الذين أقاموا دولة لليهود في فلسطين على غرار دول الحضارة الغربية الحديثة (شعب مثل سائر الشعوب) وبين الدينيين الذين يرفضون كافة الأسس والقوانين والنظم التي قامت عليها هذه الدولة ويسعون لتحويلها إلى دولة تحكمها الشريعة اليهودية، وهو ما يذكرنا بما حدث في فترة المكابيين عندما أقام اليهود مملكة يهودية، إحتدم فيها الصراع بين الدينيين المتشددين وبين المتأخرين (العلمانيين حالياً) إلى أن تم القضاء عليها.

أما على الطرف الآخر، الخاص بالعلاقة بين دولة اليهود في فلسطين في العصر الحديث والشتات اليهودي، فيمكننا أن نقرر على نحو ما حدث، في العصور القديمة، في ظل الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية، (حيث إنتشر اليهود في أرجاء العالم القديم)، أن هذا الشتات اليهودي ما زال يلعب نفس الدور القديم، حيث أنه هو الذي يسند الوجود السياسي للدولة ويدعمها ويحافظ على وجودها وإستمرارها، وليس العكس، كما توهم الطرح الصهيوني الكلاسيكي.

ولزيد من الإيضاح بشأن التطور التاريخي لظاهرة الصراع بين الدين والسياسة في التاريخ اليهودي القديم، أو الصراع بين التبلور السياسي والإنغلاق الديني، سوف أقوم باستعراض أهم المراحل التاريخية التي مرت بيني إسرائيل واليهود والتي أدت في النهاية إلى هذه النتيجة التي توصل إليها كثير من الباحثين اليهود والإسرائيليين من خلال قراءة موضوعية لهذا التاريخ، وهو ما يتفق تماماً مع ما إنتهى إليه هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته إلى القارئ العربي.

يعتبر من أكثر المعبرين، في العصر الحديث، عن وجهة النظر الخاصة بإعتبار أن اليهود هم طائفة دينية لا تملك مقومات الدولة الحاخام اليهودي الأميركي

المربرجر. ففي بداية عام ١٩٤٢ ألقى الحاخام برجر الزعيم الروحي لجماعة اليهود الإصلاحيين الذين عارضوا فكرة إقامة دولة يهودية ذات طابع سياسى، خطابا بلور فيه وجهة نظر قديمة جديدة بشأن ماهية اليهودية ومستقبلها فى المجتمع المعاصر وقد حاول برجر أن يرجع الخلاف السياسى بين المجلس الأمريكى من أجل اليهودية والحركة الصهيونية ورفاقه من الحركة الإصلاحية المؤيدين لها، إلى الصدام التاريخى بين الادراك الدينى للحياة اليهودية وبين التفسير السياسى لها. حيث تجلّى الفارق الشاسع بين وجهة النظر، فى رأيه، فى مسألة هل اليهودية فى حاجة من أجل وجودها إلى دولة قومية خاصة بها؟ وقد أجاب على ذلك بالنفى مستدلاً عل ذلك بتفنيدين: التنفيذ الأول، الرئيسى، هو أن اليهودية وفقاً لمضمونها ليست قومية، وأنها كسبت بفضل مبادئها العالمية مكانة وتأثيراً فى التاريخ الإنسانى. والتنفيذ الثانى. وهو تنفيذ تاريخى بدعم به تبريراته الأساسية. ووفقاً لرأيه فإن على اليهود ألا يتفاخروا بتلك الفترات من تاريخهم التى شكلوا فيها شعباً ذو سيادة. ففتره الملكية فى عهد داود وسليمان هى فترات منبوذة فى رأيه بالمفهوم الأخلاقى. وقد سعى ليؤكد أن وجهة نظره التاريخية لاتسعى إلى رفض الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين بالنسبة لليهودية، ولكن هذا التبرير ليس من شأنه إضعاف تفنيده بل يقويه، لأن فرادة اليهود فى الماضى والحاضر لاتكمن فى قوميتهم بقدر ماتكمن فى طابع إيمانهم. وعلى عكس معظم حاخامات الحركة الإصلاحية واصل برجر التمسك بالرأى الأخلاقى بأن فرادة اليهودية تكمن بالذات فى قيمها الدينية العالمية التى لاتربط بمكان أو زمان معينين، وإنه بفضل هذا فقط استمر اليهود كطائفة دينية فريدة، بينما اختفت من التاريخ شعوب أقوى وأكبر منهم^(١).

(١) جورانى، يوسف: البحث عن الهوية القومية (محبوس أحر هزوت هلقوميت)، مكتبة أوفاقيم، دار نشر «عم عوفيد» إسرائيل، ١٩٩٠، ص ٢٥ - ٢٦.

وفيما يلي سنعرض للتطور التاريخي لهذه القضية:

١ - عن البداية الأولى لظهور مملكة يهودية تخبرنا أسفار العهد القديم أن النبي صموئيل (شموئيل) كان قد بلغ من الكبر عتياً، ولم يكن أحداً من أبنائه قادراً على تولى أعباء القيادة، فذهب إليه شيوخ بنى إسرائيل الكبار وطلبوه بأن يكون لهم ملكاً يتولى قيادتهم. وقد كان ما يريدونه شيئاً «طبيعياً» وهو أن يكونوا «شعباً مثل سائر الشعوب». وأن تكون لهم دولة وملكاً. ويخبرنا سفر صموئيل الأول (الاصحاح الثامن عن تحذير النبي للشعب من رسامة ملك عليهم لأنه سيستبد بهم ويصادر ممتلكاتهم ويستحل نساءهم ويكونوا له عبيداً، ولكن «أبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمانا ويحارب حروبنا» (صموئيل الأول ٨: ٢٠)، وفي الأصحاح الثاني عشر يتكرر الموقف السابق فيستعرض أمامهم صموئيل تاريخ أسلافهم وما حل بهم من غضب الرب ولعناته وهزائمه لهم، لأنه اشترط عليهم أن يستجيبوا لوصايا الرب حتى لا تكون يد الرب عليهم كما كانت على آبائهم: «وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما كانت على آبائكم» (صموئيل الأول ١٢: ١٥). وفي النصف الثاني من هذا الأصحاح نجد الرب يتراجع عن موافقته ويرى أن وجود ملك لبني إسرائيل هو الشر بعينه: «وترون أنه عظيم شركم الذي عملتوه في عيني الرب بطلبكم لأنفسكم ملكاً» (صموئيل الأول ١٢: ١٧). «وهذه الآراء المتعارضة التي من المحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضي قرن من الزمان، تعكس وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط كان يتحرق شوقاً إلى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل الرواية الأولى (الاصحاح الثامن) وجهة نظر ملكي، ربما من أتباع سليمان يسعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعده بفترة وجمع وجهتي النظر المتعارضتين»^(١)

(١) جلوب. جون باجوت (جلوب باشا): السلام في الأرض المقدسة (تحليل تاريخي لمشكلة فلسطين).

وقد عين صموئيل شاؤول ملكا، وفتح بذلك بداية عصر الملكية في تاريخ بنى إسرائيل.

٢ - «سقط شاؤول، وسقط داود (١٠٠٠ ق.م - ٩٦٧ ق.م) وسقط سليمان (٩٦٧ ق.م - ٩٢٧ ق.م) (ملوك بنى إسرائيل الأول) ووضعت الملكية والملوك في الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة إسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب، ودفعت إسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة وتقليدها السلوك الوضعي للأمم، واختسارها الخطأ الانفصال عن الدين»^(١).

وخلال هذه الفترة كانت الأسرة المالكة فاسدة تماما، فأبناء داود يغتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويشور، وقد قتل سليمان كل إخوته، ويتضح من هذا أن البشرية تبنى في خيالاتها بشكل دائم عصورا ذهبية في الماضي لتخلص من آلام الحاضر - لقد كان فترة حكم داود وسليمان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاغتيالات، وفي أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى انفجرت بعد موته مباشرة، وأدت إلى إنقسام المملكة إلى مملكتين هما: يهودا فى الجنوب واسرائيل فى الشمال.

٣ - زالت مملكة يهودا الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م وسقطت مملكة إسرائيل الشمالية عام ٧٢٢ ق.م ، وخلال فترة هاتين المملكتين سادت الحروب بينهما وبين الدول المحيطة بهما وكثرت الاغتيالات والمؤمرات وحاد الشعب عن طريق الرب وعمل الملوك الشر فى عينى الرب، فظهر الأنبياء الذين كان من أشهرهم إشعيا وحزقيال وعاموس. وقد ابتكر إشعيا بفعل الظروف السياسية والدينية فكرتين لايزال أثرهما ملموسا إلى اليوم بين اليهود، وهما: فكرة القدسية الدائمة لأورشليم

(١) المرجع السابق، نقلا عن «وليام نيل» (تعليق على الكتاب المقدس).

(القدس)، وعقيدة مجيء المسيح المخلص، كما سادت أيضا، عقيدة أن الرب هو الذى يكرس الشعوب الأخرى من أجل إنزال العقاب بشعبه المتعنت بنى إسرائيل (السبى الآشورى لإسرائيل الشمالية والسبى البابلى لليهودا الجنوبية).

وقد عبر المؤرخ اليهودى س. و. بارون فى مؤلفه الضخم «تاريخ إسرائيل» عن هذه الظاهرة بقوله: «لقد استخلص الأنبياء بطريقتهم الخاصة تفسيرا للوضع العالمى غير الطبيعى: لقد رأوا دولا تختفى ثم تعود فتظهر من جديد، ورأوا سلطة الدولة فى إسرائيل وفى يهودا تستخدم بواسطة الطبقات الحاكمة كوسيلة لظلم الجماهير، ورأوا عددا لا يحصى من اليهود يقيمون فى بلاد أجنبية، فاستخلصوا من ذلك أن هناك وحدة أكثر صلابة من وحدة الدولة ووحدة الأرض.. وأن مبدأ التمسك بالأرض والحدود فى إطار مساحة معينة يؤدى إلى قيام المنازعات بينما يفتح مبدأ الأمة أبعاداً للتعايش المستديم بين الأجناس المختلفة مع التعاون الكامل بين المراكز الثقافية المختلفة»^(١).

٣ - بعد عودة اليهود من بابل تحت قيادة عزرا، كانت هذه هى البداية من أجل ما يمكن أن نطلق عليه إسرائيل ما بعد السبى البابلى، حيث ولدت الديانة اليهودية التى صاغها عزرا والقائمة على الانعزالية الدينية التى تتضمن سلسلة جديدة من التشريعات التى تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر، مثل منع الزواج المختلط واقتباس الكثير من الأفكار الدينية من ديانة زاردوشتا البابلية مما أضفى على اليهودية صفة العنصرية، وهو الأمر الذى عارضه كثير من الأنبياء الذين ظهوروا فى تلك الفترة مثل إشعيا وزكريا ويونان وراعوث التى يعتبر سفرها بمثابة نشرة مضادة للتمييز العنصرى.

(1) baron. S.W.: History of Israel, part 1, p. 131.

وبعد أن تحول الاسرائيليون إلى يهود، وإلى طائفة شتات دينية تحولت «أرض إسرائيل» إلى بلاد مقدسة، وتم تكريس الشتات اليهودي القائم على الارتباط الشديد بالدين وأحكامه وقوانينه.

٤ - كان الدرس الذى استخلصه حكماء اليهود من تجربة مملكة الحشونائيم (١٦٦ ق.م. - ٦٤ ق.م.)، هو أن الهدف الرئيسى لثورة المكابيين، وهو الرغبة فى تحرير اليهود من الضغوط الفكرية والتأثيرات الثقافية والدينية الاغريقية لتتاح لهم ممارسة شعائر وطقوس دينهم دون قيود، وعدم الخضوع لحضارة أجنبية، هو هدف لم يتحقق إثر إنتصار الثورة المكابية، وأنهم ما أن إنتصروا حتى أصبحوا مثل أعدائهم يطبقون نفس الأساليب توسعا فى الأرض وطردا للشعوب غير اليهود من أراضيها، وإجبارهم على التغيير الجماعى للدين، والقمع القاسى والوحشى لكل حركة شعبية يهودية. وهكذا أصبح المكابيون أنفسهم سلطة ظالمة وخالفوا أهم المبادئ الأساسية للعقيدة اليهودية التى ثاروا من أجلها. وانتهى الأمر بحاخامات اليهود إلى تفضيل الحكم الأجنبى عن قبول ملك يهودى، حتى ولو كان يحظى باحترام قومى، طالما أنه لا يحافظ على شرائع التوراة.

٥ - كانت الضيعة التى توصل إليها عدد من الحاخامات برئاسة يوحانان بن زكاي مع الرومان بشأن اتخاذ «يفنه» مركزا روحيا لليهود، هى صيغة قبل بموجبها الحاخامات اليهود السيادة القيصريّة دون مراجعة وتم فرضها على الجمهور اليهودى، مع التخلّى عن أى ظموح قومى، مقابل صلاحيات بسلطة مطلقة للحاخامات اليهود على الجمهور اليهودى، الذى فقد السمات القومية التى كان قد حصل عليها فى فترة «الحشمونائيم» وهوردوس، وعاد وقبل سمات الطائفة الدينية المغلقة والمنغلقة، التى تحكمها «الهالاخاه» ومفسريها من «الفريسيين» على غرار ما كان عليه الأمر فى فترة الحكم الفارسى. وهكذا أصبح التفسير الحقيقى

«للتبليور والوحدة الدينية» هو التخلي عن القومية، وتحويل اليهود إلى مجرد طائفة دينية.

٦ - غدى انغلاق اليهودية على ذاتها وعودتها إلى وضع الطائفة الدينية، (وهي الخطوات التي قادها حكماء «يفنه»)، بصورة متناقضة، «الاسكاتولوجي» (الارتباط بالإيمان بآخرة الأيام) المسيحاني المنغلق. ومن المحتمل أن يكون هذا الانعزال عن العالم هو الذي مهد الأرض لتجاهل جزء من جيل الحاخامات التالي لحقائق الواقع السياسي العالمي. ويتضح هذا التناقض على ضوء حقيقة أن تعاون الحاخامات مع الرومان قد تطور خلال جيلين (نشأ تمرد بركوخبا بعد ٦٠ عاما من قيام يوحانان بن زكاي بالتعاون مع الرومان في إطار المحافظة على اليهودية من الضياع نظير التخلي عن الطموحات اليهودية القومية السياسية) إلى تمرد مسيحاني، تعاون فيه كثيرون من الحاخامات. وهذه الواقعة لها تناظرات وظيفية في العصر الحديث، حيث أن دوائر دينية يهودية معتدلة وبعيدة نسبيا عن السياسية القومية تحولت خلال سنوات قليلة إلى متعصبين «مسيحانيين».

٧ - بعد ظهور المسيحية أدركت المؤسسة الفريسية (نسبة إلى الفريسيين) أن موجة اعتناق المسيحية تنطوي على خطر انشقاق وتعدد داخل اليهودية؛ ولذلك فإنها فضلت صيغة الطائفة الصغيرة المبلورة جيدا والمنضبطة، والمسيحية جداً من كل جوانبها، عن صيغة دين الملايين الذي يضم يهودا مزعزعين، وتفسر طوائفها المختلفة التوراة حسب هواها، دون أي صلاحية توحيدية خاضعة لها.

١٠ - على عكس المسيحية التي أثراها الخارجون عليها والانشقاقات التي تعرضت لها، لفظت الارثوذكسية المنغلقة خارجها كل كتلة تجرأت على تحدى الصلاحية المطلقة «للها لاخا» وحاملي لوائها. وهكذا لفظ في البداية «السامريين» و«المتأغرقين»، وبعد ذلك «الصدوقيين»، و«الاسينيين»، و«المسيحيين»، و«القرائين»

و«الفرانكيين»، و«الشبتائيين»، وليس ببعيد أن تلفظ «الحسيدية» هي الأخرى من اليهودية.

وهكذا أصبح الطابع الروحي لليهودى متمشياً بالكامل تقريبا مع وجود «الهالاخاه» (الشريعة اليهودية) ودراساتها والحفاظ على البناء الطائفي المرهون بذلك فى حد ذاته، ومن هنا فإن الحفاظ على اليهود، لم يعد يعنى إلا الحفاظ على سيادة اليهودية الاثوذكسية فى طائفتها.

٨ - أصبح الطابع المهيمن والمسيطر على عقلية الطائفة اليهودية ذات النظام وطابع الحياة والبناء الاجتماعى المتضامن، هو «لاتبحث فيما هو مثير لدهشتك، ولا شأن لك بالأشياء الخفية». ومن هنا، كانت ظاهرة اللاعقلانية الواضحة فى اليهودية. وقد كانت هذه السمات، بالذات، هى التى أتاحت لليهودية قوة الصمود، وعزلت بذلك نفسها عن التاريخ، ولم تخف عن المؤمنين بها أى تفسير للتاريخ الخاص «بالمنفى» الذى سيخلصهم منه المسيح المخلص. لقد كان منطلقها فى هذا، هو أنه كلما إنقطع إتصالها بأى وعى مع الواقع، فإن هذا يؤدى إلى تطور أنظمة طقسية وجدلية لاقامة جسر، أيا كان، بين الوعى والواقع. وبموجب هذا، فإن كل الكوارث التى تحل على اليهود فى الشتات ليست فى حاجة إلى تفسير، باستثناء أن الشتات هـ حكم إلهى على اليهود بسبب خطاياهم. وهكذا تم خلق بناء سيكولوجى مغلق، يقوى نفسه، من منطلق أن الكارثة هى الدليل على الخطيئة، بدلا من أن تكون سببا للتأمل فى معايير الرب، على النحو الذى فعله أيوب. ولذلك، فإنه كلما كانت تزداد الكوارث كان يزيد الوعى بالخطيئة، ومن أجل تبرير الوعى بهذه الخطيئة كانت تتطور منظومة لانهائية من التحريمات والعقابات لايسمح لأى كائن يهودى بتجاوزها.

٩ - كان مغزى إنعزال الطائفة عن التاريخ، هو الإنعزال عن الدين يصنعون التاريخ، والذين كان ينظر إليهم بإعتبارهم «جوييم» (شعوب كافرة). ولذلك فقد

أصبحت هناك حالة من الغربة السيكولوجية الموضوعية بين أولئك الذين فى وسط التاريخ وأولئك الذين خارجه. ولم يعد كل من هؤلاء قادر على فهم الآخر، وبدأوا يشكون كل فى الانسانية المشتركة لكليهما.

١٠ - تبلورت قوة صمود الطائفة اليهودية عن طريق شبكة متفرعة من مؤسسات المساعدة المتبادلة فى داخلها، عن طريق تأكيد الجماعية التى تنطوى عليها، والتى تزود كل فرد بالمساعدة والأمان النفسى، ولكن فى مقابل تخليه عن الفردية والاستقلالية الفكرية لديه، وذلك عن طريق منظومة من القوانين والشرائع المقيدة للفرد.

١١ - منذ عصر تمرد بركونخيا (١٣٢ - ١٣٥ م)، وحتى ظهور الصهيونية كان يتم التعبير عن المفهوم السياسى الرئيسى لليهودية من خلال «العهد» التلمودية الثلاثة التى أمر بها الرب. ويمكن إيجازها فيما يلى: عدم حدوث حركة انتقال جماعية (هجرة) لليهود من بلاد الشتات إلى «أرض إسرائيل» (فلسطين)، وعدم الثورة على شعوب العالم، وألا يحدث إفراط فى إضطهاد الشعوب غير اليهودية «للشعب اليهودى». وكانت تلك عقيدة يهودية هامة، حتى بالرغم من عدم إثارتها للكثير من الجدل، حيث أنها كانت تبدو أثناء الظروف، التاريخية فى تلك العصور، على أنها أمر واضح، بل وعادى. وكان لب هذا المفهوم هو السلبية المتمثلة فى تفادى العمل السياسى، إنتظارا لمجىء «المسيح المخلص» فى صبر، دون محاولة التعجيل بقدومه لأن ذلك محرم تماما.

ولذلك كانت الصهيونية محرمة، وحاولت الصهيونية الدينية المعاصرة إعادة تفسير تلك العهود والحد من قوتها، فزعمت على سبيل المثال، أن «العهد» كانت بمثابة صفقة متكاملة، ونحيث أن شعوب العالم لم تلتزم بما عليها فى الصفقة،

طبقا لما جاء فى العهد الثالث، فإن اليهود المعاصرين يمكنهم الهجرة الجماعية إلى فلسطين.

ومثل ذلك التفسير، يجعل من الصهيونية مسألة شرطية محضة: فلو أن غير اليهود لم يتجاهلوا عهد «عدم إضطهاد اليهود» لكان على اليهود أن يمتنعوا عن الهجرة الجماعية إلى فلسطين. ومن هنا فإن جماعة مثل جماعة «حسيدية سطمار» (التي تنسب إلى الحاخام تايطنبويم المعروف بلقب «الحاخام من ساطمار» ويمثل الصلاحية العليا لاتباعه من «الحسديد» فى الولايات المتحدة الأمريكية، وللطائفة المتشددة دينيا فى إسرائيل «الحريديم» ومن بينها جماعة «نطورى كرتا») المعارضة للصهيونية تستغل العهد ذاتها لتجريح الصهيونية كصفقة متكاملة بالمعنى العكسى تماما، إذ أن إنتهاك اليهود للعهد بسعيهم تنفيذ المشروع الصهيونى، هو الذى أدى إلى «الهولوكوست» (المحرقة).

ومن ثم، فإنه يمكن فهم العهد على أنها قرار للحيلولة دون ظهور أية مبادرة من شأنها تقويض أسلوب الحياة اليهودية بالشكل الذى وصلت اليه فى «الشتات»، ونظرا لخشية الدوائر اليهودية التقليدية من التغيرات التى يمكن أن تقوض هذا الأسلوب من الحياة، فقد كانوا شديدى المعارضة للصهيونية، إذ كانوا يتخوفون من أن يؤدى تحقيق هدف «الصهيونية إلى خلق تحد جديد وصعب لليهودية.

وبالنسبة لموقف الديانة اليهودية من قيام دولة يهودية، يمكن توضيح ذلك، على ضوء أن حكماء اليهود قد حددوا قوانين الديانة اليهودية على أساس التشريع والعادات المتوارثة، وهو أمر حدث فى زمن لم تكن توجد فيه دولة يهودية، ولذلك تم تجاهل المسائل المستمعية المتعلقة بكيفية أداء الدولة اليهودية لوظائفها.

لقد كانت المهمة التى واجهت حكماء اليهود بعد تدمير الهيكل الثانى، وقمع تمرد بركوخبا على يد الرومان، هى تأمين بقاء اليهود فى أوساط معادية.

ورأوا أن الحفاظ على بقاء اليهود لا يتأتى إلا من خلال إنعزالهم، وشرعوا لذلك الهدف في «الهالاخاه»، وهو مجموعة من التشريعات الدينية الموضوعة لتقنين أسلوب معيشى والزامى. وبذلك أصبح السلوك اليهودى الفريد، والمتأصل فى الوعي اليهودى يجد تعبيرا خارجيا دقيقا فى كافة مناحى الحياة، وفقا لما جاء فى التلمود الذى يمثل المرجع الرئيسى للتشريعات اليهودية^(١).

وفيما يلى سأقدم للقارىء أهم النتائج التى أثبتتها المؤلف فى كتابه والتى تؤكد ما سبق أن أشرت إليه فى المقدمة حول توجهات المؤلف بشأن شيوع الصراع بين الدين والسياسة فى التاريخ اليهودى القديم:

(١) تتوافق وجهة نظر المؤلف مع ما ذهب إليه الباحثون فى مجال الدراسات النقدية للعهد القديم فيما يتصل بمصداقية الرواية التوراتية وتعدد رواياتها ومدونيتها وتأخر تاريخ التدوين الى ما بعد الأحداث بقرون عديدة.

(٢) التأكيد على ملازمة ظاهرة الشتات اليهودى للتاريخ اليهودى وعدم أهلية اليهود لتأسيس دول أو ممالك لتعارض ذلك مع مضمون وروح اليهودية، وأن الذى حافظ على اليهود هو الدين وليس الاستقلال السياسى.

(٣) تدل كلمة «سامى» فى الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» على سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظراً لأختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطاً شديداً.

(٤) من المحتمل أن تكون قصة سيدنا إبراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل لعل القصة كما نعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لإعادة التدوين تظهر فى السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

(١) هركابى، يهوشافاط: ساعة اسرائيل المصيرية، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة (٧٩٤)، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٥) الكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم واسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكي نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن إبراهيم قد أعطى فكراً كبيراً أبداً لكل العالم، حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له.

(٦) يتفق العلماء على أن وعود إبراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، فى ذلك الوقت، إلى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يثور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم إلى إبراهيم البدوى راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن إبراهيم لم يكن أول الموحدين بالله وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغى لنا أن نسأل أنفسنا كيف أصبح الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذى خاطب إبراهيم كان هو الله رب العالمين.

(٧) إننا لم نعرف من هم آلهة إبراهيم، إلا أنه بعد وفاته بضع مئات السنين ظهر «يهوه» باعتباره رب إسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا اسم «يهوه» بدلاً من الأسماء الأخرى التى كانت تطلق على آلهة إبراهيم فى الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التى كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعاً باسم «يهوه». ويربط هذه العبارة ذهنياً مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذى تناول العشاء مع إبراهيم فى خيمته وأنه هو الذى تناقش مع الشيخ الجليل حول مصير سادوم (بلدة لوط المذكورة فى التوراة).

(٨) إن الاسترقاق الذى مارسه فراعنة مصر ضد الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا واستخدامهم فى أعمال السخرة بدلاً من استخدام رعاياهم، ولا يمكن

فى الواقع أن يسمى «عبودية». وقد اقترض بنو إسرائيل من المصريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلى من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين».

وهنا لا ينظر إلى يهوه. على أنه رب العالمين، بل على أنه رب إسرائيل، الذى يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا فإن إقراض المصريين حليهم لبنى إسرائيل لا يوحى بالعبودية كما نتصورها ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك بأنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيما بعد، حزن بنو إسرائيل على فقد حياة الترف والرغد فى مصر، بما يشير إلى ارتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

(٩) ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التى امتدت قرابة أربعمئة عام أى من فترة الأباء إلى عهد سيدنا موسى، ولا نستطيع أن نعرف ما إذا كان بنو إسرائيل فى عهد موسى قد انحدروا فعلاً من سلالة إبراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة، وكمثال زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

(١٠) كانت لموسى عليه السلام تجربة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو إسرائيل قد سمعوا قط عن «يهوه» الذى سيصبح إله إسرائيل. ومرة أخرى تلقى موسى الوحي على جبل سيناء.

(١١) يوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى إسرائيل الأولى أخذت منبعها من الصحراء. وهناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة «يهوه» الذى كان موقراً فى أيام ما قبل إسرائيل باعتباره رب سيناء. حوريب.

(١٢) كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفاً تماماً عنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمئة عام، كما كان مختلفاً أيضاً عن الكهنة الذين أشرفوا فى النهاية على تجميع وإخراج نسخة العهد القديم.

(١٣) اكتشف فى مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد الفرعون مرنبتاح ابن رمسيس الثانى، وتصف هذه النقوش حملة إلى فلسطين، ويزعم فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكنعانيين والهوريين، ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها» وإنه لم تتفرق ذريتها». وفيما يختص بالشعوب الأخرى، فقد جاء ذكر مدنها، إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنسب لإسرائيل. وكانت هذه أول مرة يذكر فيها اسم إسرائيل خارج العهد القديم، وربما كان تاريخ ذلك حوالى عام ١٢٢٠ قبل الميلاد. ونظراً لأنه لم تذكر أية مدن إسرائيلية، فإنه يبدو أن إسرائيل، كانت لاتزال تسكن الخيام فى سيناء. وعندما ضربوا خيامهم فى سهول بير السبع ليشتروا الحبوب باعنتهم واجتاحتهم العجلات الحربية المصرية.

(١٤) يذكر العهد القديم أنه كان لدى إسرائيل تسعمائة ألف رجل فى سن الجندية. وبالتالى يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالى للعشيرة هو مليونان من الأنفس. ويعتقد أغلب الباحثين المصريين أن إسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالى كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشرة ألف نسمة. وإذ رجعنا إلى أن بنى إسرائيل كانوا جميعاً قادرين على أن يستقوا من بئر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات فى صباح واحد فإنه يصعب القول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً.

(١٥) بينما يحكى سفر يشوع أنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل إلى شكيم، وبأنه مسحها قسمها بين الأسباط، يقص سفر القضاة قصة أكثر واقعية، حيث يصور الأسباط المختلفة وقد كل قام لك سبط منها بعمل مستقل فى محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها، وغالباً ما تم ذلك بالاتفاق مع السكان الموجودين فى المنطقة.

ويعتقد أغلب الباحثين المصريين أنه حدث قتال على أضيق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت إيل في هذه المرحلة، حيث تسلل بنو إسرائيل إلى أرض كنعان وتوصلوا إلى تفاهم مع السكان. وما جاء في سفر يشوع من أنه كان يقسم الأرض ويقيم الحدود بين الأسباط، قتلك عبارات مألوفة في مجتمع زراعى مستقر ولا تتفق مع حياة الرعاة الرحل. وتلك العبارات، مثل غيرها كثير مما جاء في أسفار موسى الخمسة، لا بد وأنها كتبت بعد مضي عدة قرون.

(١٦) يوجز سفر القضاة الأصحاح الثالث/٥، الموقف الناجم عن الغزو كالاتى: «فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيتهم وعبدوا آلهتهم». وقد تشير عبارة «سكنوا بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى، كما تدل هذه العبارة، ضمنا، على أن بنى إسرائيل كانوا أقل عددا من «أهل البلاد». ويستنتج البعض أن القبائل في هذه المنطقة كانوا على شاكله بنى إسرائيل وأنهم انضموا إليهم طائعين، حيث أن بنى إسرائيل في مصر كانوا جمعا مختلطا.

(١٧) أن الآراء المتعارضة حول تنصيب ملك على إسرائيل الواردة في سفر صموئيل تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط يتحرق شوقا إلى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل، من وجهة نظر أخرى، وجهة نظر ملكى، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعدهما بفترة بجمع وجهتى النظر المتعارضتين.

(١٨) أن ديانة بنى إسرائيل الأقدمين كانت في بعض مظاهرها أشبه بديانات الأم المحيطة بهم، إلا أن ديانة بنى إسرائيل كانت عرضة للتغيير الدائم، ولذا فإن

أقصى ما مكن عمله هو وصفها في وقت محدد، لأن تقديم القرابين من الأغنام والثيران لا يمكن أن يتم إلا في ظروف زراعية، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد». وقد إندمج الشعبان الكنعاني وبنو إسرائيل وصاروا شعبا واحدا، واكتمل الإمتزاج بينهما بالتزاوج والتعاهد والمتاجرة، وصارت إسرائيل الشريك البارز وتحولت كثير من العادات الكنعانية إلى عادات إسرائيلية، وبصفة خاصة، إندمج كثير من الديانة الكنعانية في ديانة يهوه.

(١٩) على الرغم من مضي ٢٥٠ عاما منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم في حوزة اليبوسيين، وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الإسرائيلية الأخرى في السهل حتى بثيروت وبيت إيل، تعزل يهودا عن القبائل الشمالية، وفضلا عن ذلك كانت لأورشليم سمعتها بأنها حصن لا يقهر، مما جعل داود يرى أنه بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لإسرائيل الموحدة، لذا إستولى عليها ونقل مقره إليها، إلا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية في المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبي البابلي، وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ٨٠٠ سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة، وهو التقليد الذي أوحى لداود بفكرة مبايعته الخاصة ليهوه، وأوحت الرعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كي يتحكم أسرته إلى الأبد، وأن أورشليم المدينة اليبوسية هي المقر الخاص بيهوه، وكان لهذه الرعاية دور في تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، في ذلك الوقت، لم تخذع بهذا الدعاية، وظلت مخلصمة لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) في أورشليم.

(٢٠) لكي ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من كل أنحاء إسرائيل، أي كما كان يفعل رمسيس الثاني في مصر، وعلى الرغم من ذلك

فقد غرقت البلاد في الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية لملك صور.

(٢١) لم يعد في الامكان تقييم معنى مصطلح «بنى إسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حراً مع شعب البلاد على كافة المستويات. وتوضح المطالعة الدقيقة للعهد القديم بالذات، أن وحدة بنى إسرائيل كانت وحدة جد غامضة سياسياً وعرقياً، فلم يكن دين يهوه دين منطقة جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبداً الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى إسرائيل، إلا أننا إذا كنا لانستطيع أن نعترف من هم بنو إسرائيل، ولانستطيع أن نفصلهم عن الجماعات الأخرى، فكيف كانوا، والأمر كذلك بالنسبة للشعب المختار الذي يختلف عن سواه؟

(٢٢) كانت إسرائيل القديمة مجرد ولاية صغيرة ناشئة تترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التي قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلاً في أن تدرك أن العجى وراء الثروة والصيت والسلطان يشتري إحساساً زائفاً بالأمن.

(٢٣) أعيدت كتابة العهد القديم بأيدي كهنة أورشليم عندما زالت دولة إسرائيل، ومع أنهم ضمّنوه بعض مواد من الشمال (الرواية الايلوهيمية)، فإنهم كانوا أحراراً في نبد أية مادة لاتروق ليهم، وبالتالي كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين من يعتقد أن بعض المزامير إستعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية.

(٢٤) بدى الغزو البابلى (٥٨٦ ق.م) ليهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض وذبح سكانها، ولم يكن ذلك من قبيل إضطهاد اليهود، بل كانت تلك هى الطريقة التى يعامل بها الآشوريون والبابليون الولايات الشائرة

عليهم، وترك يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا إلى السبي في بابل، وتفرقت البقية في عمون وموآب وسوريا وفي مصر فشكّلت بذلك بداية التشتت.

(٢٥) لقد تحطمت المعتقدات اليهودية القديمة بعد السبي البابلي حيث سقطت مقولة (أن أورشليم هي مقر يهوه، ومن ثم فهي لن تقهر، وأن بيت داود سوف يحكم إلى الأبد)، إذ لم يدافع يهوه عن صهيون ولم يحكم آل داود إلى الأبد، ووجد المنفيون في مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل وأدركوا كم كانت يهودا صغيرة، وشكوا في إمكانية أن تكون دولة صغيرة كدولتهم محل إختيار الله العظيم.

(٢٦) خطّ إشعيا النبي سطرا جديدا وصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون، وهكذا من أعماق الكارثة بدأت الديانة اليهودية الروحانية. وإذا كان اليهود قد حرّموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتقون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هي العلامة المميزة لليهودى، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمسة وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

(٢٧) كانت الجماعة الأولى التى عادت إلى القدس (من بابل) فى عهد قورش جماعة صغيرة وبقي كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم. وانتعشت الطائفة اليهودية فى بابل وفارس إنتعاشا عظيما وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط.

(٢٨) كان عزرا هو الذى غير تاريخ اليهودية، حيث حدد أنه على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يكون فى معزل عن البشر. وقد هلك البعض لاصلاحات عزرا ووصفه البعض الآخر بضيق الأفق، ولكن حركة الاصلاح التى

بدأها لاتزال ملموسة حتى اليوم، وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، حيث كان لبنى إسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمائة عام، ولكنه أراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء إحتقار الغزاة القديم لأهل البلاد. وكان عزرا يتحدث بغير دقة عندما يصف اليهود فى الشرق الأدنى، بينما حدث الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لا يعبدونه.

(٢٩) لم تكن الديانة اليهودية مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكن تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت إجتاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن رأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

(٣٠) فى الفترة اليونانية بدأ صبغ أورشليم بالصبغة اليونانية على يد اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التنكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، وكان تقليد اليونانيين يعتبر تعصرا وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا. وكانت الأمبراطورية اليونانية تضم كثيرا من المجموعات الدينية الصغيرة التى تدين لها بالولاء، وبدى الأمر فى يهودا وكأن الدين هو الذى يشير عدم الولاء، ولذلك حاول أنطيوخس طمس معالم الديانة اليهودية، فحرم الختان وأعتبر تحريم أكل الخنزير جريمة لاتغتفر ونصب تمثال جوبيتر فى الهيكل.

(٣١) على الرغم من أن بداية حكم الحشمونيين إتخذ طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الاتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم «الحسيديم»، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

(٣٢) على نحو ميلاد إسرائيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازى، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطيوخس الرابع يهودا إلى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة، وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكرى. ولكى يزيد يوحانان من أعداد جيشه حول الادوميين (الذين كانوا يستوطنون الخليل) قسرا إلى الديانة اليهودية، وهى سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية. وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقرار بين الامبراطوريات، الأمر الذى يشبه كثيراً ما حدث فى الشرق الأوسط فى أيامنا بين البريطانيين والروس.

(٣٣) يجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودى (الجيتو)، الذى قام فيما بعد، أنه فى عام ٣٠٠ ق.م كان اليهود يفضلون أن يعيشوا فى مجتمع يهودى خاص بهم، بالرغم من أنهم كانوا، فى ذلك الوقت يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد مايكونون عن الاضطهاد.

(٣٤) لم يكن فى العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود فى المهجر، ويقول سترابو (ولد سنة ٦٣ ق.م)، العالم الجغرافى الرومانى - اليونانى، أن اليهود كانوا يملأون الدنيا حوالى عام ٤٨٧ ق.م، بحيث كان يصعب أن نجد مكاناً فى الدنيا ليس به جالية يهودية ضخمة ذات نفوذ كبير. وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود فى العالم الخارجى إلى أعدادهم فى يهوذا، قبل ظهور المسيح لوقت قصير، اختلافاً شديداً، بل أنها تختلف من القول بأن «اليهود فى المهجر كان عددهم مساوياً، على الأقل، لعدد اليهود فى يهوذا، إلى القول بأنه ربما كان عدد اليهود خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم فى يهوذا. ومن الأرجح أن عدد اليهود فى المهجر كان مساوياً لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم فى يهوذا وهذا يعتبر تخميناً مقبولاً. ويكتب الحاخام ريزين

فى معرض حديثه عن عهد الحشموينين (١٠٦٦ - ٣٨ ق.م) عن تدفق اليهود المستمر إلى الدول الأخرى، ويستطرد فيقول «إن كثرة عدد اليهود فى جميع أنحاء العالم قبيل غزو الروم لفلسطين لم تكن ناتجة عن كثرة التوالد الطبيعى، لأن نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية.

(٣٥) من المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشئون المالية بدأ فعلاً فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد سنة ٧٠ م أن اليهود لم يكونوا شعباً تجارياً، كان يشير فقط إلى أهل يهودا.

(٣٦) قد خدم يهود الاسكندرية البطالمة قرابة ثلثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيون تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم. وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من السكندريين ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائماً فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

(٣٧) يقول رينان أن «اليهود قدموا فى وقت مبكر جداً إلى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمان طويل، وقد استقبلوا استقبالاً طيباً ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكونوا لهم سلف واحد فى فلسطين.

(٣٨) كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهودياً من جميع الوجوه (تاركاً جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة البجالية اليهودية) أمراً حاسماً، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى

كثير من الأمور، بالرغم من إنتمائهم إلى سلالات مختلفة لا تدخل تحت حصر.

(٣٩) ليست هناك طريقة لاحصاء نتائج التبشير اليهودي (لتحقيق التحول الديني) في الحقبة التي يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك في أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخلون في دين اليهود من أجناس كثيرة، ومن كل طبقات المجتمع. وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين في القرن الثاني بعد الميلاد من أصل وثني مثل الحاخام عقيبا الشهير.

(٤٠) من بين الامتيازات العديدة التي كانت ممنوحة لليهود دون غير في الامبراطورية الرومانية الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت. وكان تصدير الذهب محظوراً، إلا أن اليهود فقط كان في إمكانهم جمعه وإرساله إلى أورشليم. وعل أية حال فقد وصل كثير من اليهود إل مرتبة فارس روماني كما كان هناك أعضاء من اليهود في مجلس الشيوخ الروماني. وليس بمستغرب أن تضج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التي ينالها المواطنون الآخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات. ولم تسبب الثروات في يهودا أى انتقاص لهذه الامتيازات في جميع أنحاء الامبراطورية.

(٤١) لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل إلى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة. فقد غزا الحشمونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان سراً. وقد أصبح كل هؤلاء يهوداً بالدخول في ديانة اليهود دون أن يكونوا يهوداً من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.

(٤٢) عقد يوحنا بن زكاي، وهو واحد من أبرز أحبار ذلك العصر، العزم على الهروب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل في تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب إلى فسبازيان وحصل على الإذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة في يافته على السهل الساحلي، وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية. وهو تحول غريب في التاريخ اليهودي فمن المنازعات الضارية «للزيلوت» المتعصبين إلى حوار معلمي الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية لشمعون بر جيورا ويوحنا الجيشالي والزيلوت إيعازار إلى الباحثين المسلمين عند جملثيل، ومن قعقة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة ومساوىء القحط والمذابح والحرائق إلى المجادلة في اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت. وقرر الأحبار في «يفنه» أيضا، أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفا بحرف، بل كتبه الانسان. أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا حتى سنة ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودي السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بريزين كان الأتبار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية.

(٤٣) لم يكن المتطرفون الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود في فلسطين. ومما يثير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الأدوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية ومن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم من غير السلالة اليهودية الأصيلة. ولا يبدو أن وازعهم كان وازعا دينيا، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكراحتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسون والمواطنون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم. ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة كانت المعاملة التي يلقيها

الأسرى معاملة وحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية فى ذلك الوقت. فقد رأينا الكسندر جانناى ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعاً.

(٤٤) لا يمكن القول بصفة دقيقة أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية فى العالم خمسة أمثال اليهود فى فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود فى الاسكندرية، وطرابلس فى بداية الحرب، ولكن فيما عدا ذلك لم يتأثر اليهود فى العالم. بل كان هناك شىء أكثر مغزى وهو أن الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شىء. والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت أن هذه الحوادث هى مجرد تمرد فى فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيراً من يهود العالم كانوا من المتهودين المحليين الرومان أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان - ممن لم يكن لهم روابط مع فلسطين.

(٤٥) عندما نفذ صبر هارديان آخر الأمر، عكس الآية فغير مسلكه السلمى (كما فعل أنطيوخس إيفانس من قبل) وأصدر تشريعاً يقضى بتحريم الختان، فثار رجل فى يهودا يطلق عليه «بركوخبا» (ابن الكوكب) وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، ووصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥ م. أنحمدت ثورة بركوخبا بعد أن أريق دماء كثيرة وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم. كمدينة رومانية سميت برسم «إيليا كبتولينا»، وهكذا فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الأسلوب الروحاني هو الأسلوب الآخر الذى اتبع بحماس شديد.. فلقد قدر لليهود ألا يشكلوا مملكة على هذه الأرض.

وفى ختام هذا العرض أرجو أن قد وفقت فى مساعدة القارئ على فهم الفكرة الرئيسية التى تضمنها هذا الكتاب والتى يمكن أن تعين كثيرا فى قراءة متن الكتاب بتفاصيله، كما تعين فى نفس الوقت على قراءة الواقع السياسى المعاصر الذى تمر به دولة إسرائيل حاليا.

وتأكيدا لمصادقية هذه الرؤية للتاريخ اليهودى القائمة على نظرية أن اليهود يشكلون جماعة دينية شتاتية (دياسبورية) وأن الشتات هو الوسيلة الأكثر ضمانا لاستمرار وجودهم من خلال التقوقع داخل إطار الدين وضمانا لأمنهم الاقتصادى (قدر اللحم)، وأنهم لا يصلحون لأن يكونوا شعبا مثل سائر الشعوب فى إطار سياسى فى فلسطين، وأن فلسطين ظلت عبر التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، ولكنهم لم يهاجروا إليها بجموعهم، واكتفوا بترديد شعارات الأحلام والشوق إليها وانتظار الخلاص المسيحانى، تأكيدا لهذا كله، أقدم رؤية الأديب والمفكر الاسرائيلى أفراهم ب. يهو شواع حول هذه القضية والتى نشرها فى كتاب بعنوان «بفضل الطبيعية» (بزخوت هنور ماليوت)، تحت عنوان «المنفى - الحل العصابى».

والله الموفق

د. رشاد عبد الله الشامى

مصر الجديدة ٢٠٠٠/٩/٣٠

«المنفى* . الجدل العصابي»

للأديب الاسرائيلي أ.ب يهوشواع** عن كتاب «بفضل الطبيعة»

(دار نشر شوكن - تل أبيب ١٩٨٠)

تعتبر مسألة «المنفى» أهم وأعمق سؤال يجب على اليهودي أن يسأله لنفسه، حينما يتوه في مضمون الشعب اليهودي. ان «المنفى» هو مصدر المشاكل التي يتخبط فيها اليهود منذ أجيال كثيرة، وعلى الأخص في القرن الماضي، وهو لب المشاكل العملية التي تتخبط فيها دولة اسرائيل في الحاضر. إن فهم ظاهرة المنفى هو المفتاح من أجل فهم الظاهرة اليهودية، ومن شأنها أن تحرك مشاعرنا أكثر من كل شيء من أجل التمييز الأمين جداً للصراعات القاسية، التي تورط فيها اليهود ومازالوا فيها حتى الآن. إن الشعب اليهودي يحوى تنوعات غنية، وأحيانا تناقضات من العقائد والأفكار والقيم. ومن بين هذه الأشياء ما كان ارثا للشعب لفترة متواصلة وحظى من أجل ذلك بتأكيد أكثر. وعلى وجه العموم فإنه يمكن طرح وجهة نظر ما جاء في المصادر الدينية المكتوبة، ويمكن طرح وجهة نظر مختلفة تماما في مقابلها، لها أيضا سند في المصادر. ولكن كل أصحاب التفسير المختلفة لمغزى القيم اليهودية يتعرفون في نهاية الأمر ببعض المسلمات الشائعة، مثل «حب

(*) يستخدم يهوشواع في كتابه مصطلح «المنفى» (جالوت) بدلات من «الشتات» (الدياسبورا) عل اعتبار أنهم في المصطلح الصهيوني يفرقون بين «المنفى» كظاهرة قسرية إجبارية، وبين «الشتات» كظاهرة إختيارية، وذلك عل الرغم أن مضمون فكرته يقوم على أساس أن اليهود هم الذين إختاروا الحياة خارج فلسطين عبر التاريخ طوعية وليس جبراً أو قسراً، أى أنهم عاشوا في «شتات» وليس في «منفى».

(**) ولد أ. ب يهوشواع في القدس عام ١٩٢٦ ويعيش حالياً في حيفا. درس الأدب والفلسفة في الجامعة العبرية بالقدس. عاش خارج إسرائيل من ١٩٦٣ - ١٩٦٧. يعتبر من أبرز علامات الأدب العبرى في إسرائيل منذ الستينيات حتى الآن. من الأدباء المحسوبين على اليسار الإسرائيلي، وينادى في كتاباته بأن تكون إسرائيل دولة كل مواطنيها بما فيهم عرب ١٩٤٨. يتبنى وجهة نظر بأن الشتات ركيزة رئيسية للوجود اليهودي. نشر العديد من الأعمال الأدبية تعاطف في بعضها مع الحق الفلسطيني. من أبرز أعماله: «في صيف ٥٧٠»، «في مواجهة الغابات»، «العاشق»، «الطلاق المتأخر»، «الفصول الخمسة» (مولوخو)، «السيد ماني»، «رحلة إلى الهند».

أرض اسرائيل» ، و«شعب اسرائيل» ، «والايمان بحق الشعب فى الوجود الوحدة» ، وما شابه ذلك من المبادئ الثابتة والبيديهية. وهذه الأشياء تساعدنا على الوصول إلى فهم أكمل لمضمون الشعب اليهودى. وحينمانحاول أن نحلل واقع المنفى الموجود فى التاريخ اليهودى لالفين وخمسمائة عام تقريبا فاننا نقرب من فهم أكثر واقعية للب المشكلة اليهودية.

ففى السنوات الخمس عشرة الأخيرة يوجد تركيز على الأسئلة العملية التى يثيرها المنفى: كيف نزيد الصلة بين دولة اسرائيل والمنفى؟ كيف نمنع الانصهار؟ هل سيقوم فى اسرائيل مركز للعالم اليهودى؟ - ولكن السؤال الكبير أو السؤال الأساسى - الذى اثارته الصهيوتنية بعنف - «لماذا المنفى على وجه العموم»؟ - وهذا السؤال يبدو أنهم يخجلون اليوم من سؤاله.

هناك وجهتا نظر اساسيتين مختلفتين فى تناول المنفى. وجهة النظر الأولى تنظر الى المنفى باعتباره حادثة وقعت للشعب اليهودى وكارثة كانت الشعوب هى السبب فيها وفرضتها على اليهود، وبينما كانت الشعوب الأخرى تنهار تماما عند حدوث كارثة كهذه وتفقد هويتها كشعب، فإن الشعب اليهودى (بسبب الحصانة الروحية الداخلية) نجح فى الصمود والطوفان فوق امواج التاريخ. صحيح أن المنفى ظاهرة متواصلة، وربما لم يبذل الشعب كل الجهود العملية من أجل التخلص منه، ولكنه كان فى نظره دائما بمثابة حالة مؤقتة، ولم يفقد فى أى مرة رغبة العودة الى أرضه، التى فيها يكتمل استقلاله ويتم خلاصه خلاصا قوميا وروحيا. أى أن الشعب ببساطة ينتظر ظروفًا أحسن، تمهد لمجيء الخلاص المرتقب. وعن وسيلة تؤدى به للاستقرار فلسطين. وحينما يأتى السلام ويسود قليلا، يتفتت المنفى ويتدفق رويدارويدا الى اسرائيل.

وهذا الاتجاه الفكرى، الذى يفترض أن المنفى هو حالة فرضت على اليهود، يتجاهل حقيقة أساسية وهى، أن المنفى لم يفرض على اليهود، بل هم الذين فرضوه على أنفسهم، ولا يجب أن ننظر إليه كحادثة أو ككارثة بل كاعوجاج قومى داخلى أعمق - لذلك فإن الطريق نحو الحل، إذا ما كان الشعب يريد الحل فعلا، يختلف تماما عما هو شائع فى مناهج التفكير. إن الشعب اليهودى غير جدير بالمديح الذى نكيله له لأنه صمد فى المنفى. فلو كانت هذه بالفعل كارثة فرضت عليه، لكان هذا الشعب جديرا بالمديح الذى يكال له لأنه صمد ولم ينهار بسبب هذه الكارثة. ولكن نظرا لأنه شو نفسه قد إختار ومازال يختار هذه الطريقة فى الوجود، إذن فلا داعى للتعجب والانفعال لأنه كيف وجوده القومى مع هذه الحالة.

أما وجهة النظر الثانية، فإنها تنظر إلى المنفى كظاهرة دائمة وشبه طبيعية بالنسبة لليهود. انها تعترف بالتعاون الوثيق بينها وبين هذا الشكل من أشكال الوجود. ووفقا لوجهة النظر هذه تعتبر اليهود شعبا شتاتيا، وهنا تكمن قوته الوجودية. ووفقا لهذا الاتجاه الفكرى يجب ألا نتدهش لأن الشعوب الأخرى لا تقيم منفى جديرا باسمه كوسيلة مدروسة من أجل ضمان وجودها القومى على مدى الفين من السنين. وهذه المدرسة الفكرية تفهم جيدا مدى عمق حاجة اليهود للمنفى، لدرجة أنه أصبح متداخلا بشكل عضوى فى مضمون اليهودى وفى ابداعه الروحى، ولذلك فإنها تحاول أن تنظر إلى المنفى باعتباره ظاهرة شرعية وطبيعية. ووفقا لهذه المدرسة الفكرية يثور أحيانا السؤال التالى: «إذن لماذا الدولة؟»، وحتى إذا كانوا يعترفون بضرورة المركز القومى المستقل، فانه بناءا على وجهة النظر هذه توجد ازدواجية متساوية القيمة وهى: المنفى والمركز.

إن هذه المدرسة الفكرية تتجاهل الحقيقة البسيطة المتصلة بأن المنفى كان مصدرا لسلسلة الكوارث الصعبة التى اجتاحت اليهود، وأنه بسبب هذا الوجود

تمت ابادة ثلث الوجود اليهودى، وأنه فى المنفى فقد الشعب اليهودى عن طريق الانصهار ملايين اليهود. لقد كان عدد الشعب اليهودى عشية خراب الهيكل الثانى بين ٤ - ٦ مليون نسمة (وهو عدد محترم - فى نطاق العالم القديم)، وبسبب الوجود الحيوى فى المنفى وصلنا فى بداية القرن السابع عشر الى مليون نسمة فقط. لقد أبيد يهود كثيرون فى المنفى ومازال خطر الاضطهادات المتوقعة للطوائف اليهودية فى المستقبل لم يتبدد (فى الاتحاد السوفيتى وفى أمريكا اللاتينية على سبيل المثال). إن المنفى هو السبب المباشر لذلك «المصير اليهودى» المرير والقاسى، الذى أصبح بمثابة مادة موضوعية فى أى مناقشة حول المسألة اليهودية.

إن هذه الجملة البسيطة: «المنفى سبب النكبة»، لم يقلها اليهود على وجه العموم. إن الشعب اليهودى يشبه انسانا يسير فى وسط الطريق، وحينما تصدمه سيارة يقودها مجنون فإنه يتهم، بالطبع، السائق ويواصل طريقه «الشجاع» فى وسط الطريق، بينما يحاول أن يطور نظرية روحانية وأيديولوجية، حول كيف يجب على السائقين أن يدوروا حوله يمينا وشمالا حتى لا يصيبوه. وهذا الموقف المبدئى الذى ينظر إلى المنفى كمضمون طبيعى وطريقة وجود شرعية لليهود، يتجاهل حقيقة أن اليهودى لم يعط على الإطلاق شرعية روحية نهائية لهذه الطريقة من الوجود.

بناء على ذلك. يجب على النقد أن يبدأ بهز وجهتى النظر وأن يحاول أن يبنى أطروحة جديدة. وسوف أقسم أقوالى الى ثلاثة أجزاء:

أ - استعراض تاريخى موجز لاثبات الاطروحة، القائلة بأن المنفى هو ثمرة رغبة الشعب، وأنه لم يلق بالشعب بالذات الى المنفى، بل هو الذى ألقى نفسه ومازال يواصل القاء نفسه اليه.

ب - محاولة تبرير أسباب هذه الظاهرة، مع أخذ حقيقة أن المنفى هو مصدر كل تلك الاضطهادات التى حلت على رؤوس اليهود، وأنه يعتبر (حتى فى الفترات

الهادئة) أمراً مؤقتاً، وتبرير الأسباب الداخلية لعلاقة الحب والكراهية هذه بتجاه
المنفى، وتجاه هذا التعذيب الذاتى.

ج - الاستنتاجات الايديولوجية والعملية على المدى الطويل وال المدى القصير النابعة
من هذا التحليل.

المنفى كمضمون إرادى

سأبدأ بذكر بعض الحقائق التاريخية البسيطة والمعروفة للجميع والتي يفيد
فهمها أحيانا ويربك أحيانا أخرى.

لقد ولد ابراهيم ابو الأمة خارج فلسطين، واستدعاه الرب لترك وطنه وبيت
أبيه ليصل الى أرض جديدة اختارها له الرب من أجل أن يخلق فيها شعباً جديداً
مع عهد وميثاق جديد. اذن، فإن اليهودى الأول هو المهاجر الأول، ولكن هذا
المهاجر هو أيضاً النازح الأول. لقد كانت الظروف الاقتصادية فى أرض كنعان
صعبة ونزح ابراهيم فوراً الى مصر. وكم هو مفرع أن نعتقد أن هذا الرجل الكهل،
الذى ترك موطنه وبيت أبيه بأمر الرب لكى يصل الى أرض الميعاد، المزمع أن تكون
بلد الشعب الذى سيولد من نسله، لاينجح فى الصمود فيها، بالرغم من أنه كان
رجلاً موسراً، وينزح منها الى بلد آخر. كان من الممكن أن نفهم ضعفه لو كانت
قد عمته الاشواق الى وطنه. ولكن الأمر لم يكن كذلك. إنه لم يعد الى وطنه،
ولكنه نزح الى بلد آخر. أن إصطلاح «نازح» ولد فى قصة ابراهيم، واليهودى
الأول هو المهاجر الأول. والنازح الأول. وقد ظل اليهودى يحمل فى داخله هاتين
الصفتين المرتبطتين بالهجرة والنزوح عبر التاريخ كله. إن ابراهيم يهاجر وينزح،
ويعود للهجرة. ولم ينقض الا جيلين حتى يعود يعقوب الحفيد مرة أخرى للنزوح
الى مصر، ولكن دون أن يحظى بالهجرة عائداً ويموت فى مصر (المنفى). لقد

ذهب إلى مصر (المنفى) مع أبنائه، لأنه كان هناك جوع في البلاد. وأنا واثق من أنه كان هناك سكان آخرون في البلاد ظلوا فيها بالرغم من الجوع. ويطلب يعقوب، أن يعيدوا رفاته إلى فلسطين ويدفنوه هناك. هل هذه هي الرسالة الخفية لفلسطين، وهي أن تكون مقبرة لرفات اليهود، أم أنها أرض الأحياء؟ إذن فالأبناء الأول، والأمة الجديدة المولودة، وعلاقة الأوائل بالبلاد، والذين كان من المفروض أن تكون علاقتهم بها بمفهوم معين نموذجاً لكل الشعب، هي علاقة ذات مغزى مزدوج (الهجرة والتزوج).

لقد خلق الشعب اليهودي في مصر. هل هذه الحقيقة مدركة لدينا بمنزلة الكامل؟ إن الشعب اليهودي لم يخلق في فلسطين. إن العلاقة المادية والأولية بين الشعب ووطنه ليست علاقة طبيعية. لقد تم إعداد اليهود كشعب في مصر، ومن هنا فإن المنفى كبوتقة لصهر اليهود تسلل إلى أعماق الوجود اليهودي. وأكثر من هذا. لقد أعطيت التوراة في الصحراء وليس في فلسطين. والتوراة - إطار الصفات التي سوف تحدد هوية اليهود، وتحدد رسالتهم - لم يتم منحها في فلسطين. إن العلاقة الخاصة التي قطعت بين الشعب وبين الرب كانت بدايتها في الصحراء، وفي منطقة خاوية، في منطقة وسط، بين المنفى وبين فلسطين ونحن نرى كيف أن الشعب يعود طوال التاريخ ويريد أن يجد هذه المنطقة الخالية عبر كل تاريخه، وبصفة خاصة حينما يريد توبة أو تجديد روحانياً. إن اليهود في الصحراء يكونون في حالة الميت الحي. إن الصحراء هي مكان الموت، وفي مكان الموت هذا يحدث التجدد الروحي، والصحراء أيضاً هي مكان نفى، غير موبوء، وطاهر، وهناك يقوم اليهود باستعداداتهم من أجل المجيء إلى البلاد. والرب يطلب بالفعل استعدادات دقيقة. إن الدخول إلى البلاد هو دخول ذو مغزى كبير، إنه ليس احتلالاً مادياً فقط للبلاد بواسطة شعب جوال، بل هو احتلال ذو مغزى روحي. ووعده الشعب بالبلاد

مقرون بشروط خطيرة، لأن القوة بمفردها لن تضمن سيطرته عليها، إن الشعب يستطيع أن يصمد في البلاد فقط إذا ما أطاع صوت الرب وأقام شرائعه، وإذا لم يفعل - فانه سيتحمل عقابات شديدة، ذروتها - الطرد من البلاد، أى المنفى، ويتم إدراك البلاد كبلاد مقدسة، والمخطئون من بين الشعب ينجسونها ولذلك تتقيأ البلاد الشعب منها. وقد حدد في هذه النصوص الأولى مبدأ أساسى وهو: الشعب أسبق من البلاد بكل المفاهيم. هناك شروط خطيرة وواضحة للبقاء في البلاد، ولكن ليست هناك شروط من أجل نفس وجود الشعب. فيمكن للشعب أن يخطئ أخطاءاً جسمية للغاية، وبالرغم من كل ذلك فإن وجوده مضمون فوق كل شك. إنه يعاقب، ولكنه لا يباد. إنه سيذهب للمتقى، ولكن هذا الذهاب ليس نهاية المطاف، فمن الممكن أن يتواجد في المنفى ومن الممكن أن يعود منه أيضاً. وقد استقر في الوعي اليهودي القديم، أن الخروج للمتقى لا يتم بسبب قوة خارجية، بل بسبب خطأ روحى داخل من الشعب، حينما كان في الصحراء. وقيل أن يحقق اليهود دقيقة واحدة من الاستقلال، وقبل أن تطأ أقدامهم بلادهم كانت مازلت تتحدد في السماء امكانية السير إلى المنفى والعودة منه (أسفار الخروج والعدد). وبصورة واضحة تحدد لليهود الذى ولدوا في المنفى الامكانية العملية للوجود القومى بلا بلد - إقليم (هناك شك في أن يكون احتمال كهذا ممكن حتى في خيال الشعوب الأخرى).

إن وجود الصحراء في الوعي اليهودي مهم للغاية. إن كل الأعياد القومية التي يحتفل بها اليهود (المظال والتصح والأسابيع، خلافاً للأعياد الدينية الخاصة مثل: رأس السنة وعيد الغفران) - مرتبطة بوجود اليهود في الصحراء.

وبناءً على ذلك، فإن اليهود يخافون من التحول إلى البلاد. وكلمة «خاف» هي مفتاح آخر من أجل علاقة اليهود بفلسطين. إن اليهود يخافون من ألا

يستطيعون تنفيذ الشروط الصعبة التي وضعها الرب من أجل وجودهم في البلاد. وهنا تكون قضية الجواسيس مثيرة للاهتمام: إن الشعب الذي يحارب شعوبا أخرى بنجاح منذ خروجه من مصر يمتلئ خوفا من سكان البلاد، لدرجة الرغبة في العودة الى مصر. الا أن جيلا كاملا يجب أن يموت في الصحراء وجيل جديد، لم يعرف المنفى، يجب أن يولد من أجل يكون جديرا ومجهزا للدخول الى البلاد.

ويصل اليهود إلى أرض كنعان، ويحتلوها ويقيموا فيها مملكتهم. وبعد فترة من الزمن تنقسم المملكة، وتمر مئات السنين وتتخرب مملكة إسرائيل. وتنفي الأسباط العشرة وتختفى. وذلك الجزء من الشعب، الجزء «الإسرائيلي» الذي تصرف حسبما يبدو، بصورة طبيعية للغاية أكثر من الجزء «اليهودي» الذي أقام في منطقة يهودا، تصرف بصورة طبيعية هو الآخر حينما قذف به الى المنفى. لقد فقد مع فقدان أرضه ووطنه كل من هويته وقوميته. إن البلاد، والأرض، هي أجزاء موضوعية في توصيف قوميته. لقد تصرف هذا الجزء من الشعب اليهودي في بداية التاريخ حسبما تتصرف سائر الشعوب.

وبعد حوالي مائة وخمسون عاماتم تخرب مملكة يهودا، وخرج الشعب الى المنفى في بابل وصمد. لقد حافظ على هويته وتصرف وفقا للخط الذي تحدد في سفر العدد. لقد أثبت أن الشعب يستطيع أن يحافظ على هويته دون أن يتواجد ماديا في البلاد. لقد بين ما هي قوة التواجد الكامنة في الخيال وفي الروح. وكان هذا المنفى قصيرا للغاية حيث استمر فقط لمدة خمسون عاما. وحينما سمح وعد قورش في عام ٥٢٠ ق.م لليهود بالعودة إلى فلسطين ليعيدوا بناء استقلالهم فيها، عاد فقط جزء صغير الى فلسطين ليبنى الهيكل الثاني، ولم يعد جزء محترم وهام من الشعب وظل طواعية في المنفى. إن الرجال الذين ولدوا فلسطين، أو الذين ولد آباؤهم فيها، رفضوا العودة اليها وفضلوا البقاء في المنفى. إنهم لم يتذكروا لأصلهم

ولهمويتهم القومية - بل على العكس من ذلك، ظلت رابطتهم بالشعب عميقة، وأيضا أيدوا وشجعوا السائدين، ولكنهم هم أنفسهم لم يعودوا. وهنا نحدد النقطة الأولى للتصديق على افتراضنا لمصدر المنفى، والتي من الآن فصاعدا سوف تسيطر على التاريخ اليهودي. لقد قيل: لو هاجر إلى إسرائيل قدر من المنفى لما كان الهيكل قد تخرب ثانية. وينطوي هذا القول على حقيقة كبيرة. إن ذلك الجزء الذي ينضم إلى العائدين لاعداد الاستقلال من جديد قد زرع بذرة الاضطهاد. إنه ربما كان يتطلع إلى احتمال، ألا يصمد هذا المركز القومي، ويكون من المستحسن حينئذ أن تبقى البلاد بمثابة حلم، وبمثابة هدف وتطلع ومراد، بدلا من أن يروها كواقع مخيب للأمل.

وعشية خراب الهيكل الثاني كان حوال نصف الشعب اليهودي مشتت خارج فلسطين، لقد ترك اليهود فلسطين طوعية وتشتتوا في بلاد مختلفة. ونحن نجد شواهد على وجود طوائف يهودية شمال أوروبا في روسيا، وعلى حدود ليبيا، وفي بابل، وفي الاسكندرية، وفي روما، وفي آسيا الصغرى. لقد ذهب اليهود برغبتهم الحرة واستقروا في أماكن بعيدة، ولم يكن هذا، لا سمح الله، لأنه لم يكن في فلسطين أماكن كافية لهم. إن الحقيقة القاطعة هي أن فلسطين كانت مليئة بالاجانب الذين يقيمون فيها ويحتلون مساحات كبيرة منها، لأن اليهود لا يقيمون فيها. وكانت هذه المنافي تقيم رابطة عميقة مع فلسطين وتبعث بالتبرعات لبيت المقدس، وتؤيد الثورة ضد الرومان تأييدا سياسيا، وهي تلك الثورة المجنونة التي لم يكن لها أي أمل، والتي أدت إلى تخريب فلسطين وخراب القدس. إن هذه الثورة غير الضرورية، المتطرفة عن كل الثورات ضد الامبراطورية الرومانية، والتي قادها متعصبون دينيون قوميون جروا اليهود جميعا إلى صراع لا أمل فيه - هذه الثورة ظلت تحظى بتشجيع معين من يهود الشتات. إن أولئك، الذين كانوا

يعيشون داخل بيئة شتاتية واضحة، وبين الأصنام والأوثان، والذين تخلوا راضين عن أى ظل من الحياة القومية فى بلادهم، هم الذين كانوا يشجعون المتطرفين والمتعصبين فى القدس من أجل المطالبة بالتخلص من من الأوثان فى الهيكل تعبيرا عن استقلالهم السياسى والدينى الكامل، وهو الأمر الذى لم يمنح لاي أمة فى الامبراطورية الرومانية.

إن خروج ربى يوحانان بن زكاى من القدس عشية التخريب من أجل اقامة « يفنه » قد حدث لعلمه بالتخريب الآخذ فى الاقتراب وضرورة التخلّى عن البلاد كعنصر رئيسى فى الهوية القومية والاستعداد لخلق حياة منقى واضحة ربما لاتقام خلالها الازدواجية منقى مركز. إن الشريعة الجديدة التى بنيت، هى بالذات بمثابة عودة إلى حالة الصحراء. وكان معنى هذا، أن اليهود الذين فقدوا استقلالهم وفقدوا فلسطين بعد ذلك، يستعدون مرة أخرى من أجل العودة إليها، ولكن الاستعداد هذه المرة سيكون جديا، وسيكون بمفهوم معين أيضا إستعدادا لانتهائى: الخلاص الكامل، نهاية التاريخ، نهاية الأيام.

وهكذا بدأت ألف وثمانمائة عام من المنفى، ولعلّى لا أكون مخطئا إذا ما قلت أنه خلال هذه المئات من السنين، ومنذ خراب الهيكل الثانى وحتى بداية الصهيونية، وبالذات حتى أيامنا هذه، لم يبذل اليهود أى مجهود جدى وذو مغزى من أجل العودة إلى فلسطين، ليس فقط من أجل إعادة استقلالهم السياسى بل حتى من أجل محاولة الاستيطان والتمسك بها. إن هؤلاء اليهود الذين ابدوا حصافة ومرونة ودهاء لكى يتسللوا تقريبا الى كل مكان على وجه البسيطة - من جبال الأطلس حتى وديان الصين، ومن بلاد جنوب أمريكا حتى صحراء سيبيريا - لم يبذلوا أى محاولة حقيقية للعودة والاستيطان فى فلسطين. لقد جال اليهود طوال التاريخ من مكان الى آخر، وبدلوا بلادا، ولكنهم كانوا دائما يتجاوزون فلسطين.

لقد استوطن اليهود بشكل دائم فى كل بلاد البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم كانوا ينجذبون اليها من ناحية ويخافونها ويتجاهلونها من ناحية أخرى. لقد أدى الطرد الأسباني والبرتغالي فى نهاية العصور الوسطى الى عمليات تشتت لآلاف اليهود فى بلاد الشرق، ولكن الذين وصلوا الى فلسطين كانوا قلة معدودة. لقد أقام اليهود فى سوريا، وفى مصر، وفى العراق، وفى اليمن وفى اليونان وتركيا، وكانت فلسطين هى الوحيدة الخالية من اليهود. لقد أقام أعظم فلاسفة اليهود ربي موشيه بن ميمون فى مصر على مسافة صغيرة من فلسطين، وحينما احتل صلاح الدين القدس عام ١٧٧١م نجده لا يذكر هذه الحقيقة الرهيبة فى كتاباته ولو بكلمة واحدة. ومن المثير أن نسمع الايديولوجيين، على اختلاف أنواعهم، يحصون بحماس عدد اليهود فى فلسطين عبر الأجيال من أجل إثبات أنه كان هناك تتابع استيطاني لليهود فى فلسطين، ويشيدون بالأسرة القديمة التى أقامت فى فقيعين، ويمجدون كل حاخام هاجر إلى فلسطين مع طائفة أتباعه وصمد هناك لعدة سنوات. إن اليهود لو كانوا قد اتصلوا بفلسطين مثلما اتصلوا ببولندا، على سبيل المثال، أو بابل، ولو كان اليهود قد حاربوا من أجل حقهم فى الإقامة فى فلسطين كما حاربوا من أجل حقهم فى الإقامة فى إنجلترا التى طردوا منها عام ١٢٩٠، لما كان هناك ضرورة لاثبات، أنه هنا قد أقامت حفنة من اليهود وأن ربي يهودا هليفى قد عمته الأشواق الجارفة ووصل إلى فلسطين رغم كل شىء. كل هذه الهجرات الصغيرة اليهودية الى فلسطين، والتى لم تتوقف فعلا على الإطلاق، تثبت أنه كان من الممكن الوصول إلى فلسطين والاستيطان فيها، ولكن الغالبية العظمى من اليهود لم ترغب فى ذلك. صحيح، أنه قد فرضت عمليات منع وأحكام على اليهود الذين أقاموا فى فلسطين، ولكن ما هو المكان الذى لم يحدث فيه مثل هذه العمليات من المنع والطرد والمذابح والأحكام القاسية؟ ان اليهود كما نجحوا فى

التسلل عبر الشقوق التي فتحت فى أسوار بلاد كثيرة، وان يصمدوا فى ظروف أنظمة -حكم مختلفة وغريبة، ووسط ثقافات أجنبية وبعيدة، كانوا يستطيعون أن يفعلوا هذا أيضا فى فلسطين، التي تبدلت عليها ستة أنظمة من الحكم منذ خراب الهيكل الثانى.

إن الدليل القاطع على أن اليهود لم يبذلوا أى جهد من أجل العودة إلى فلسطين هو عدد اليهود الذين كانوا يقيمون فيها فى بداية القرن التاسع عشر. لقد كان مجموع اليهود ١٥ ألف من بين شعب يبلغ تعدادة ٢٥ مليون نسمة. إن اليمن، على سبيل المثال، تلك البلد التي اضطهد فيها اليهود بشكل قاسى للغاية، وكانوا يعيشون فيها فى فراغ ثقافى ومادى، كان فيها فى نفس تلك الفترة، وهى بداية القرن التاسع عشر، حوالى ثلاثين ألف يهودى.

لقد بدأت الصهيونية فى نهاية القرن الماضى، ليس من أجل اشواق جديدة الى فلسطين، ولا كذلك بسبب كراهية مفاجئة للمنفى. لقد كان اليهود يكرهون المنفى دوماً، وكانوا يشتاقون إلى فلسطين بكل جوارحهم. ولكن كراهية المنفى والأشواق الى فلسطين لم تحرك اليهود من مكانهم. لقد بدأت الصهيونية بسبب الاحساس بالخوف من المنفى. لقد اتضح لليهود فجأة الى أى مدى من الممكن أن يصبح واقع هذه الوجود خطيرا ومروعا. والخوف من المنفى هو الذى زاد لدى البعض على الخوف من فلسطين.

لقد كانت الصهيونية فى بدايتها حركة قلة معدودين، ورفضها معظم أجزاء اليهود: أولا وقبل كل شىء، رفضها الدينيون، ورفضتها جماعة البوند أيضا، ورفضها الاشتراكيون اليهود، ورفضها المنصهرون بأنواعهم، ورفضها الحالمون بحلم الحكم الذاتى الثقافى. إن اليهود بجموعهم لم يكونوا راغبين فى الصهيونية ولم

يؤمنوا بها. وهذه الحقيقة الحاسمة يجب ألا تُنسى. وبعد الحصول على وعد بلفور وبعد أن فتحت أبواب فلسطين، ومنحت دولة عظمى مثل بريطانيا حمايتها لامكانية اقامة دولة يهودية في فلسطين مازال الشعب اليهودي لم يأت الى فلسطين. إن أى محاولة للحكمة والفهم والتفسيرات المثالية لا تمحو هذه الحقيقة الحاسمة التي تبدو جلية للعيان. لقد كان بإمكان اليهود أن يقيموا دولة يهودية في فلسطين خلال العشرينيات، ولكن من بين ملايين الذين هاجروا من الشرق الى الغرب وصل الى فلسطين خلال السنوات ١٩١٧ - ١٩٢١ ثلاثون ألف يهودي فقط. وخلال العشرينيات وصل إلى فلسطين بصعوبة مائة ألف يهودي. وكان تعداد اليهود في العالم في تلك الفترة حوالي ١٥ مليون يهودي. ولو كان عشرة بالمائة من تعداد اليهود قد وصلوا الى فلسطين، أو حتى خمسة بالمائة فقط، لكان من الممكن أن تقوم دولة يهودية من قبل وقوع الكارثة النازية - على كل أرض فلسطين أو على جزء منها. إن مليون يهودي في فلسطين خلال العشرينيات كانوا يحددون حقيقة حاسمة داخل الشرق المستيقظ من غفوته الطويلة، كذلك فإن الكارثة النازية ما كانت لتحدث على الإطلاق بأبعادها الرهيبة، لو كانت الدولة اليهودية قد قامت قبل الحرب العالمية الثانية. إذن فاليهود مسئولون عن مصيرهم الرهيب في ذلك القرن.

ولكن إذا كان هناك أحد في حاجة إلى الدليل النهائي والقاطع بشأن العلاقة المشكوك فيها بين اليهود وفلسطين، وبشأن حقيقة أنهم لم يحاولوا العودة إلى فلسطين بشكل جدي، وبشأن خشيتهم من العودة والتصاقهم بالمنفى، فإنه ليس أمامه إلا أن يستعرض ويفحص سنوات الدولة الخمسين. ان الابواب مفتوحة، والامكانيات هائلة - ولكن المهاجرين لا يأتون. إن موجات الهجرة التي وصلت إلى فلسطين كانت في غايتها العظمى موجات هجرة تحت ضغوط: لاجيء النازية،

لاجئىء البلاد العربية، ولاجئىء البلاد الشيوعية. الخ. أقلية لا بأس بها فقط هى التى وصلت الى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة، وهذه الأقلية تثبت مرة أخرى، وبشكل متناقض، مثل الهجرات الحرة عبر مئات السنين التى مرت، أنه يمكن الوصول إلى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة.

إن القاسم المشترك لعدم مجئىء الطوائف اليهودية، التى تختلف كل عن الأخرى فى تكوينها الاجتماعى، الى فلسطين، هو نفس القاسم المشترك الذى حال دون مجئىء اليهود اليها عبر مئات السنين. إن يهود روسيا الذين يعرضون أنفسهم للخطر من أجل مغادرة الاتحاد السوفيتى يفضلون الإقامة فى ضاحية مدينة ألمانية والعيش على تبرعات وكرم مؤسسة يهودية أو مسيحية، وألا يأتون الى إسرائيل، التى تعرض عليهم ظروف استيعاب معقولة بالتأكيد. لقد فضل يهود لبنان حتى السنوات الأخيرة أن يعيشوا على بعد مائة متر فقط من مركز الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبالقرب من مراكز العداء والكراهية الكبيرة للغاية ضد اسرائيل، ولا يأتون الى اسرائيل بالذات. ويهود الأرجنتين يفضلون الحياة فى ذلك البلد الفاشستى المنهار من الناحية الاقتصادية وفى مواجهة معاداة سامية متعاضمة وألا يصلوا الى اسرائيل. إن النماذج آخذة فى التزايد: يهود سوريا حتى عام ١٩٦٧، ويهود الجزائر، ويهود إيران وكل يهود الغرب بالطبع. ولكل طائفة من هذه الطوائف، بالطبع، تفسير خاص بها لتبرير عدم الهجرة: فهنا تبرير اقتصادى وهنا تبرير أمنى، وهنا تبرير صغوبات الخروج وهنا تبرير دينى. ولكن بالذات بسبب التنوع الكبير فى التبريرات المختلفة، والتى تتناقض أحيانا كل مع الآخر، وعلى ضوء حقيقة أن ظروف دولة اسرائيل قد تغيرت تماما فى الثلاثين عاما الماضية وتبدلت فى اللون والصورة - من دولة طلائعية الى دولة استعمارية، ومن دولة ذات طابع

علمانى الى دولة ذات طابع دينى قومى - يجب أن يكون هناك تبرير ثابت، تبرير أساسى، لهذا التمسك بالمنفى.

إننا، على سبيل المثال، وإذا جمعنا مندوبين نموذجيين للجماعات المختلفة التى تشكل الوجود اليهودى: أحد أتباع الربى من ساطمر، وأحد أتباع الربى من لوفافيتش، وحاخام أرثودكسى، وحاخام محافظ، وحاخام إصلاحى، وزعيم صهيونى، وعضو طائفى وبروفيسور محافظ، وبروفيسور منصهر، ويهودى غنى، ويهودى فقير، وطالب من أعضاء جمعية الدفاع اليهودى وطالب يسارى - لأدركنا أن كل واحد منهم يفسر مضمون اليهودية وطابع الانتماء اليها بصورة مختلفة، ولوجدنا أن لكل واحد منهم صورة خاصة عن إسرائيل وعن رسالتها، ولوجدنا أن لكل واحد تبريرا مختلفا تماما عن عدم هجرته الى إسرائيل، ولوجدنا أن لكل واحد منهم نقدا مختلفا لما يجرى فى إسرائيل. ولكنهم جميعا يشتركون فى شىء واحد، وهو أنهم لا يهاجرون الى إسرائيل.

ولو كان من الممكن أن نضم الى هذه الجماعة يهودا من كل الفترات التاريخية ومن أماكن بعيدة ومن حضارات مختلفة لكان كل واحد منهم سيحضر معه وجهات النظر اليهودية الخاصة بعصره، والتأكيدات والتفسيرات الخاصة به. ومرة أخرى - مع كل الاختلاف الهائل، سيكون هناك شىء واحد يشتركون فيه جميعاً: هو عدم مجيئهم لفلسطين. ومن المستحيل إزاء ظاهرة المنفى الموعلة فى القدم، وإزاء التنوعات الكثيرة جدا للوجود اليهودى، الاكتفاء بالتفسيرات الجزئية، التى قد تبدو طيبة فى حينها فقط، بل يجب أن نبحث عن الأسباب الأولية والأساسية لهذه الظاهرة، وبصفة خاصة فى مواجهة الحقيقة الحاسمة، وهى أن اليهود بكل تعبيراتهم الروحانية والوجودية قد رفضوا المنفى كاحتمال دائم للوجود

اليهودى ورفضوه رفضا داخليا. إن اليهود لم يمنحوا المنفى شرعية على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، حيث كان المنفى فى وجدان اليهود دائما بمثابة كارثة، ولعنة، وانحطاط، ومصدر للشر، وحالة مؤقته بالطبع. إن الروح القدس «منفية» هى الأخرى مع الشعب، والعالم لن يعود الى صلاحه إلا بعد عودة اليهود الى فلسطين.

ولم يكن وهذا مجرد تفكير مجرد، بل وجهة نظر وجودية حية. لقد كانوا يفكرون فى فلسطين من الصباح حتى المساء وكانوا يتجهون بصلواتهم إليها، ويتحدثون عن العودة الى فلسطين والحنين إليها، وكانت أشعار الخلاص جزءا من الوجود الدينى لليهودى. وكانت جملة «للعام القادم فى القدس» جملة أساسية فى الوجدان الروحى. ويمكن أن يشير الإيمان «بالتناسخ» الى مدى عمق وجهة نظر المرحلة الإنتقالية بالنسبة لحالة المنفى. إن اليهودى اذا مات فى المنفى فإن جثته، وفقا لهذه العقيدة، تعود بطريقة التناسخ الصعبة الى فلسطين. وبعث الموتى سيكون فى فلسطين. وكانوا من الصباح حتى المساء يدرسون الشرائع المرتبطة بفلسطين وكانوا يحتفلون بالأعياد وفقا للتقسيم السنوى الذى يناسب فصول السنة فى فلسطين. وانفجارات الحركات المسيحانية والصدى الهائل التى كانت تثيره بين اليهود تبين بوضوح مدى عمق الرغبة فى الخلاص لدى كل الطبقات اليهودية.

إننا نرى إذن، كراهية ورفض مطلق لحالة المنفى من ناحية، وانجذاب قوى لإقامته والحياة فيه، من ناحية أخرى. وقد فشلت كل المحاولات (وهي قليلة للغاية) من أجل منح شرعية لوجود المنفى، ومن بينها محاولة الاسلانيين فى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل بناء إطار شرعى لليهود فى البلد الذى يعيش فيه، بينما تكون علاقته بفلسطين قائمة بدون العنصر القومى، ومبنية على الصلة المجردة على

غرار علاقة المسيحيين الكاثوليك بالفاتيكان. لقد فشل الاصلاحيون فى محاولتهم هذه، بالرغم من أنه من الناحية النظرية كانت لديهم كل الظروف للنجاح. وقد عادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى أحضان الحركة الصهيونية.

وهنا يتضح سلوك ذو طابع عصائى واضح: الشعب يكره المنفى ويحلم بفلسطين، والشعب يرفض المنفى بكل طبقات نشاطه الروحانى والأصيل، ولكن فى مقابل هذا ولكن مشغول بغاية واحدة وهى: كيف يصمد فى المنفى، وكيف يواصل إقامة هذا الوجود المكروه.

ما هى التبريرات التى اعطاها اليهود أنفسهم لهذا الموقف. إن التبرير الرئيسى كان منظوريا على التعبير «قدر اللحم» أى الخوف من الصعوبات الاقتصادية فى فلسطين، أو الخوف من ترك موقف اقتصادى مرتفع فى بلاد المنفى.

هل هذا حق؟ يهيولى، أنه ليس هناك أى تبرير أدى إلى تضليل كبير للغاية مثل هذا التبرير، الذى تم عرضه باعتباره حقيقة لا تقبل الجدل.

إننى أعتقد أنه من المستحيل تفسير تاريخ أى شعب على أساس الديناميكية والباعث الاقتصادى فحسب، وسيصعب بالتالى عمل هذا بالنسبة لليهود، وعلينا أن نكتشف سبب احتاج اليهود للبقاء فى المنفى، تلك الحاجة التى جرت عليهم الكوارث الكثيرة للغاية. إن سبب هذه الحاجة، ليس فقط أنه يجب أن يكون مبرهنا بوضوح، بل إن هناك أيضا مغزى لكشف قوته المميزة لليهود، بينما توجد شعوب أخرى معفاة منه. هل علينا حقا أن نوافق على أقوال ماركس - بأن الرب الحقيقى والوحيد للشعب اليهودى هو إله المال؟ وأن المحرك الحقيقى للشعب اليهودى هو شهوة المال؟ وأنا بآنك فقط يمكن أن نفسر الانجذاب العميق والباثولوجى (المرضى) للشعب الى وجود، هو نفسه يستنكره تماما.

هل حقا؟ هى يمكن أن تتصور تاريخ اليهود باعتبار أن المحرك الأساس له هو

عنصر المال؟ يهيؤلى أن حتى المعادى للسامية يتردد فى هذا . فمن ناحية نحن نرى يهودا يضحون بأنفسهم على مذبح الرب، ويقبلون على أنفسهم أحكاما قاسية للغاية من أجل المحافظة على الاخلاص للفكرة وللعقيدة، ومن ناحية أخرى نفس هؤلاء اليهود يوصفون بأن الذى يحركهم هو المال فقط. أليس هذا مناف للعقل؟ ولكننا نسأل السؤال التالى: هل خلق المنفى فعلا بالنسبة لليهود ظروفًا اقتصادية مريحة بصفة خاصة؟ هل نجح اليهود حقًا (الذين يتحركون، بواسطة الرغبة فى المال فقط) فى الحصول على مرادهم باقامتهم فى المنفى؟ يهيؤلى أن الاجابة على ذلك هى اجابة حاسمة: لقد كان اليهود بالذات بعيدين جدا عبر تاريخهم كله فى المنفى عن الوصول إلى الوضع الاقتصادى المرتفع. لقد كان غالبيتهم العظمى فى حالة متردية من الفقر. لقد صدرت ضدهم أحكاما خطيرة للغاية بسبب وجودهم فى المنفى، وكانت أملاكهم تتحدد وتصادر طوال الوقت. أى مكاسب اقتصادية كانت ليهود بولندا أو ليهود اليمن أو لساكنى المغارات فى جبال الأطلس فى المغرب؟

وأكثر من هذا - ليس معنى الإقامة فى فلسطين هبوط فوري وحاد فى الوضع الاقتصادى. هل التاجر اليهودى الموسر فى سوريا أو فى العراق كان سيفقد رأس ماله لو انتقل للإقامة فى فلسطين، وماهو التبرير لفكرة أن الشعب اليهودى يختلف موضوعيا عن أى شعب آخر فى علاقته بالمال، ولذلك فهو يفرض على نفسه الالتصاق بالمنفى بثمن تاريخى ثقيل للغاية، وهل هناك أيضا أى دليل على أن الحياة فى المنفى قد منحت، حقًا، لليهود أمنا اقتصاديا؟

إنه من المثير للاهتمام استخدام التعبير «التاناخى» (الستاناخ هو اسم عبرى لكتاب العهد القديم) «قدر اللحم». إن مصدر هذا التعبير هو جيل الصحراء، ونحن نعرف جيدا أن رجال ذلك الجيل كانوا عبيدا فى مصر، ولذلك لم يكن لديهم أى

«قدر لحم» وأنهم حينما يشتاقون اليه فإنما يشتاقون لشيء لم يكن لديهم على الإطلاق. إن حقيقة أننا نتصلب في استخدام هذا التعبير، المدحوض من أساسه، يبين مدى التناقض في الاستخدام الدلالي له، ومدى عدم كشفه للسبب الحقيقي لهذا الانجذاب نحو المنفى. إن التبرير الاقتصادي يستخدم بمثابة تغطية أو كبديل لتبريرات أعمق، نخشى الاعتراف بها.

كذلك أيضا التبرير الأمني، الذي يقول أن إسرائيل خطيرة و«تأكل ساكنيها» ليس صحيحا. إننا نجد طوال كل فترة المنفى طوائف يهودية تعيش في أماكن معرضة أكثر للخطر وتحت سيطرة حكام قساة للغاية. لقد رأينا نصب أعيننا أن يهودا إيران، الذين يستطيعون أن يخرجوا محترمين من بلادهم وخلال ثلاث ساعات ليكونوا مواطنين في دولة إسرائيل، لم يخافوا من حاكم خطير ومجنون في صورة الخميني ويعيشون في داخل البركان. إن اليهود، لو كانوا قد أقاموا في فلسطين ولو حتى كأقلية اقليمية لكانت لهم حقوق أكبر بكثير من مجرد أقلية من الأجانب المشتتين في أماكن كثيرة. إن «حالة الحرب السائدة في البلاد» تبدو بمثابة تبرير خال من أي حقيقة مع مجيء السلام. ونحن نعرف جيدا، إن مجيء السلام لن يجذب إلى إسرائيل موجات الهجرة.

أن الخرافتين المعاديتين للسامية، خرافة حب اليهودي للذهب وخرافة الخوف اليهودي - هما اذن مدحوضتين. ان اليهود لو كانوا فعلا من محبي المال وجبناء، لكان من الممكن منذ زمن بعيد أن يجتمعوا للاقامة في فلسطين ويجنّبون أنفسهم ضائقات وأشكال مختلفة من المعاناة الصعبة.

الخلاصة

لقد حاولت حتى الآن أن أتناول ثلاثة آراء علمية:

أ - أن المنفى كحالة وكاحتمال هو من بين الأسس الأولية للغاية التي تشكل مضمون الوجود اليهودي. وأنه يوجد في الجزئيات وفي الذرات التي تبني هويته الروحية والوجودية. وأنه جزء عضوي من الخرافات القومية لليهود. وأن المنفى ليس حالة خارجية مفروضة، بل حالة داخلية اختارها اليهود ويشتاقون إليها. وأن وجود اليهود يتخطى أى ظرف من الناحية الدينية، وكذلك أيضا من الناحية القومية. إن اليهود يمكنهم. أن يصنعوا أكبر الرذائل في نظر إلههم، ويمكن أن يفقدوا كل ملامح هويتهم القومية ويظل وجودهم مضمونا. أنهم يعاقبون ولكنهم لا يبادون على الإطلاق، وفي مقابل هذا يمنحون الوجود السيادي في فلسطين، ويمكن القول أيضا الإقامة في فلسطين ذاتها، في ظروف صعبة جدا ليست مفهومة تلقائيا. إن اليهود يمكنهم أن يتواجدوا خارج فلسطين وجودا مؤقتا منحدرًا، ولكنهم يظلون بمثابة وجود (وقليلة هي الشعوب التي تستطيع أن تتصور لنفسها كيف يمكن المحافظة على الهوية القومية بينما الشعب كله منفي من وطنه).

ب - إن المنفى عبر كل النشاط الروحاني لليهود عبر التاريخ كان ينظر إليه ويستنكر كوجود مهين ومتدهور، وكحالة من الانحطاط، ولم تعط أى شرعية حقيقية للمنفى كحالة دائمة، وقد كان السؤال دائما، كيف نصمد كيهود في المنفى لحين مجيء الخلاص، الذي لم نتخل عنه أبدا. ولم يكن الخلاص شيء مجرد، بل كان عودة حقيقية ومادية لفلسطين. لقد كان المنفى بمثابة حالة تؤدي باليهود الى وجود الكاذب (ابراهيم، المنفى الأول وصل الى مصر واضطر على الفور للكذب بشأن زوجته). ان الكذب والخلاص كل منهما من مندمج

فى الآخر؁ وذلك لأن الشعب كان يجب عليه ان يسير بحذر حول ولاءات مزدوجة؁ فهو يجب أن ينظر اليه كميت من الناحية القومية من أجل ألا يضع قوميته فى صراع صريح مع القوميات التى يعيش فى وسطها. ولكن حيث أن وجود اليهود كان يتجاوز أى ظروف؁ فانهم كانوا يكرسون كل خيالهم ويستثمرون كل مواردهم الوجودية من أجل الصمود فى المنفى؁ وإن كانوا يرفضونه من الناحية الروحانية.

وهكذا؁ أصبح هنا موقف متناقض؁ شبه مرضى. اليهود ينجذبون الى المنفى باعتبار الـإسكائية التى ينطوى عليها وجودهم؁ ويكرهونه ويبدلون كل ما فى وسعهم من أجل الصمود فى داخله ولكنه بالذات يبعد العودة الى فلسطين؁ بسبب صفته الـاخذة فى التحسن للصمود فى المنفى. أن اليهود يشعرون بأنه مذنبون لأنهم لا يعودون الى فلسطين؁ ويناد على ذلك فانهم يتفاخرون بها ويرفعونها أكثر وأكثر؁ ويحددون لها مضمونا أعمق وقدسية ويجعلونها بلدا عجيبة وهذا لكى يبررون حقيقة أنه جدير بالعودة اليها؁ ومن ناحية أخرى يتجنبونها باعتبارها كابوس؁ وبلد خطيرة؁ ومجنونة؁ «تأكل ساكنيها» لكى يبرر مخاوفه من العودة.

ج - حاولت أن أوضح أن «قدر اللحم»؁ والخوف من فقر البلاد؁ والخوف من الخطر المادى الخ - هى بمثابة حجج خارجية؁ ومن الممكن أن تثبت أن طوائف كاملة وجماعات يهودية كبيرة عاشت فى ظروف من الفقر؁ والخطر وفى قفار أراضى الشعوب الأخرى - ولكن هذا الوجود لم يقلقهم على الإطلاق. وأكثر من هذا؁ كان اليهود هم أكبر الثائرين فى التاريخ؁ وتحركوا من بلد إلى بلد؁ وبالرغم من ذلك فانهم كانوا يتجاوزون فلسطين دائما. ان اليهود الدينيين لم يعودوا بسبب الخوف من «دفع نهاية الأيام»؁ والعلمانيون لم يعودوا لأنه كانت لديهم «بشرى» روحانية للشعوب الأخرى. وقد قلق الأغنياء

على ممتلكاتهم وخاف الفقراء من فراق أقاربهم. وقد أمل الاشتراكيون في الغاء كل الفوارق القومية، ولم يعرف اليهود الذين عاشوا في افغانستان أو الهند ببساطة أين تقع فلسطين (ولكنهم عرفوا أين تقع إنجلترا أو فرنسا) واليهود الذين اقاموا في روما خافوا من سلطة روما القاسية في فلسطين، واليهود الذين عاشوا في سوريا أو في مصر انتظروا أن تمتلئ البلاد بيهود آخرين وحينئذ يستطيعون التقدم في آخر الطابور. واليهود الاصلاحيون لا يهاجرون لاسرائيل لأن الاصلاح لا يحظى باعتراف كامل، واليهود الارثوذكس لا يأتون لانهم لا يحترمون قدسية يوم السبت في تل أبيب. إننى مقتنع، أنه في القرن الحادى والعشرين والثانى والعشرين ستقام مستعمرات لسكان الكرة الأرضية في الفضاء، ومن بين هذه المستعمرات سوف توجد طائفة يهودية صغيرة. سيكون لها خاخام ومعبد معلق في الفضاء وسوف يصلى في الفضاء وسوف يردد فيه العلماء اليهود «للعام القادم في القدس». إننى واثق أن جزء منهم سوف يرسلون أبناءهم ليدرسون لمدة عام في اسرائيل، ومن المحتمل أن يقيم هناك مبعوث اسرائيلى في المركز الطائفى ويحاول تشجيعهم على الهجرة. وحينما سيسألونه لماذا لا يأتى اليهود، فانه سيحاول تبرير هذا بتبريرات مثل، صعوبات التكيف مع قوانين الجاذبية الموجودة في اسرائيل. ليست هناك نهاية لخيال الحجاج. ولكن أين هى الحقيقة؟

وإذا كان الأمر كذلك فأننا نسأل السؤال الموضوعى - لماذا؟ ما هو السبب لهذا الاختيار المؤلم والمفروض للمنفى؟ لماذا يخاف اليهود الى هذا الحد من الحياة ذات السيادة الطبيعية في فلسطين؟ إن هذا فى رأى هو السؤال الأكبر المتصل باليهود ولا بد من أن نكرس من أجل توضيحه كافة قوانا الروحية.

الفصل الأول

أباء ورعاة

بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلا «لاتخف يا أبرام. أنا ترس لك» .. «فقال أبرام أيها السيد الرب» ماذا تعطينى وأنا ماض عقيم؟ .. «فإذا كلام الرب إليه قائلا .. «الذى يخرج من أحشائك هو يرثك» .. ثم أخرجه إلى خارج وقال أنظر الى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها».

سفر التكوين، الاصحاح الخامس عشر

يشير العهد القديم الى النفور الذى كان يشعر به المصريون نحو البدو الذين كانوا يرعون قطعان الأغنام والماعز شرق الدلتا، إلا أن البدو استطاعوا عبر التاريخ إبقاء قطعانهم فى تلك المنطقة بصفة عامة. وحتى فى يومنا هذا يظهر العرب البدو بصفة منتظمة فيها.

س. أف. بقايفر، «مصر وسفر الخروج»

من المتعارف عليه أن تاريخ مصر ينقسم إلى ثلاثين أسرة من مينا (٢٩٨٠ سنة قبل الميلاد) الى فتح الاسكندر (٣٣٢ سنة قبل الميلاد).

س. أف. بقايفر، «مصر وسفر الخروج»

«لقد بذل كثير من الجهد لوضع تاريخ اليهود على أساس غريب غامض بينما بذل جهد قليل لتفسيره بمفاهيم القوى التى تحركت ومازالت تتحرك عبر كل تاريخ البشرية».

الحاخام المربيرجر، «المعضلة اليهودية»

الفصل الأول

يكون الشرق الأدنى، أى الأرض الممتدة على الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، والتي نقسمها الى لبنان، وسوريا، وفلسطين، والأردن، منطقة جغرافية، واحدة، وإذا يحد هذه المنطقة غربا البحر الأبيض المتوسط، والصحراء السورية شرقا فإنها تمتد قرابة خمسمائة ميل من الشمال الى الجنوب بينما هى حوالى ثمانين ميلا فقط من الغرب الى الشرق.

وتنقسم هذه المنطقة الى قطاعات محددة تحديدا واضحا تمتد من الشمال الى الجنوب قسفى الغرب يقع السهل الساحلى الذى يمتد من الاسكندرية (الحديثة) الى غزة. وبلى السهل الساحلى ويوازيه سلسلة جبال عمانوس ولبنان والجليل الأعلى والسامرة ويهودا. وإلى الشرق من هذه الجبال يوجد شق عميق، يضم نهر العاصى والباقاع ووادى الأردن ووادى عرابة وخليج العقبة والبحر الأحمر. وعند البحر الميت ينخفض هذا الشق إلى ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر.

وإلى الشرق من هذا الشق العميق تقع سلسلة أخرى من الجبال تشمل الجبال المواجهة للبنان، والجولان، وجبال موآب، وآدوم، هذا إذا ما استخدمنا ألفاظ كتاب العهد القديم. وبينما تشكل هذه السلاسل جروفا ومنحدرات شديدة الى الغرب.. نراها تميل ميلا تدريجيا الى الشرق لتلتقى بالهضبة المرتفعة للصحراء السورية.

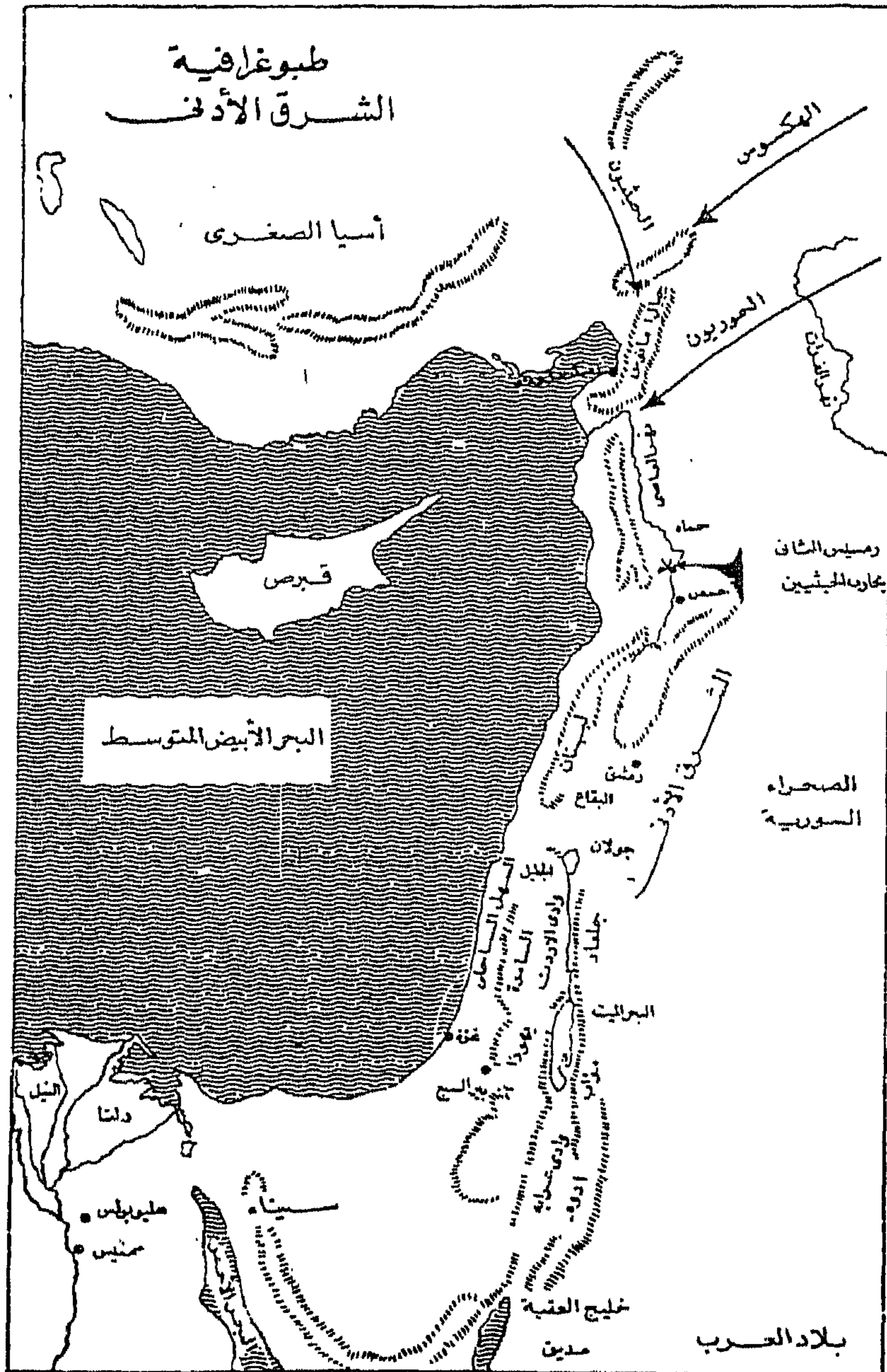
وقد نبأنا علماء الآثار القديمة، مؤخرا، بوجود مدن فى فلسطين، وبالتالى وجود مجتمعات سياسية منظمة منذ سبعة آلاف سنة قبل الميلاد رغم وفرة الآلات المصنوعة من حجر الصوان، والتي يرجع عهدها إلى العصر الحجري المتوسط. وقد

كان لسلاسل الجبال التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، كما كان للشق والوادي الذي يتوسطها أثر جد عميق على السكان، إذ كانت هذه العوائق تجعل من الصعب على القبائل الرحل النزوح من الصحراء الشرقية. وكان المهاجرون القادمون من الشمال قادرين على التحرك جنوباً في السهل الساحلي أو في وادي الشق دون أن تعترضهم أية موانع طبيعية. ويبدو أن الناس الذين كانوا يستخدمون الحجر الصوان، قد اجتاحتهم أقوام نزحت من الشمال كانت تستخدم النحاس، وقد تعرض هؤلاء بدورهم سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد لاجتياح الأقوام الذين كانوا يستخدمون البرونز. ومن الأرجح أن الآخرين كان أصلهم القوقاز أو منطقة بحر قزوين^(١). وكانوا، بناء على ما ذكره فلندرز تيري، على جانب كبير من الحضارة، حيث عثر ضمن مخلفاتهم على بعض الأدوات، المستوردة من بلدان قاصية مثل أيرلنده والهند.

ويبدو أن الحوريين قدموا إلى سوريا الشمالية من شمال بلاد الفرس أو من التركستان، ثم تلاهم ألحيثيون الذين كانوا يعيشون على هضبة آسيا الصغرى، ومن الأرجح إنتماءهم إلى الأرمنيين العصريين، وتتميز هيئتهم بالأنوف الكبيرة التي تربطها باليهود. وفي الواقع لا يزال يمكن رؤية هذه السمة الغربية بين الأرمنيين والعرب من أهل سوريا، ولكن ليس بين سكان الجزيرة العربية. ويقول موسكاني: «أنه توجد سلالتين متميزتين في الشرق الأدنى، هما سلالة «الشرقيين» في الجزيرة العربية وبلاد الفرس، وسلالة «الأرمنيين» الذين يتميزون بالأنوف الضخمة. وتدل كلمة سامي في الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» على سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظراً لاختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطاً شديداً^(٢).

(١) سير فاندريز تيري، «فلسطين وإسرائيل».

(٢) سابيتنو موسكاني، «الحضارات السامية القديمة».



الخريطة العامة لمنطقة الشرق الأدنى
خريطة رقم (١)

ولعل من الفائدة بمكان، ونحن فى هذا المقام، أن أوضح قبل الخوض فى مناقشة قصة العهد القديم، أن الموقف، كيفما كان، ليس فى المفاضلة السهلة بين الايمان أو عدم الايمان، بل إن المشكلة تكمن فى كيفية تفسير المعانى.

والسائد هو أن الانسان ينمو ويكبر على مر الأعوام والأيام، وأنه كلما ازداد نموا زادت قدرته على إدراك الله. فقد كان الانسان الأول يفكر فى الآلهة وكأنما هى على غرار رؤساء قبيلته، تفرح أو تغضب أو تضطرب، وهى التى تمنح مؤيديها جزيل عطائها وتحاول الإنتقام من أعدائها. ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن الله كان أبدا على هذه الشاكلة، ولكن كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى استطاعت بها عقلية الانسان البدائى أن تتصور الله.

وبنفس الطريقة يرى الأطفال الصغار أباهم وكأنه على جانب من القوة والبأس ويحسون بالأمن والأطمئنان كلما أمسكوا بيده. ولكن عندما يكبرون قد يخافونه أو يمقتونه لأنه يسعى إلى السيطرة عليهم، فإذا ما بلغوا سن المراهقة اعتبروه غبيا أو رجعيا لا يتواءم مع زمانهم. ولكنهم بعد ذلك كلما تقدمت بهم الحياة فإنهم يحكون لأبنائهم كم كان أباهم رجلا جليلا فاضلا. والأب هو نفس الشخص طوال الوقت، إلا أن الأبناء كانوا يرونه فى مظاهر مختلفة حسب تطور عقولهم. والله سبحانه هو الله الواحد وهو ثابت لا يتغير ولكن عقول البشر هى التى تتغير وتتبدل، وقد تخيلته فى صور متباينة على مر الدهور المتعاقبة.

وفى زمن العهد القديم تخيل الرجال البدائيون ربهم محاربا عظيما يكره أعداءه ويغضب عند قتلهم، وفى مرحلة تالية أخذوا فى نقده وظنوا أنهم قادرون على أداء عمل الله على صورة أفضل، تماما، كما يفكر المراهقون بالنسبة لأبائهم.

ولكن الله الرحيم لم يكن ينتقم من أبنائه جزاء تخيلاتهم الصببانية المخطئة، فقد كان «علما بمايكته صدر الانسان وما توسوس به نفسه». ومع هذا فإنه تعالى كلما رأى إنسانا مقبلا على عبادته يتغنى وجهه فقط ولا يتغنى أى مكسب مسه بروح منه وأمد به قوة من عنده وأعانه على عبادته وخدمته. وعقليا بالطبع يكون هذا العبد المخلص واحدا من أهل زمانه له إدراك معاصريه المحدود، ولكن تقواه وعبادته المخلصة كان يمكن إستخدامها بالرب حتى لو كانت عقلية صببانية. ولهذا، فإننا لو طالعنا أن الله أراد للإسرائيليين أن يذبحوا الكنعانيين، فإننى أعتقد أن لنا مطلق الحرية أن نفكر فى أن هذه هى صورة الله التى تخيلها هؤلاء الرجال البسطاء. وعلى هذا النحو، يتقبل المدرس فى مدرسته ما تقوله الطفلة الصغيرة من أن أباه هو أهم رجل فى العالم حتى لو كانت هى نفسها تعرف أنه ليس فى الحقيقة إلا عاملا غير ماهر.

وليس بالضرورة الشك فى الآراء التى جاءت فى العهد القديم عن الله إلحادا ولا إنكار «صدق» العهد القديم أو عدم الاعتقاد فى «المعجزات» إلحادا، لأن حقيقة كون الروح القدس تستطيع أن تثير قلوب الناس هى أكبر المعجزات، والحياة لها معجزة، ولغز، ولكنى أعتقد بوجوب أن نكون مقتنعين بأن رب هذا العالم إنما هو روح لا توحى إليه البشرية وأطماعها بالانتصار فى المعارك وقتل الأعداء.

والحقيقة أن كثيرا من المتاعب التى تصادفها الأديان تعزى الى محاولة حسنى النية من الناس، الزعم بأن الأقوال التى قالها شخص منذ أربعة آلاف من السنين هى أقوال مقدسة تسير كل زمان ومكان رغم ما يتضح من أنها إنما تحمل طابع العصر الذى عاش فيه ذلك الشخص، وأنها تتنافى مع المبادئ الأخلاقية التى نحترمها فى أيامنا هذه.

* * *

ويعتقد الباحثون العصريون أن سيدنا ابراهيم عليه السلام عاش في المدة من حوالي عام ١٨٥٠ ال عام ١٨٠٠ قبل الميلاد. وكانت مصر وفلسطين وسوريا وبابل في ذلك الوقت حضارات قوية عند ما جاء ابراهيم من أرض العراق. ومنذ آلاف السنين قبل المسيح حتى وقتنا هذا تواجدت قبائل تعيش في الخيام كانت دأبة الحركة على امتداد حدود الأرض المنزرعة في دول الشرق الأدنى. وأحيانا ما كان يطلق على هذه القبائل اسم شبه رعاة أو بدو الحمير، ولم يكن في استطاعتهم التوغل بعيدا في الصحراء لأنهم كانوا لا يستخدمون الجمال، بل كانوا يحملون متاعهم وخيامهم على ظهور الحمير، كما كانوا يعيشون على أغنامهم وماعزهم أو على تقديم العون للمزارعين أثناء مواسم الحصاد. وكان ابراهيم على رأس جماعة صغيرة من هؤلاء الناس.

* * *

وكثيرا ما كنت أمتطي صهوة جوادى في العشرينات، وأتجول بين قبائل البدو وحول النار التي يوقدها العرب في مضاربهم، وكنت أستمع الى القصص عن نسب القبيلة. وكانت هذه القصص تتخذ صورة سرد لمنجزات مؤسس القبيلة وأبنائه وربما أحفاده. ثم تتوقف القصص بعد أجيال ثلاثة، أى عندما يصبح عدد الأبطال من الكثرة بحيث يتعذر على الرواة تذكر هؤلاء الأبطال جميعا.

وقد أصبحت قصص الأبطال الأصليين مدبجة بدرجة عالية، وتتضمن خطبا حرفية أو قصائد شعرية جاءت على ألسنة أسلاف القبيلة، أو الأغاني التي كانوا يتغنون بها احتفالا بانتصاراتهم. أما إذا ما طلب من الراوية أن يذكر مزيدا من هذه أو تلك أتي بوقائع ترجع إلى أيام أبيه التي تفصلها عن أيام أسلاف القبيلة مئات السنين. ويبدو لى أن قصص الآباء في سفر التكوين تشبه هذا الشكل تماما. ومن المحتمل أن تكون قصة سيدنا ابراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل

لعل القصة كما نعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لاعادة التدوين تظهر في السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

ففى سفر التكوين الاصحاح ١٨ يسأل إبراهيم «أديان كل الأرض لايصنع عدلاً؟» وذلك برهان واضح على أن ابراهيم كان موحداً بالله. ومع هذا فإن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن ابراهيم لم يكن مؤمناً بإله واحد، وهكذا فإننا مجبرون عل الافتراض بأن هذه العبارة قد أدخلها المدون بعد ألف ومائتين من السنين، أى عندما كان الاعتقاد فى التوحيد منتشرًا. ويميل الناس البدائيون (وليس الموغولون فى البدائية) الى التفكير فى إلههم وكأنه رجل من البشر، وبالتالى فإن إله ابراهيم كان يزوره فى خيمته ويتناول العشاء وإياه ثم يدعوهُ إلى الخروج معه ليتأمل فى النجوم، وبعدئذ يستودع الرب مضيفه ويستأنف رحلته.

والكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكى نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن ابراهيم قد أعطى فكرا كبيرا أبدا لكل العالم حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له. وبينما كان إله الرعاة رجلا بالضرورة آمن أهل الحضر بالآلهة المحليين الذين يحمون مدينتهم وأرضهم. وقد ورد أن ابراهيم ضرب خيمته فى ما مر (الخليل) حيث يوجد مقام للآله المحلي. وكان الناس يتطلعون الى الآلهة المحلية وكأنهم أصحاب الأرض الشرعيين فإذا ما أراد إبراهيم أن يعسكر فى منطقة الخليل كان حتما عليه أن يحصل على موافقة الإله المحلي. وتستعمل كلمة «الشاداي»^(٣)، أى رب الجبل، فى بعض المواقع لتعنى الإله

(٣) سفر التكوين الاصحاح السابع عشر.

الذى مخاطب سيدنا ابراهيم، وقد يكون هذا الاسم ملائماً لإله منطقة الخليل لأنه أكثر المواقع ارتفاعاً في فلسطين. والطقوس التى جاء وصفها في سفر التكوين الاصحاح الخامس عشر من الفقرة ٩ إلى ١٨ هى مراسم وثنيه مألوفة، حيث كانت الحيوانات المضحية بها تشطر إلى نصفين متساويين يسير بينهما الذين يأخذون القسم^(٤). وقد يفسر هذا الطقس الوثنى وكأنه يوحى بأن ابراهيم قد عقد اتفاقاً مع الاله المحلى لمنطقة الخليل.

ويرى كثير من المؤرخين المعاصرين والمعلقين على كتاب العهد القديم أن أغلى أمنية كان يتمناها كل الرعاة هى أن يحصل على الأرض التى يستطيع أن يستقر عليها. وهذا خطأ بالكامل، حيث أن الحياة الرعوية هى طريقة فى الحياة متأصلة بعمق فى نفوس مثل هؤلاء الناس، بل إن حكومات كثيرة بذلت فى وقتنا هذا جهوداً عظيمة بغية إستقرار الرعاة الرحل إلا أنها لقيت معارضة شديدة، ولا يوجد سبب للاعتقاد بأنه كانت لدى ابراهيم وأسرته أية رغبة فى الاستقرار. ويقول جون برايت فى كتابه الدقيق «تاريخ اسرائيل»، أن ذرية ابراهيم أخذت تتجول فى ربوع الأرض» يشد من أزرها وعد بأن هذه الأرض سوف تؤول يوماً إلى نسله. «بالإضافة إلى ذلك فإنه رغم انقضاء قرابة ألف عام على غزو كنعان كانت ذرية ابراهيم لاتزال تفضل العيش فى الخيام. ولقد أراد ابراهيم أن يرعى أغنامه فى منطقة بير السبع، ولكن البرك التى تخلفها الأمطار على سطح الأرض كانت تجف فى الصيف، وكان لزاماً أن ترتوى الأغنام من مياه الآبار. وأغلب الظن أن ابراهيم لم يرد الاستقرار أو العيش كما يعيش الفلاحون، بل إنه أراد إمتلاك بعض الآبار^(٥). وبعد ذلك اشترى مغارة لتدفن فيها أسرته بعد موتها، ولكنه ظل هو ونسله يعيشون فى الخيام.

(٤) قارن ذلك بما جاء فى كتاب روثاد كليمنتس «داود و ابراهيم». «دكتور آر. أى. كليمنتس قس معمدان مرسوم».

(٥) سفر التكوين الاصحاح الحادى والعشرون ٣٠.

ويتفق العلماء على أن وعود ابراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، في ذلك الوقت، الى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يثور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم الى ابراهيم البدوي راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن ابراهيم لم يكن أول الموحدين بالله، وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا كيف كان الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذي خاطب ابراهيم كان هو الله رب العالمين.

إننا لم نعرف من هم آلهة ابراهيم، إلا أنه بعد وفاته يوضع مئات السنين ظهر يهوه باعتباره رب اسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا اسم «يهوه» بدلا من الأسماء الأخرى التي كانت تطلق على آلهة ابراهيم في الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التي كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعا باسم يهوه. ويربط هذه العبارة ذهنيا مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذي تناول العشاء مع ابراهيم في خيمته وأنه هو الذي تناقش مع الشيخ الجليل حول «صير سادوم»^(٦) (بلدة لوط المذكورة في التوراة).

وبعد الآباء انقضت حقبة من الزمن تقدر بحوالي أربعمائة عام، في صمت وسكون. وفي غضون هذه الحقبة، وحوالي عام ١٧٢٠ قبل الميلاد غزا الهكسوس وهم أقوام آسيوية ككلا من سوريا وفلسطين ومصر. وربما كان الهكسوس أتراكا لأن متوسط طول أجسامهم خمسة أقدام فقط^(٧)، ويضاف إلى ذلك أنهم أدخلوا الخيل إلى هذه الربوع، وقد برع أتراك آسيا الصغرى في تربية الخيول^(٨). وقد يكون

(٦) سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر الفقرات من ١٦ إلى ٣٣.

(٧) سيرفاندرز، بيري: «فلسطين وأسر الجبل».

(٨) يعتقد بنافير أنهم خليط من الساميين والعموريين والحثيين، أنظر كتابه: «مصر وخروج اليهود».

فرعون مصر الذى قرب إليه سيدنا يوسف هو واحد من حكام الهكسوس. ولا شك أن الهكسوس كانوا يشقون فى الرعاة الفلسطينيين، بوصفهم أجانب مثلهم، أكثر من ثقتهم فى المواطنين المصريين الذين تعرضوا لغزوهم.

وتمكننا الأحوال الخاصة لدلتا النيل من تصور أساليب الإقامة المؤقتة فى مصر، حيث أن ثروة مصر لم تقم على الأمطار، بل كان مصدر ازدهارها هو نهر النيل فقط، وكانت الأرض التى يغمرها فيضان النيل خصبة بدرجة غير عادية، أما الأرض التى تعلو بضع بوصات ولا يغمرها النيل فكانت صحراء جرداء.

وكان يعيش فى سيناء وبيير السبع وفى شمال الجزيرة العربية أناس تتوقف حياتهم على تربية الأغنام والجمال، إلا أن الطقس كان عرضة لتغيرات كثيرة بالنسبة لسقوط الأمطار. وعندما كان المطر لا يسقط كانت قطعان الماشية تنفق ويفقد الراعى الذى تموت أغنامه كل رأس ماله. ولهذا لم تكن تجديده السنوات الممطرة القادمة نفعا حيث لا توجد لديه أغنام لتربيتها. ومن ثم كان لزاما عليه أن يحصل على المال ليشتري الأغنام ويبدأ فى ممارسة نشاطه مرة أخرى. ولآلاف السنين أمدت مصر الرعاة الفلسطينيين بالحل، وذهب إبراهيم فى السنوات العجاف إليها^(٩). وتقع الصحراء على مقربة من الأرض المتزرعة بحيث يستطيع الراعى أن يضرب خيمته المتواضعة فى الصحراء القريبة ليتنقل على المدينة ويحصل على نقود تمثل أجرا ما قد يؤدى من عمل، وبهذه الأجر يتمكن من شراء الأغنام والحمير حتى تصبح أسرته قادرة على الحياة مرة أخرى. ومن ثم يبدأون مرة أخرى فى الاتجاه إلى الشرق حيث يستأنقون أسلوب حياتهم التقليدى.

وليس من شك، تحت هذه الظروف، فى أن يقرب كثير من فقراء الرعاة السوريين، عيامهم على حافة الدلتا الشرقية فى الفترة بين عام ١٧٢٠ وعام

(٩) سفر التكوين الأصحاح الثالث عشر فقرة ١٠.

١٢٨٠ قبل الميلاد. وفي حوالى عام ١٥٦٨ قبل الميلاد نجحت أخيرا حركة وطنية
مصرية فى طرد الهكسوس وأقامت الأسرة الثامنة عشرة. وكثيرا ما يحدث أنه كلما
استرجع شعب مغلوب على أمره جريته فإنه ينتقل مباشرة إلى فترة من التعدى
العسكرى ويبدأ فى قهر شعوب أخرى. وعلى هذا، دخلت الأسرة الثامنة عشرة فى
فترة زمنية فتحت فيها فلسطين وسوريا، إلا أن مصر نتيجة لانهايار الأسرة الثامنة
عشر فى حوالى عام ١٣١٠ قبل الميلاد تعرضت لفترة من الضعف، ولكن رمسيس
الأول (١٣١٠ - ١٣٠٩ قبل الميلاد) أعاد النظام وأسس الأسرة التاسعة عشرة،
ونحاض رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ قبل الميلاد)، معركة ضارية ضد
الحيتيين عند نهر العاصى^(١٠) وثبت الحدود شمال دمشق، وكانت بقية سنين
حكمه أيام سلام ورخاء.

وكانت العواصم المصرية القديمة فى طيبة أو ممفيس، إلا أن الهكسوس أقاموا
عاصمة ملكهم فى أفاريس التى عرفت فيما بعد بإسم تانيس، وعادت الأسرة
الثامنة عشرة الى ممفيس ولكن رمسيس الثانى نقلها مرة أخرى إلى أفاريس حيث
بنى فى هذه المنطقة مدنا كبيرة محصنة مستخدما عمال السخرة.

وتسجل احدى المخطوطات المصرية القديمة استخدام رمسيس الثانى لأسرى
الحرب الذين أسروا إبان حملاته العسكرية على سوريا. وإذا كانوا من سوريا الشرقية
فلا بد وأن يكونا من نفس نوع الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا، ومن
المحتمل جدا أن شبابهم كان مجندا أيضا. وكان المصريون يستخدمون أيضا السخرة،
ولكن الفرعون كان يسره بلا شك استخدام الأجانب بدلا من استخدام رعاياه.
وكان المصريون دائما معادين للرعاة «لأن كل راعى غنم هو رجس
للمصريين»^(١١).

(١٠) خريطة (١).

(١١) سفر التكوين الاصحاح ٤٦: ٣٦.

ولم يكن أسرى الحرب يتطلعون إلى معاملة أفضل، إلا أن التجميع المعتاد للرعاة الفقراء لا بد وأنه سبب سخطاً كبيراً، لأنهم جاءوا لينالوا أجورهم، ومن الطبيعي أن تحبط آمالهم لأنهم عملوا دون أن ينالون أجراً، إلا أن هذا «الاسترقاق» في الواقع لا يمكن أن يسمى «عبودية». وقد إقترض بنو إسرائيل من المصريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلى من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» (١٢).

وهنا لا ينظر إلى يهوه على أنه رب العالمين، بل على أنه رب إسرائيل، الذي يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا، فإن إقراض المصريين حليهم لبنى إسرائيل لا يوحى بالعبودية كما نتصوره ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك أنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيما بعد، حزن بنو إسرائيل على فقد حياة الترف والرغد في مصر بما يشير إلى إرتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

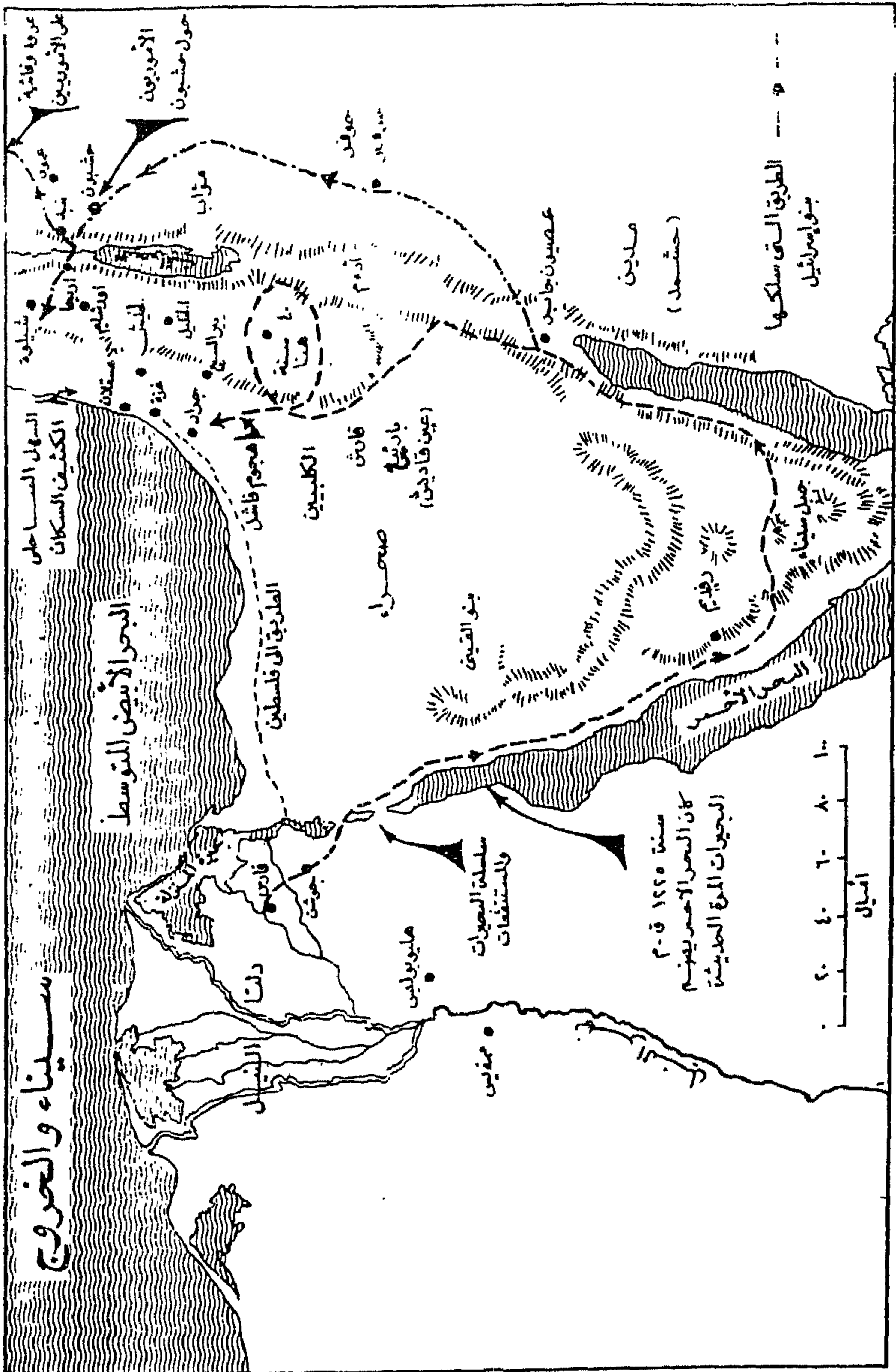
ومن المؤكد أن موسى ولد من بنى إسرائيل وتبنته إبنة فرعون مصر ونال تعليماً راقياً وربما تعلم مع كهنة هليوبوليس. ويقول ماثو الكاهن والمؤرخ المصرى الذى كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد «أن موسى أصبح كاهناً بالفعل» (١٣). وكيفما كان فقد تعاطف مع الرعاة الفقراء المستخدمين فى أعمال السخرة، وقتل رئيس عمال مصرى ثم فر إلى سيناء. وهناك استقبله بترحاب، يثرون الذى يوصف بأنه كاهن مدين وأكرم وفادته وزوجه إحدى بناته (١٤).

وعمل موسى راعياً عند يثرون، وفى ذات يوم بينما كان يرعى الغنم تلقى أول نداء قدسى من الله رب العالمين، ويطلق على هذا الحادث إسم «عليقة

(١٢) أطلق على الإسرائيليين الأقدمين إسم «بنى إسرائيل» لتمييزهم عن الإسرائيليين المعاصرين (المترجم).

(١٣) انظر بفايفر المشار إليه سابقاً.

(١٤) مدين شمال الحجاز خريطة (١).



موسى». وإذا كان موسى قد تلقى تعليمه كمشارك فهل يمكن أن يكون قد تلقى أول معرفته بالرب من حميه كاهن مدين؟ ولكن لا يبدو هناك سبب للشك فى أن هذه التجربة القدسية كانت تجربة جد أصيلة، وأمر موسى أن يذهب ويقود شعبه خارج مصر. ولكن موسى يسأل عن إسم الرب الذى يأمره، وكانت الاجابة: «إنى أنا الذى أرسلتك». ويبين سفر الخروج الاصحاح السادس أن تلك هى أول مرة يوحى فيها باسم «يهوه» وهو اللفظ العبرانى لاسم الله (والمعتقد أن يهوه يعنى «هو الكائن»)، ومن الواضح أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا من قبل بهذا الاسم. ويستأذن موسى من يثرون ويصطحب زوجته وولديه ويتجه شطر مصر. «وعندما وقف موس، وهو فى رحلته. ليقضى ليلته جاء يهوه لمقابلته وحاول أن يقتله»^(١٥). وهكذا فعندما يشعر القارئ بأن موسى لديه حالة تجلى روحية وأن القصة مفهومة، بل وحتى ملهمة بوحى إلهى، فإن مقطعا غامضا كهذا يصيبه بالبركة.

* * *

وتوخى إعادتنا بناء حياة الرعاة الفقراء على الحدود الشرقية لمصر بوضوح، أن هؤلاء الناس كانوا يغدون ويروحون باستمرار منذ وصل يعقوب وأهله لأول مرة قبل ذلك بأربعمئة سنة. والسرد الموجز فى العهد القديم يبين أن يعقوب هاجر الى مصر مع سبعين شخص من عائلته^(١٦)، وزادت ذريتهم فى السنوات الأربعمئة التالية دون أن يختلطوا بسلالة أخرى. وفى الحقيقة لم يكن هناك مفر من أن يتكونوا من جماعات مختلطة من بدو الحمير لسوريا وفلسطين. إلا أنه لا يمكن أن نتكهن الآن ما إذا كان أى من هذه الجماعات أيا كان عددهم، قد انحدر فعلا من ذرية سيدنا ابراهيم.

(١٥) سفر الخروج الاصحاح ٢٤/٤ «وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاء وطلب أن يقتله».

(١٦) سفر التكوين فقرة ٢٧.

ويبدو أن بعض الرعاة تحت قيادة موسى هربوا حوالى سنة ١٢٢٢ قبل الميلاد. وربما كانت الفوضى التي ضربت أطنابها بعد وفاة رمسيس الثانى سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد^(١٧)، هى التى أتاحت تلك الفرصة. ولا بد أن الرعاة كانوا على علم تام بمصر وجيشها. وفى ذلك الوقت كانت العجلات الحربية التى تعلم المصريون استخدامها من الهكسوس تسيطر على ميدان المعركة، تماما كما تسيطر عليه الدبابات فى وقتنا هذا. وكان موسى قد عاش عددا من السنين فى سيناء وبالتالى كان ملما بطبيعة أرضها، كما أنه ولا بد أنه ناقش خطط الهروب مع كبار الرعاة.

وطبيعة الحال، فإن أمل الرجال الذين كانوا يسيرون على أقدامهم هو أمل ضعيف فى مواجهة عربات القتال ما لم يكونوا قادرين على العمل فى الأرض الفجة أو الجبال (قارن هذا الموقف فى الحروب الحديثة فى المواجهة المشاة والدبابات) وأرض الدلتا التى كونها طمى النيل منبسطة ويرتفع مستوى الأرض قليلا فوق مستوى سطح البحر كما يوجد بها كثير من البحيرات والسبخات، (وقد غيرت قناة السويس من صورة الطرف الشمالى) وربما كان هذا الطرف يضم عام ١٢٢٢ قبل الميلاد سلسلة من البحيرات والسبخات تربط البحيرات المرة الحالية ببحيرة المنزلة. ولا بد أن تكون الأرض السبخة قد بدت لبنى اسرائيل وكأنها ملاذ ممكن من العجلات الحربية. ويخبرنا العلماء أن البحر الأحمر (يم سوف) الوارد ذكره فى سفر الخروج ليس هو البحر الأحمر فعلا، بل إنه يعنى بحر الغاب، مما يوحى بوجود بحيرة ينبت بها الغاب (البوص). وفيما وراء المستنقعات وعلى بعد أقل من ثلاثين ميلا تقوم جبال سيناء وهى غير ملائمة للعجلات بشكل سوى. وقد كان هدف الرعاة فى الحقيقة، هو الوصول إلى بحر السبع إلا أنها كانت تبعد

(١٧) سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢.

مائة وخمسين ميلا عبر سهل رملى، وإذا ما طاردتهم عجلات القتال كان ذلك يعنى هلاكهم فى هذه السهول، ولذا هرب الرعاة جنوبا على امتداد خط البحيرات مارين شرق مدينة السويس الحالية، ومن ثم عبروا الى الجبال، ومن الأرجح أنهم كانوا كثيرا ما يتجهون الى تلك المناطق فى فصل الربيع لكى يتمكنوا من رعى أغنامهم، ولذا فلا بد وأنهم كانوا يعرفون طبيعة الأرض معرفة تامة، أما رتل العجلات الحربية المطاردة فقد تخبط فى الأرض السبخة حيث غاصت العجلات حتى محاورها.

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أنه عندما هرب بنو اسرائيل كان يرافقهم «جمع مختلط» مكون من طوائف مختلفة من الرعاة السوريين والفلسطينيين. وكانت معهم أيضا قطعان كبيرة من الماشية^(١٨)، ولا بد أن الماشية يقصد بها هنا الأغنام، لأن الأبقار لا تستطيع أن تعيش فى سيناء. ونجد أن هذه الفقرة فى العهد القديم هى على الوجه التالى: «وصعد معهم لفيف كثيرا أيضا مع غنم وبقر، مواش وافرة جدا».

وعندما وصل الهاربون الى جبال سيناء الجنوبية أصبحوا فى مأمن من عجلات القتال، الا أن المنطقة كانت جرداء تماما ودون أى مدن. وكانوا قد جلبوا معهم أيضا بعضا من الدقيق حملوه على ظهور حميرهم، إلا أنهم عندما وصلوا إلى سيناء كانوا قد أكلوا معظمه ويستطيع الرعاة العيش فى فصل الربيع على اللبن الذى يجلبونه من قطعانهم لمدة قد تصل إلى أسبوع أو أسبوعين، إلا أنهم فى الأوقات الأخرى يكونون فى حاجة إلى الخبز. ولا يمكن الحصول على الشعير أو القمح الا من المناطق المنزرعة، وكنتيجة لذلك لابد للرعاة أن يتحركوا الى مثل هذه المناطق على فترات. حيث يبيعون هناك بعضا من خرافهم أو بعض أصوافها

(١٨) سفر الخروج الاصحاح ٣٨/١٢.

ليشتروا شعيرا أو قمحا بما يحصلون عليه من ثمنها. ولكن لعدم تواجد أى قرى فى جنوب سيناء، فقد هاجموا موسى طالبين منه الخبز، فالأغنام بالنسبة للراعى رأس ماله ولا يستطيع بالتالى الا فيما ندر ذبحها من أجل أكلها.

وبينما كان الرعاة فى سيناء الجنوبية اعتكف موسى إلى إحدى قمم الجبال ليتأمل ويتفكر، وهناك تلقى رسالة سماوية قدسية أخرى. وكنتيجة لذلك سجل الوصايا العشر على قطع من الحجارة، حيث كانت الحجارة هى مادة الكتابة الوحيدة التى فى متناول يده. ولو كان موسى قد تلقى علومه على أيدي كهنة هيبوبوليس لاستطاع أن يكتب. وقد صنع تابوتا أودعت فيه قطع الحجارة كان يحملها الناس عندما يتحركون من مكان الى آخر. وللتابوت أهمية خاصة، لأن علماء الآثار القديمة يذكرون أن الكهنة المصريين كانوا فى المناسبات الدينية يحملون رموز آلهتهم فى توابيت، وربما نقل موسى عنهم هذه العادة المصرية.

ونختتم هذا الفصل تاركين المهاجرين فى جبال سيناء فى مأمن من معجلات الحرية فعلا، وإن كانوا لا يحملون معهم سوى القليل من الطعام، الشراب.

تواريخ هامة

ابراهيم حوالى ١٨٥٠ - ١٨٠٠ قبل الميلاد

الخروج حوالى ١٢٢٢ - قبل الميلاد

خاتمة

١ - هناك شك فيما اذا كان سيدنا ابراهيم وعشيرته من بدو الحمير، كانوا في الحقيقة يريدون أرضاً، فلقد ظل قومه يعيشون في الخيام بعد وفاته بتسعمائة عام، ويحتمل أن يكون النص الموجود حالياً قد كتب بعد وفاة ابراهيم بنحو تسعمائة عام.

٢ - لا يزال الرعاة الرحل الفقراء يضربون خيامهم على امتداد الحانب الشرقى للدلتا، الا أن قناة السويس غيرت من هيئة الأرض الطبيوغرافية.

٣ - ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التي امتدت قرابة أربعمائة عام أى من فترة الآباء الى عهد سيدنا موسى، ولانستطيع أن نعرف ما اذا كان بنو اسرائيل في عهد موسى قد انحدروا فعلاً من سلالة ابراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة وكمثال على ذلك زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

٤ - استخدم رمسيس الثانى عمال السخرة فى الأعمال العامة، مثله فى ذلك مثل أى حاكم من حكام مصر من قديم الأزل.

٥ - كانت لموسى عليه السلام تجربة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو اسرائيل قد سمعوا قط عن يهوه الذى سيصبح إله إسرائيل، ومرة أخرى تلقى موسى الوحي على جبل سيناء.

* * *

الفصل الثامن

إذا توقفت قليلاً في هذا المقام فائنى أستطيع أن أؤكد بالدليل بأن دين إسرائيل يمكن تصويره وتجسيده بكلمة واحدة، تلك هي اسم: يهوه. إن هذا الاسم يسيطر سيطرة تامة على جميع ينابيع المادة التى نستحوذ عليها.. وهو يتردد أكثر من أى اسم أو فعل آخر فى العهد القديم. ولقد أحصى هذا الاسم عدا فوجد أنه جاء أكثر من ستة آلاف وثمانمائة مرة فى مقابل استخدام الكلمة العامة لإسم «الله» (الوهم) التى ذكرت ألفين وخمسمائة مرة.

تى. سى. فريزن. (دين إسرائيل القديمة)

إن التأكيد على أواصر القربى، والإفتقار إلى الارتباط بالمعابد الثابتة افتراضان مقبولان بالنسبة لدين تعتنقه جماعة غير مستقرة من أهل البادية.

آر. آى. كليمنتس، (إبراهيم وداود)

الفصل الثاني

الرب يهوه

عندما وصل بنو اسرائيل إلى سيناء خر يثرون، شيخ مدين الكبير لتحييتهم وقد اصطحب معه زوجة موسى وولديه. وقص موسى عليه كل ما فعله يهوه لتخليص بنى اسرائيل من مصر، وأجاب يثرون «الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة» ثم أخذ يثرون ذبائح للإله العظيم. وجاء هارون وجميع شيخ بنى اسرائيل ليأكلوا طعاما مع يثرون أمام الله^(١). وتوحى هذه العبارة بأن يثرون كاهن مدين كان أرفع مقاما من موسى فى عبادة «يهوه»، إذ أنه هو الذى أمّ الطقوس الدينية بينما كون موسى وهارون وكبار بنى اسرائيل جماعة المصلين. وبينغى ألا يغيب عن البال أن موسى كان يعيش مع يثرون عندما رأى العليقة المشتعلة. ولقد نبئنا أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا قط باسم «يهوه» قبل عليقة موسى^(٢)، لذا فمن المحتمل أن يكون موسى قد سمع عن «يهوه» من يثرون. وقد يثور جدل بأن يثرون هو الذى عرف يهوه عن طريق موسى، وعندئذ يصبح موسى المعلم ويثرون تلميذه، ولكن عندما أقيمت صلاة الشكر كان يثرون هو الذى تولى إدارتها بينما انضم موسى الى جماعة المصلين.

ويعلق وليام نيل على هذا الحادث بأن كثيرا من الباحثين يذكرون أن الأثر الذى تركته هذه الرواية، هو أن يثرون لم يكن إماما لأنه من المهتدين الطائعين الذين دخلوا فى دين يوره القويم، بل كان إماما باعتباره شخصية دينية بارزة يكن لها موسى إحتراما ملحوظا. وإذا كان «يهوه» هو إله سيناء الذى كان يعبداه أهل

(١) سفر الخروج الاصحاح ١٨ الفقرات ٨ - ١٢.

(٢) سفر الخروج الإصحاح ٢٠ ٦.

مدى أو الكنعانيين، وكان يثرون هو كبير كهنة «يهوه»، فلا يجوز القول بأن حما موسى نال أكثر مما كان يستحق لأنه لقي معاملة بالغة الاحترام من بنى إسرائيل جميعاً»^(٣).

ولكن ولیم نیل فی الفقرة التالية يبدو عليه الجزع من جراء مجازفته فيقول: «إن العهد القديم يختص موسى بأنه العقلية المبدعة التي استخدمها الرب لتوصيل مفهوم جديد عن ذاته وصفاته لشعبه المختار وإن كان ذلك تحت إسم قديم. وفي العليقة المشتعلة لم يتم إختيار موسى بواسطة إله قبلى خيالى لعشيرة مدين الغير مشهورة ولكن الذى اختاره رب العالمين». ومن الأسف أن يثرون لم يكن متنسباً الى سلاله فرعون، ولعلها حكمة رب العالمين أن يختار الأشخاص العاديين حيث اختار فى فترة تاريخية تالية نجارا قرويا مؤثرا إياه على القيصر أوغسطس.

ويتساءل ناقد عصرى للعهد القديم، عما إذا كان اعتقاد بنى إسرائيل فى إله واحد قد تطور من التعدد الوثنى للآلهة، ولكنه يجيب على سؤاله بالنفى^(٤). لذا جرت المجادلة بين ما إذا كان الاعتقاد فى إله واحد قد أوحى به بطريقة مباشرة من الله الى موسى وحده ومن موسى الى بنى إسرائيل دون غيرهم. وقد أخبرنا علماء الآثار القديمة أن الشعوب المجاورة كانت جميعها تعتقد فى تعدد الآلهة، وذلك أمر لا يحتمل الجدل، إلا أن علم الآثار القديمة تتناول المدن والمخطوطات، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تحدثنا عن ديانة أهل الخيام فى سيناء. ويخبرنا وليم نيل نفسه، فيما بعد، بأن الأنبياء وناظمى سفر مزامير النبى داود كانوا ينظرون الى أيام الصحراء وكأنها أعلى علامة تميز طاعة بنى إسرائيل لله، أى عندما كان الإيمان الخالص فى «يهوه» يفضى جنبا إلى جنب مع قانون أخلاقى صارم». ويستطرد نيل فيقول: «إن

(٣) القس وليم نيل، «تعليق على التوراة».

١١ دجى. أى. رايت «العهد القديم فى مواجهة بيته».

حياة قبيلة بدوية بمطالبها البسيطة واقتنائها المشاع لضرورت الحياة، ووضعها الجسماني الصحي المفيد للعلاقات الجنسية ووجودها غير المعقد بصفة عامة، هي حياة لا تبدو فيها المواد التي تضمنتها وصايا موسى العشر وكأنها أمور غريبة بأية حال. والواقع أنه ليس من قبيل المجازفة أن نذهب إلى الظن بأن جانب من دعوة موسى لعبادة إله واحد يرجع إلى التباديل الواضح في ذهنه بين الفجور والشرك اللاأخلاقى بالله الذي صادفه في مصر عن كذب، وبين التقوى السليمة والفضائل التي وجدها بين الكنعانيين الذين كانوا يعبدون الله رب العالمين»^(٥).

وتبدو هذه العبارة جد معقولة وإن كانت لا تلقى ترحيبا بصفة عامة من الكتاب الكهنوتيين، لأنها تعكس الاعتقاد بأن الله أوحى أول ما أوحى إلى موسى الذي حول أتباعه، بالتالي، إلى «شعب الله».

والرد على ذلك، هو أنه وجد في معبد سرايت الخادم عدد لا حصر له من الذبائح التي تحرق للعبادة، وقد تكونت منها طبقات كثيفة من الرماد، إلا أنها كانت خالية من العظام ومن ثم كان الرماد متخلفا من الذبائح التي كانت المتعبدون يستهلكونها، أي أنه لم يكن متخلفا من حرق كلى للذبائح الضحية. وقد اكتشفت في هذا المعبد ثلاثة هياكل للبخور. وهكذا ليست هناك أية جدوى من محاولة تحديد بداية التطهر بالماء أو هياكل البخور في الشريعة اليهودية، لأن القبائل العربية التي كانت تنسب إلى أصل واحد كانت تستخدمها قبل خروج اليهود ويقضى هذا النموذج في معابد شمال الجزيرة العربية على أي مبرر للجدل حول الوقت الذي نبذت فيه إسرائيل الصور من عبادتها، ذلك لأنها لم تكن قد دخلت قط في ذلك النظام، إن اتخذته فيما بعد نقلا عن التقاليد الكنعانية.

(٥) القس وليام نيل «تعلق على الكتاب المقدس».

إن اكتشاف أماكن العبادة هذه، التي كانت خالية من اللوحات والصور، والتي تتشابه في تصميمها مع آخر معابد أورشليم، في المكان الذي التقى فيه يثرون مع موسى. وهو قادم من مصر، يزيد كثيرا من احتمال أن حما موسى كان هو الوسيط الذي اتخذ يهوه ليحول موسى إلى عبادة وينبذ الأصنام. وربما كان يثرون كاهن مدين هو الذي قدم الذبائح التي أحرقت تعبدا، وبالتالي أكل منها هارون وكبار بني إسرائيل في ذلك المعبد بالذات. وربما كان أكثر مظاهر التشابه إثارة بين ديانة شمال الجزيرة العربية وديانة بني إسرائيل، أن الكعبة في مكة هي بناء صغير مكعب الشكل ليس به مكان لصنم أو محل لصورة، أي على غرار قدس الأقداس في أورشليم. وهناك وجه آخر للشبه، ذلك هو أن بني إسرائيل وعرب الصحراء كانوا جميعا يجرون عملية الختان (الطهارة)، أما إبراهيم الذي جاء من شمال سوريا فلم يكن يعرف شيئا عن الختان إلا عندما وصل إلى جنوب الخليل.

ومن سوء الحظ أنه بينما عاش موسى حوالي عام ١٢٢٥ قبل الميلاد، لم تتوفر لنا أول المعلومات المفصلة عن الديانة العربية إلا في عهد محمد رسول الله ﷺ، أي بعد ذلك التاريخ بنحو ألفي سنة. ويرفض أحد المعلقين على العهد القديم المقدس الفكرة القائلة بأن ديانة سيناء جاءت من الجزيرة العربية على أساس أن العرب في عهد سيدنا محمد كانوا «مشركين» وليس هذا صحيحا بالكامل، أولاً؛ لأن معرفتنا بالديانة العربية جاءت بعد إنقضاء ألفي سنة على مولد موسى ﷺ، أي بعد فترة من الزمن تساوى الفترة من عهد المسيح عيسى بن مريم إلى وقتنا هذا. ثانياً؛ لأن الديانة العربية لم تنحت الحجارة بحيث تحاكي الكائنات الحية، اللهم إلا بعض التماثيل القليلة التي جلبت من سوريا الرومانية. وكانت آلهة مكة أرواحاً قادرة على التوسط بين الإله والانسان ولم يكن محمداً ﷺ يطلق على أعدائه صفة عباد الأصنام، ولكنه كان يسميهم المشركين لأنهم كانوا يشركون الأرواح الصغرى مع الله الواحد.

وكيفما كان، فلم تكن الأرواح الصغرى تتزوج قط، كما أن الله الصمد لم يلد ولم يولد، بينما نرى أن أغلب النظم التى تقول بتعدد الآلهة، إن لم يكن جميعها، تصور آلهتها وقد اتخذت لها زوجات وأنجبت بنين وبنات. وهكذا كانت الديانة العربية فى غيبة هذه العلاقة الجنسية، أشبه ما تكون بديانة سيناء.

ويعتبر سفر أيوب دليل آخر على ذلك، لأنه ينطوى على مناقشة فى التوحيد لاتذكر إسرائيل على الإطلاق. وتقتضى الغارة على أبل أيوب ضمنا وجود اقليم صحراوى. وهناك ما يوحى بأن أيوب كان يعيش فى «تبوك» أو «تيماء» كما كان هناك بعض مبشرين آخرين دعوا الى التوحيد فى الجزيرة العربية وجاء ذكرهم على فى القرآن الكريم.

وهكذا يبدو محتملا ألا تكون ديانة سيناء وحيا جديدا نزل على حين فجأة ولكنها جاءت نتيجة عملية تطور ممتدة يرجع تاريخها فى شمال الجزيرة العربية الى عدة قرون ماضية. ويطابق هذا الافتراض سنة الله فى خلقه عبر التاريخ. أما النظرية العكسية فهى أن الرؤيا التى رآها موسى من آيات ربه الكبرى كانت رؤيا فريدة أصيلة - بل إنها طفرة مفاجئة للأمام على طريق تقدم البشرية.

وقد مر موسى بتجربة دينية حقيقية فى سيناء. والتاريخ ملئ بمثل هذه الدعوات الروحانية التى كان ناتجها تكريس النفوس المعنية تكريسا مطلقا. وعندما نزل موسى من جبل سيناء «جاء وجهه مشرقا يثلا لأتورا بحيث لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منه». وهذه النورانية خاصية معروفة تصاحب الانجذاب الروحى. ويوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى اسرائيل الأولى أخذت منبعها من الصحراء. ويكتب رونالد كليمنتس أن «هناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة يهوه الذى كان موقرا فى أيام ما قبل اسرائيل باعتباره رب سيناء - حوريب»^(٦).

(٦) آر. آى. كلمنتيس. ابراهيم وداود «مستشهدا بكتاب جى. جى. جى.» «الحياة فى الصحراء والعبرانيين وتقاليدهم حوريب سيناء».

وقد قوى من احتمال أن ديانة اسرائيل جاءت من الصحراء بعض اكتشافات سير فلنדרز تيرى^(٧). فقد وجد فى تل العجول (غزة القديمة) عددا من الغرف الصغيرة المنفردة، المنعزلة عن المباني الأخرى وهى مطلية بالكامل بالمصيص والجير الأبيض دون زخرفة أو ألوان ومن غير ما صورة أو موضع لصورة. وتشير العلامات إلى أن الغرض من هذه الغرف يرجع إلى أنه كان يوجد أمام بابها منصة ترتفع عن مستوى الأرض بقدم واحد سطحها الأعلى الذى تبلغ مساحته ياردة مربعة مغطى بأصداف بحرية مطعمة، وتنحدر هذه المنصة نحو بالوعة لتصريف المياه. والظاهر أن هذا المكان كان معدا لغسيل الأقدام قبل الدخول الى المعبد ومن ثم يدخل الفرد بعد عبور المنصة الى أرض المعابد المستوية والمصنوعة من المصيص الأبيض. ويرجع سير فلنדרز تاريخ هذه المعابد التى لم يكن بها مكان للأصنام، إلى الفترة ما بين عام ٢٠٠٠ وعام ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بين أربعمئة سنة وثمانمئة سنة قبل مجيء موسى. وكان الاكتشاف المثير هو سرايت الخادم فى سيناء التى تبعد بضعة أميال عن رفيديم القديمة حيث التقى يثرون بسيدنا موسى وهو بقايا معبد يعود الى نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، أى ثلاثة قرون قبل موسى^(٨). وكان يقوم خارج الباب خزان مكعب من الحجر، كما كان يوجد فى الفناء المربع خزان اسطوانى من الحجر كذلك، تحيط به أربعة أعمدة ترتفع عليها عريشة تظلل الخزان، وكان هناك خزان ثالث فى فناء ثان، محاط هو الآخر بأربعة أعمدة. وهذا أنموذج للحوض النحاسى فى فناء المعبد اليهودى^(٩). ودورة المياه (مبضة الحنفيات) فى فناء الجامع الإسلامى.

(٧) سير فلنדרز تيرى: «فلسطين واسرائيل».

(٨) خريطة (٢).

(٩) الملوك ٢٥ فقرة ١٣،

ولا تتبع أى من هذه الأدوات التى تستخدم للاغتسال والوضوء المعابد المصرية ولا المعابد أو الأضرحة فى شمالى غزة، وإنما هى تمثل أسلوبا عربيا ظل قائما قرابة أربعة آلاف سنة أو أكثر، دون أن يضم هذا النمط صورة أو صنما.

وعندما نفكر ونتأمل فى أمر الديانة التى اعتنقتها اسرائيل القديمة، ينبغي لنا أن نتذكر أمرين اثنين، أولا: بينما كان موسى قديسا وروحا مميزة، كان رجال القبائل رعاة جهلة، ومهما رأى موسى من آيات ربه فإن الفرد العادى من بنى اسرائيل كان يفكر فى «يهوه» وكأنه رب القبيلة الذى يصاحبها بشخصه فى المعركة ضد القبائل الأخرى التى تنتصر لها آلهتها وبالطبع يحارب معها هى الأخرى. ثانياً: كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفا تماما عنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمائة عام كما كان مختلفا أيضا عن الكهنة الذين أشرفوا فى النهاية على تجميع وإخراج نسخة العهد القديم. أو من غير المعقول أن يقال أن بنى اسرائيل فى سيناء كانوا يؤمنون بهذا أو ذاك، وأن نستشهد «بعاموس» أو إشعياء لإثبات هذا القول.

إن فكرة أن الديانة اليهودية أوحى بها بالكامل الى موسى هى أمر مخالف للتجربة البشرية لأن كل شىء فى الحياة ينمو ويتغير بصفة مستمرة، وموسى تلقى رسالة من الله وهذه الرسالة كانت قاطعة وكانت كاملة لأن الله لا يتغير، إلا أن واقع الحال هو أن كل من يتلقى رسالة ما يستطيع، كما رأينا، أن يستوعب منها على قدر ما تسمح به معرفته.

والرأى هو أن موسى كان روحا مميزة ولكن الرعاة كانوا مجرد رجال على شاكلة أهل زمانهم ومكانهم، وقد مس جانب قليل من روح موسى فئة قليلة من هؤلاء الرجال.

وليس هناك دليل فى قصة العهد القديم على أن رعاة سيناء كانوا يظنون أنفسهم أعلى كعباً ممن عداهم من القبائل الأخرى. وتسجل القصة عهداً بين يهوه وبين هؤلاء الرعاة الذين اعتبروه (أى يهوه) من ذلك الوقت وصياعداً، رب قبيلتهم تماماً كما كان «كموش» رب المؤابيين - نسل مؤاب أكبر أبناء لوط (عليه السلام) / وقد حدث سوء الفهم - ان كان هناك سوء فهم - بعد ألف سنة عندما تغيرت عبارة «يهوه» الى الرب (إيلوهيم).

وليس مستغرباً أن يقضى موسى أربعين سنة ليُجعل من هذا الجمع الغير متجانس من الرعاة مجموعة متماسكة. ويخبرنا سفر الخروج أن شيعة موسى عندما غادروا مصر كانوا جمعاً مختلطاً، وإن كان بنو إسرائيل، وهم عشيرة موسى، على رأس هذا الجمع. ومن سوء الطالع أنه يوجد سبعة وثمانون إصحاحاً من سفر الخروج الإصحاح ٢١ إلى سفر العدد الإصحاح ٢٠ (١٠) تصف الطقوس الدينية والأثاث فى هيكل أورشليم قبل (السبى) البابلى، بالإضافة إلى جانب غير قليل من التشريعات التى تلائم الحياة الزراعية. وقد سجل الكهنة هذه التفاصيل، بعد تدمير الهيكل، إبقاءً عليها إلى أن يحين الوقت مستقبلاً لإحيائها من جديد. ويخفى هذا الجانب من المادة الدخيلة الأثر الطبيعى الساطع لقصة الرعاة فى سيناء.

وكان الرعاة، كما رأينا، يراعون على امتداد حافة الأرض المنزرعة، وينتقلون الى القرى فى فصل الربيع، حيث يبيعون خرافهم الصغيرة وأصوافهم والزيد والسمن ليشتروا من الثمن الذى يقبضونه الحبوب ليصنعوا منها الخبز. ولكن لم تكن هناك أية مجتمعات زراعية فى سيناء، ولذا فسرعان ما افتقدوا الخبز. وكانت يير السبع أقرب المناطق التى تغل الحبوب. وعلى هذا تحرك الرعاة إلى تلك المنطقة. ولعلهم قد استقوا فى وادى عرابة وهم فى طريقهم (١١). وقد ورد أنهم ضربوا خيامهم فى «قادش بارنيع» والمعتقد أنها عين قديس الحالية.

(١٠) باستثناء سفر العدد الإصحاحات ١٠ - ١٤ التى تعود الى القصة.

(١١) خريطة (٢).

وقد اكتشف فى مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد مرتباج ابن رمسيس الثانى؁ وتصف هذه النقوش حملة الى فلسطين. وسجل فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكنعانيين والهوريين؁ ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها»؁ وإن لم يتفرق ذريتها». وفيما يختص بالشعوب الأخرى؁ فقد جاء ذكر مدنهم؁ إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنتسب لإسرائيل. وكانت هذه أول مر يذكرفيها إسم إسرائيل فى خارج الهد القديم وربما كان تاريخ ذلك حوالى عام ١٢٢٠ قبل الميلاد.

ونظر لأنه لم تذكر أية مدن اسرائيلية؁ فإنه يبدو أن اسرائيل كانت لاتزال تسكن الخيام فى سيناء. وعندما ضربوا خيامهم فى سهول بير السبع ليشتروا الحبوب باعنتهم واجتاحتهم العجلات الحربية المصرية؁ ولأن المهاجمين بالعجلات الحربية لا يستطيعون أن يحملوا الخيام أو الأغنام؁ فإن الرعاة يعودون ليلا ليجمعوا ما بقى من ماشيتهم. وكانت المنطقة تضم قبائل بنى القينى - قبيلة يشرون - والكاليبيين الذين من المحتمل أنهم كانوا يعبدون يهوه قبل أن يعبدوه بنو إسرائيل. وقد وجد بنو القينى مع بنى إسرائيل فى فلسطين؁ أما الكاليبيون فقد ضموا قدرهم مع اسرائيل وفى النهاية أخذوا الخليل واندمجوا فى يهوذا.

ولعل مما يستحق الذكر أن بنى إسرائيل إيان وجودهم فى «قادش بارنيع» كانوا فى «أرض ابراهيم» وهى الأرض التى وعد بها ابراهيم بناء على ماء فى سفر التكوين؁ وبالرغم من ذلك لاتوجد أى إشارة إلى إبراهيم إطلاقا فى ذلك الجزء من القصة؁ الذى يصف وصول الطائفة الى جنوب الخليل. فهل كان بنو اسرائيل فى ذلك الوقت لا يعلمون شيئا عن الوعد الذى وعد به ابراهيم؟ لقد أشار بعض الباحثين الى أن إسم إبراهيم لم يذكر منذ نهاية سفر التكوين الى السبى البابلى إلا

فيما نذر، ولذلك فعندما زالت دولة اسرائيل أصبحت للوعود التي وعد بها ابراهيم أهميتها.

* * *

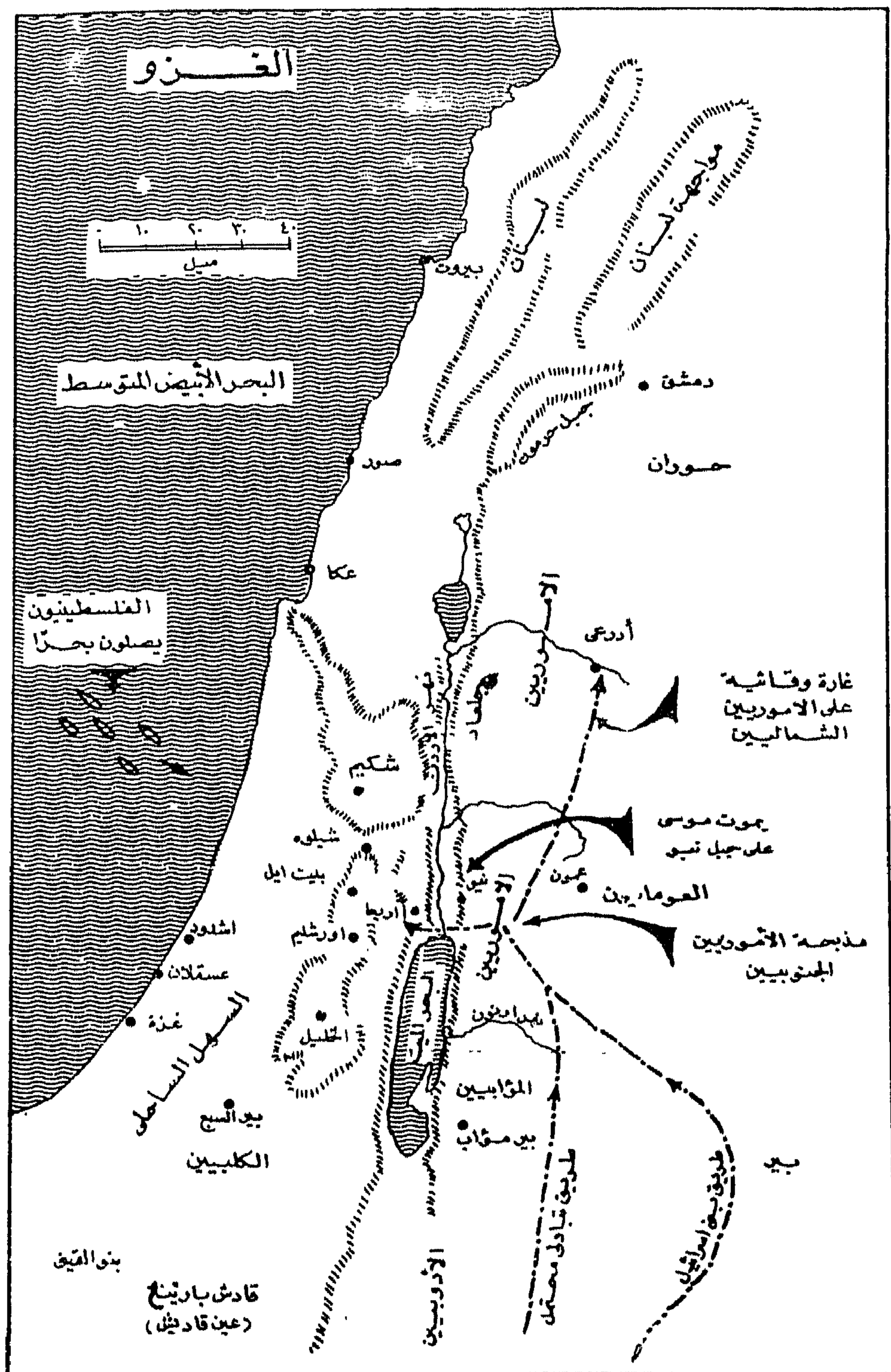
ويعزو العهد القديم التخلي عن الهجوم في الجنوب الى أوامر «يهوه» لأن السهل الساحلي الجنوبي كان مكتظا بالسكان، وكان يمثل المنطقة الأكثر حضارة وقدا في فلسطين، إلا أن الجبال الممتدة من يهودا الى السامرة (إذا ما استخدمنا أسماء حديثة) كانت فقيرة وقليلة السكان، لذا كان الهجوم من الشرق سيكون أسهل بكثير من الهجوم من الجنوب. وربما قضى رعاة بنى إسرائيل ما يربو على أربعين سنة يعيشون عيشة الرعاة الرحل في منطقة «قادش بارنيع» - وادي عرابة - ولكن لا يوجد في سرد العهد القديم أية تفاصيل.

ومن هنا نشأ جيل جديد في الصحراء، وكان شظف العيش وقيادة موسى، وإيمان هذا الجيل في «يهوه» باعتباره قائدا حرييا من الأسباب التي شدت من عزيمتهم، وقرر موسى أن يتجه شمالا فيعيد الكرة في محاولة أخرى. ولما كانت أدوم ومؤاب غير أصدقاء فقد إلتف قوم موسى من جهة الشرق، وفي منطقة «حرمة» تعرضوا للدغ الحيات ولا تزال هذه المنطقة معروفة حتى يوما هذا بكثرة ثعابينها السامة (١٢).

ولا يمكن التعرف على كثير من الأماكن، الا أن «بشر» قد تكون «بشرا». ولما كانت البئر قائمة في قاع واد ضيق فقد كانت عرضة لأن يترسب بها الطين عندما لا تكون مستخدمة وكان ينبغي أن تطهر من جديد على أيدي الوافدين الجدد (١٣).

(١٢) خريطة (٢)، انظر سفر العدد الاصحاح ٢١ / ٦ - ٩.

(١٣) سفر العدد الاصحاح ٢١ / ١٦ - ١٩.



خريطة (٣)

وقد كانت سلسلة الجبال شرق وادي الأردن مقسمة في ذلك الحين بين جموع من القبائل، فكان الأموريون في «حوران» وعلى جبال جلعاد حتى جنوب نهر أرنون، وكان العمونيون إلى الشرق حول عمان الحالية. وإلى الجنوب من أرنون كانت توجد تجمعات «مؤاب» القبلية الصغيرة ثم تجمعات «أدوم». وقد اجتاح بنو إسرائيل مجموعة الأموريين الجنوبية الذي كان إسم ملكهم (أو شيخ قبيلتهم) سيحون يعيش في حشبون (حسبان الحالية). وبذا تمكن بنو إسرائيل من الوصول إلى قمة الجبال المطلّة على وادي الأردن. وكانت المنطقة جنوب دمشق أهلة كذلك بالأموريين الذين جاءوا لمساعدة عشيرتهم، لذا اتجه بنو إسرائيل بسرعة إلى الشمال وأغاروا على الأموريين قبل أن يتمكنوا من إعداد العدة للقائهم، فهزم الأموريون عند «إذرعى» وهى «درعا» الحالية، هزيمة منكرة، ويبدو أن قد ذبحوا جميعهم.

وقد كان ذلك الأمر مدعاة لانزعاج مؤاب، الذى أرسل شيخها إلى «بلعام» وهو نبي كان يبدو أنه يعيش على نهر الفرات في شمال سوريا. ومما يسترعى الالتفات أنه كان كاهنا من كهنة «يهوه». وتوحى هذه الحقيقة مرة أخرى، بأن يهوه كان إله قبائل الصحراء. ولما كان بنو إسرائيل من عبدة يهوه أيضا، فإن بلعام لم يكن فى استطاعته صب لعنته عليهم. ويلخص سفر التثنية قصة الخروج من مصر إلى الوصول إلى «مؤاب» فى صيغة أحاديث نسبت إلى موسى عليه السلام. ثم يأتى بعد هذه الأحاديث مزيد من التشريعات وحديثان آخران من أحاديث موسى. والمعتقد الآن أن أغلب هذه المواد جمعت بعد مضى خمسمائة سنة. وكانت مادة الكتابة الوحيدة فى هذه الحقبة هى قطع الحجارة أو قوالب الآجر مما كان يصعب حمله على ظهور الحمير.

وقد توفى موسى ودفن على جبل «نبو»^(١٤)، وهبط بنو إسرائيل من الجبال

(١٤) خريطة (٤).

الشديدة الانحدار التي ترتفع حوالى أربعة آلاف قدم وضربوا خيامهم فى مخاضة الوادى تجاه «أريحا». ويذكر العهد القديم بأن العدد الاجمالى لبنى اسرائيل كان ستمائة ألف رجل فى سن الجندية، وبالتالى يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالى للعشيرة هو مليونان من الأنفس. ويفسر فلنדרز تيرى هذه المعادلة الصعبة بمقارنة الأعداد المستخدمة عام ١٢٤٠ قبل الميلاد بتلك التى كانت مستخدمة بعد ذلك بخمسمائة سنة، ويتابع بعض الأعداد التى كانت مستخدمة فى الحقبة السابقة وينتهى إلى أنها تتشابه الى حد ما مع تلك الأعداد التى كانت مستخدمة فى تاريخ لاحق وإن اختلفت دلالتها. واذ يجرى التصحيحات الضرورية فإنه ينقص أجل الآباء وأعداد بنى اسرائيل الى النسب المألوفة.

ومع هذا، فلا مناص من وقوع الخطأ، إذ يعتقد أغلب الباحثين العصريين أن اسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالى كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشر ألف نسمة. وإذا رجعنا إلى أن بنى اسرائيل كانوا جميعا قادرين على أن يستقوا من بشر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات فى صباح واحد فإنه يصعب قول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عددا.

خاتمة

١ - يبدو أن هناك كثيراً من الدلائل على أن عبادة «يهوه» كانت تمارس فى سيناء بل ربما أنها كانت تمارس فى شمال الجزيرة العربية قبل الخروج. وأن موسى ﷺ أخذ هذه العبادة عن يثرون شيخ مدين الكثير. والرأى هو أن موسى تلقى وحيا روحانيا حقيقيا فى «عليقة موسى»، إلا أنه نسب إلى يهوه، ولا يطل الاعتقاد العقلى والفكرى المخطئ التجربة الروحانية.

٢ - كانت عبادة يهوه عبادة مجردة بسيطة ختمتها ظروف معيشة الرعاة الرحل . والمظهر البارز فى تلك العبادة هو نبذ الصور، كما كانت المعابد التى أقيمت لعبادة يهوه عبارة عن بناء مقدس مكعب الشكل خال من الصور، فقد كان يصعب على البدو الرحل أن يحملوا معهم الهياكل المعقدة والأصنام والتماثيل .

٣ - لا جدال فى أن موسى ﷺ كان روحاً مميزة دينية وأن ما رآه فى «العليقة المشتعلة» بسيناء كان تجربة روحانية أصيلة . ومع هذا فقد كان بنو إسرائيل يعتقدون أن يهوه هو قائدهم العسكرى الذى سوف يقودهم فى المعركة . وفى سيناء التقى بنو إسرائيل بالقينيين (أهل مدين) الذين سبق لهم أن عبدوا يهوه طويلاً، ويحتمل أنهم كانوا هم الذين قدموه الى بنى إسرائيل على أنه قائدهم . ويصعب علينا فهم الأفكار المعقدة لهؤلاء القوم البسطاء .

٤ - أن السرد الكامل للخروج من مصر إلى الصراع مع مؤاب، جد واضح وسائغ . إلا أنه أصبح معقداً بكثرة المواد التى أضيفت، فيما بعد، بالإضافة لتناول وصف الطقوس الدينية فى هيكل أورشليم والتشريعات التى كانت تحكم المجتمع الزراعى .

الفصل الثالث

الغزو

«فإن ملاكى يسير أمامك ويجىء بك الى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين. فأبيدهم.. أرسل هيبتى أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين. فإنى أدفع الى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك..».

«فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام. فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التى تكلم بها الرب نفعل..»

سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢٣ إلى ٣٢ الاصحاح ٣/٢٤

«وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي فى حقل فى البرية.. أن جميع اسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال. ونساء إثنى عشر ألفا جميع أهل عاي...»

سفر يشوع الاصحاح ٨/٢٤ و ٢٥

الفصل الثالث

نقف فى هذا الفصل لتأمل معانى الأسماء المختلفة المستخدمة للرب. لقد كان الاسم العبرى «يهوه» أكثرها استخداما. وبعد عدة قرون، وربما كان ذلك حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، رأى كبار حاخامات بنى اسرائيل أن كلمة «يهوه» كلمة مقدسة بدرجة كبيرة لايجوز استخدامها فى الأمور المعتادة يوميا فاستبدلوها بكلمة «أدوناي» ومعناها الرب. وعندما ترجمت أسفار موسى الخمسة فى أعقاب ذلك إلى اللغة اليونانية ترجمت أدوناي بكلمة «كيرىوس» ومعناها الحرفى الرب. وفى اللاتينية صارت كيرىوس دومينوس وفى الترجمات الانجليزية أصبحت كيرىوس ودومينوس الرب، وهو اصطلاح قبل دون مجادلة ليعنى خالق الكون.

وقد عاد الآباء الدومينيكيون الى استخدام كلمة «يهوه» فى ترجمتهم الجديدة التى نشرت سنة ١٦٦٩. والرأى عندى أن رد الفعل الذى أحدثه كتاب العهد القديم كان طاغيا، فحيثما كان يهوه يخاطب موسى أو بنى اسرائيل كانت العبارة التى يستخدمها هى «إنى أنا يهوه ربك» أو «إنى أنا يهوه ربكم» وفى صيغة الغائب «يهوه رب اسرائيل». ويبدو أن الرعاة اعتبروه «يهوه» هو الرب الذى اختارهم والذى وعدهم بالسير على رأسهم للقضاء على القبائل الأخرى التى كان كل منها بطبيعة الحال تحت قيادة إلهها.

وقد سبق أن اتفقنا على أن موسى مر بتجربة روحانية أصيلة. وقد يرد هنا سؤال: كيف أمكن حدوث ذلك إذا كان يظن أنه يتحدث إلى إله قبلى محلى؟. وأنى أجتريء وأقترح أن الله قد يكون غير ذى بال بالنسبة لفهمنا الفكرية العقلية رغم ما نعلقه عليها من كبير الأهمية. وعلى أى حال فإن عقول البشر اذا ما قورنت بحكمة الله، فاننا نجدها أصغر قطعا من عقول البعوض اذا ما قارناها

بعقول البشر. فهلا يجوز أن يكشف الله عن ذاته العلية لرجل يبدى الاستعداد لتكريس نفسه لعبادته، حتى وإن كان فكرته العقلية عن الله مضحكة؟

لكن مهما كان اعتقاد موسى نفسه، فإن الرعاة كانوا يتخيلون الله وكأنه قائدهم في الحرب، والمسيحي في أيامنا تأخذه الحيرة عندما يقرأ أن «الرب» يأمر بذبح كل شيء حي. ففي وصف سقوط «أريحا» يقال لنا أنه قتل كل ما هو حي في المدينة. «وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»^(١). وتتردد نفس القصة مرارا وتكرارا. أيمن أن يأمر الله بهذه المذابح وبهذه الأعمال الوحشية التي لا تقف عند حد في حين أن المحبة هي أبرز سجاياءه؟

وبتغيير اسم يهوه إلى «الرب» وضع المترجمون «الطائفة المسيحية» في معضلة منذ ذلك الوقت، إذ وقع المدافعون عن الدين المسيحي في ورطة شديدة كيّمفا يفسروا هذا التناقض الظاهر، وكان سيّلبهم الى ذلك أن «الكنعانيين أشرار يستحقون الابداء» ويتعذر علينا اليوم أن نقدر كم كانوا أشرارا، ولكن على فرض أن الكنعانيين كانوا خليعين جنسيا - وهو الادعاء المألوف - فإنه من العسير قتل فئة بأسرها بسبب إنحلالها الجنسي.

وقد كان ما يطلق عليه اسم البغاء، طبقا للعقيدة الدينية، والذي كان يمارس في فلسطين سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، أمرا مألوفا لدى كثير من الشعوب الزراعية في ذلك الوقت، وكان يقوم على أساس المحاكاة السحرية. فلكي تأتي الثمار كان من الضروري أن تثيرها وتنبهها، وعلى هذا فإن رش الماء على الأرض، هو بمثابة تقليد للمطر الذي يتساقط من السماء وبالمثل كان العلاقات الجنسية الانسانية تثير وتنبيه خصوبة الحقول^(٢). وهكذا كان الكنعانيون والأموريون يمارسون خطأ يتعلق

(١) سفر يشوع الاصحاح ٢١/٦ .

(٢) جي. بي. جلوب «القرون الضائعة».

بحقائق الزراعة، ولكنهم كانوا يشاركون معظم معاصريهم المزارعين فى هذا الخطأ، لكن هل يكون هذا الخطأ مبرراً لأن يبادوا عن آخرهم؟

وفى مقدمة الطبعة المنقحة لسنة ١٩٥٢ للكتاب المقدس، فسرت لجنة المترجمين سبب الاستمرار فى استخدام كلمة «الرب» مفضلة إياها على الكلمة العبرية الأصلية «يهوه»، بأن استخدام أى اسم مناسب وملائم لتمييز الله الواحد الأحد وكأنما هناك آلهة أخرى غيره، قد بطل من الديانة اليهودية قبل العصر المسيحى، وهو أمر غير لائق تماماً للمذهب العام لكنيسة المسيحية، وكان الخل الذى اتخذه المترجمون هو تغيير اسم الإله القبلى إلى اسم الله خالق الكون، وبذا لا ينسبون إلى إله المحبة تلك العقلية البهيمية التى منحها الرعاة الرحل لإلهم القبلى، بمل يودى إلى أن قراءة أسفار موسى الخمسة، تعنى الشعور بانطباع غامر، وهو أن واضعى هذه الأحاديث المنقولة لم يكن لديهم أى تصور أو أى فهم لله رب العالمين.

لقد كان عالمهم محدوداً بمصر وسوريا والفرات والصحراء، وإذا ما امتدت رقعة هذا العالم إلى وراء لم يكن ذلك يهمهم. وكان شغلهم الشاغل فى ساعات يقظتهم هو أن تأكل الأغنام كفايتها، وأن يعتنوا بالخراف، ويحلبوا النعاج، ويوقفوا الذئب عند حدها، أما علم اللاهوت فلم يكن ليشغلهم البتة. وكانوا يحمدون يهوه ربهم كلما أصابهم خير، فإذا مسهم الضر جاروا وانقلبوا عليه. وهناك شك فى أن يكون دينهم قد ذهب إلى أبعد من ذلك.

إن حياة الرعاة حياة مقفرة بصورة غير معقولة، خيمة أكبر قليلاً من سرير النوم، من غير ما إضاءة أو مصابيح، وكل السكان أميون ولا توجد أى أدوات للكتابة. وعند أمثال هؤلاء الناس يكون المبدأ أو العقيدة مستحيلاً، فالمعابد والطقوس الدينية تحتاج إلى المباني، ولا يمكن أن يتواجد اللاهوت عندما لا يستطيع أحد أن يقرأ أو يكتب.

وتتساءل مقدمة كتاب العهد القديم كيف كان يهوه الله الواحد إله إسرائيل وكيف أصبح بنو إسرائيل شعب الله من بين شعوب الأرض جميعاً؟ وتجيب أسفار موسى الخمسة: لأن الوعد المقدس قطع لإسرائيل^(٣). إلا أن هذه الاجابة ليست شافية، فان «الله اختار إسرائيل لأنه وعد بأن يختار إسرائيل».

ولقد أشيع أن صفات بنى إسرائيل الأقدمين كان صفات فريدة فى العالم القديم، وقيل أن إهتمامهم بالفقرء كان إهتماماً منقطع النظر. فالديانات مثل الديانة المجوسية والديانة الإسلامية تعرف القدرة الآلهية والقداسة والطهارة والصالح. أما العدالة التى تحتو على الضعفاء والمنبوذين رحمة بأولئك الذين أهملتهم الدنيا - فهى جد أمر فريد فى ديانة إسرائيل^(٣). ويدولى أن هذا التعميم بالنسبة للدين الإسلامى هو تعميم مخطىء خطأ جسيماً، فإن الآية الثالثة عشر وما بعدها فى سورة البلد تصف السلوك الذى يرضى عنه الله بأنه «فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة» وهكذا ينصف الإسلام الفقراء والضعفاء بحيث يراه بعض الكتاب العصريين على أنه ثورة الفقراء على الأغنياء.

ويظهر أن هذه المحاولات الطيبة لتبرير اختيار الله بتصوير بنى إسرائيل القدماء بصورة فاضلة فريدة فى عالم شرير هى محاولات لا تتفق مع الكتاب المقدس. ويطالعنا سفر التثنية فى التوراة الاصحاح ٦/٤ «فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب يهوه هذه الأرض الجيدة لتمتد لك لأنك شعب صلب الرقبة. إذكر لاتنسى كيف أسخطت الرب يهوه فى البرية».

وإذا كنا قد تعلمنا منذ نعومة أظفارنا أن بنى إسرائيل البدائيين فى سيناء كانوا «شعب الله»، فإنه يصعب علينا الآن أن نكون موضوعيين. وأستطيع بكل تواضع أن أسلم وأخضع للصورة المنطبعة فى ذهنى، لأننى وقد عشت مع مثل

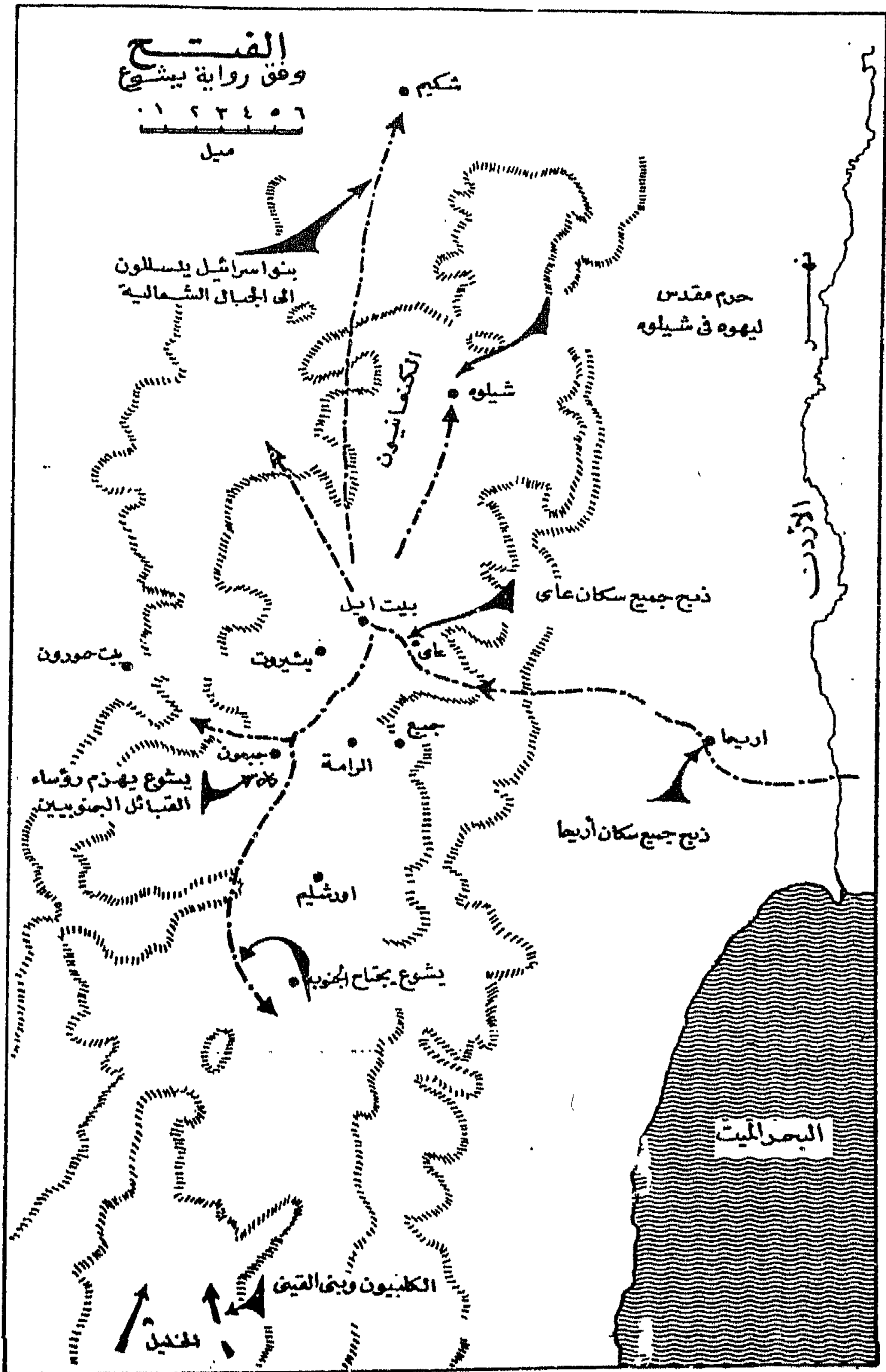
(٣) جى ايرنست رايت «العهد القديم فى مواجهة بيته».

هؤلاء الرعاة أجد أن قصة الخروج قصة حقيقة حية جدا، بل إنها قصة طبيعية لدرجة أنها تجبرني عل تقبلها من غير حاجة إلى إيضاها بالمعجزات أو الوساطة الآلهية أو شعب الله المختار.

وقبل وصول بنى اسرائيل الى أريحا بفترة قليلة كان الفلسطينيون القدماء قد استقروا على السهل الساحلى الجنوبى، وكان هؤلاء الفلسطينين غزاة جاءوا عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخبيل بحر إيجة. ويحتمل أنهم تعرضوا لغزو شعب فاتح من شعوب الشمال - الدارويين - فطردوا من أرضهم وديارهم، وقد وصلت جماعات أخرى منهم إلى تنصر ولبنان فى نفس الوقت. وكان الفلسطينيون القدماء أكثر تقدما من بنى اسرائيل بصورة ملحوظة.

* * *

ويبدو أن سفر يشوع هو من نوع القصص الزاخرة بأعمال البطولة التى كتبت بعد ذلك بزمان طويل لتمجيد البطل، أما سفر القضاة فانه يروى قصة مختلفة وأكثر حقيقة وواقعية. فبعد الاستيلاء على أريحا، وهى قرية يبلغ سكاتها أقل من ألفى نسمة وتغطى مساحة تقرب من ست هكتارات، وقد تحرك بن اسرائيل الى بروز فى الجبال المطلة على أريحا يؤدى إلى بيت إيل، ولا يزال هذا البروز هو الطريق السهل الوحيد عبر الجبال بين الصخور الممتدة شمالا وجنوبا. والجزء الأعلى من سلسلة الجبال الممتدة من بيت إيل (بيتين الحديثة) الى جبعون (الجب الجديدة) هو أكثر استواء وانفتاحا عن أكثر سلاسل الجبال الممتدة من الخليل الى «شكيم»، ومن ثم فقد كان يضم قرى جديدة. وكان يسكن بعض هذه القرى الجبعونيون الذين توصلوا إلى اتفاق مع يشوع عندما كان فى أريحا. وكان فى مواجهة انخدار البروز المؤدى إلى بيت إيل طريق سهل نسبيا عبر بيت حورون (بيت عور الآن) الى السهل الساحلى. وتقع جبعون على رأس المنحدر الى



خريطة (٤)

بيت حورون، ومن ثم كانت لها أهمية استراتيجية. ويشكل هذا السهل الصغير
الأهل بالسكان حائلا حصينا بين الجبال الصخرية الجرداء الضاربة إلى الجنوب
وبين الأقليم الممتد شمالا الى شكيم (نابلس الحالية).

ويذكر سفر يشوع الاصحاح العاشر أن ملك أورشليم أدوني صادق استنجد
بحكام منطقة الخليل ومنطقة لخيش وعجلون في السفوح الغربية ثم مضى
لمهاجمة جبعون مركز المواصلات الهام التي كانت ببساطة قد باعت الممر بعقدها
اتفاقا منفردا مع بنى اسرائيل، الا أن يشوع هب لمساعدة حلفائه الجدد وهزم رؤساء
القبائل الجنوبيين مطاردا أياهم على منحدر حورون. وتوصف قبائل الخليل هذه في
سفر يشوع الاصحاح العاشر بأنها من الأموريين. واغتتم يوشع فرصة هذا الانتصار
فاكتسح الاقليم الجبلى الى الجنوب.

وقبل هذا الحادث، أو حوالى ذلك الوقت. قامت قبيلة بنو القينى، وهى
قبيلة حمى موسى من أتباع كالب، بغزو الخليل من الجنوب، ولعل مما يذكر أن
هذه القبائل كانت شبه رعاة فى منطقة بير السبع - سيناء، ومن الأرجح أنها كانت
تعبد يهوه قبل خروج اليهود من مصر، ومع أنها لم تكن حاضرة عند طور سيناء
إلا أنها اندمجت فيما بعد فى قبيلة يهودا التى إحتلت منطقة الخليل.

وبينما نرى أن سفر يشوع يصفه بأنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل الى
شكيم، وبأنه مسحها وقسمها بين الأسباط، يقص علينا سفر القضاة قصة أكثر
واقعية حيث يصور الأسباط المختلفة وقد قام كل سبط منها بعمل مستقل فى
محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها. وغالبا ما تم ذلك بالاتفاق مع
السكان الموجودين فى المنطقة. فعلى سبيل المثال، يذكر الاصحاح الأول / ٢٩ من
سفر القضاة، «وافرام لم يطرد الكنعانيين الساكنين فى جازر فسكن الكنعانيون فى
وسطه فى جازر». ويستطرد، «ولم يطرد أشير الكنعانيين فسكن الاشيريون فى وسط

الكنعانيين سكان الأرض». وفي أغلب الترجمات يقال أن سكان البلاد كانوا يجبرون على أعمال السخرة، إلا أن رونالد توكس يترجم ترجمة أكثر دقة فيقول أنهم كانوا تحت الجزية^(٤).

ويعتقد أغلب الباحثين العصريين أنه حدث قتال على أضيق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت ايل في هذه المرحلة. فقد تسلل بنو إسرائيل إلى البلاد وتوصلوا إلى تفاهم مع السكان. ولعل الأمر أن يكون كذلك في بعض الحالات، لأن القرويين كانوا يفضلون أن يدفعوا الجزية للرعاة ويصبح في إمكانهم زرع حقولهم. ومثل هذه الاتفاقات قد تواجدت في الشرق الأوسط منذ أمد بعيد جداً، وهي في الواقع لم تبطل وتلغى إلا في العشرينات فقط. والرعاة الرحل بالرغم من قلة عددهم إلا أن مقدرتهم على خلق المتاعب جد كبيرة، أما الفلاحون الذين كانوا يريدون أن ينتشروا في حقولهم ليعملوا بها فقد كانوا غالباً على استعداد لدفع الجزية في مقابل ممارسة نشاطهم دون أن يمسه أحد.

ويفترض الباحثون في أي مجتمع مستقر منظم (حتى ولو كان تحت حكم سليمان، بل في أوروبا الحديثة) درجة كبيرة من التنظيم أكثر مما عساه أن يكون في مجتمع رعاة رحل ويقولون أن اتحاداً فيدرالياً بين اثنتي عشرة قبيلة يستلزم بالضرورة عقد معاهدة. أما سفر يشوع فيصور يشوع بأنه كان يقسم الأرض ويقسم الحدود بين الأسباط - وتلك آراء مألوفة في مجتمع زراعي مستقر إلا أنها لا تتفق مع حياة الرعاة الرحل. ومثل هذه العبارات مثل كثير غيرها مما جاء في أسفار موسى الخمسة لا بد وأنها كتبت بعد مضي عدة قرون. وأحسن وصف للمجتمع القبائل الرحالة، هو ما جاء في آخر سفر القضاة «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، كل واحد عمل ما حسن عينيه».

(٤) ترجمة الكتاب المقدس، لرونالد توكس.

ولقد رأينا أن مصر كانت تتدخل مرارا في فلسطين قبل خروج اليهود، بل إنها في الواقع حكمت سوريا طوال فترات عديدة. وكيفما كان، فقد حلت الفوضى بمصر قبيل غزوناى اسرائيل مباشرة لفلسطين، وكان ذلك من جراء انهيار الأسرة التاسعة عشرة وانسحاب مصر من فلسطين.

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تكن هناك قوة موحدة تقوم بتنظيم جيش واحد بل ترك كل سبط صغير أو كل قرية تدبر أمر دفاعها عن نفسها على طريقته. وفي غيبة الحكومة المصرية حصل الرعاة الرحل على الميزة الخارقة لخفة الحركة. فقد كانوا يستطيعون، وقد اعتادوا على الأسفار بقطعاتهم وعائلاتهم عبر الصحارى والقفار، وأن يتنقلوا كما تنتقل الفرقة خفيفة الحركة. أما السكان المستقرون والموزعون بين المدن والقرى، ودون أن يكون لديهم قائد مشترك يأمرون بأمره وينتظمون تحت لوائه، فقد كانوا غير قادرين على وضع قوة موحدة فى الميدان. وهكذا استطاع الرعاة الرحل رغم قلة عددهم، أن يحرزوا دائما التفوق العددي فى أية نقطة واحدة.

وليست هناك بطبيعة الحال أرقام للتعداد، وبالتالى فإن تقديرنا ليس أكثر من حدس وتخمين ولكن يمكن القول بأن سكان فلسطين كانوا قرابة نصف مليون، وربما كانت الكثرة الغالبة من هؤلاء السكان فى السهل الساحلى، إلا أنه يجدر بنا أن نختص المناطق الجبلية بمائة ألف نسمة، وكان عند بنى اسرائيل خمسة آلاف مقاتل فقط مما يجعلهم قلة قليلة إذا ما قورنوا بالسكان المستقرين فى المدن والقرى. ومن الأرجح أن سكان أريحا، المقاتلون منهم فقط، كانوا أقل من ألفى رجل، وكان فى إمكان الغزاة أن يحشدوا فى مواجهة هؤلاء الرجال خمسة آلاف مقاتل. وهكذا استطاع بنو اسرائيل بتقدمهم الجماعى أن يكتسحوا، على التعاقب، كل واحدة من المدن الصغيرة، أو كل قبيلة على حدة.

وقد حدثت أن عشت لسنوات عديدة في منطقة جنوب العراق حيث لمست أن ظاهرة مماثلة قد حدثت. إن المؤرخين العرب القدامى يذكرون أن قبيلة من الرعاة الرحل يطلق عليها اسم «منتفق» كانت تعيش في الصحراء جنوب نهر الفرات في القرن الثاني عشر بعد الميلاد. وفي سنة ١١٢٤ ميلادية قامت هذه القبيلة بغزو البصرة كمثال. ومن الأرجح أنها تمكنت من عبور نهر الفرات في القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر إلى الأرض المنزرعة. وهكذا استطاع الرعاة الرحل وعددهم أقل بكثير جدا من عدد السكان المستقرين أن يغزوا القبائل الصغيرة واحدة بعد أخرى. وإذا كانوا يضربون خيامهم على حافة الأرض المنزرعة أو في الأرض البور، أو بين القرى فقد أجبروا المزارعين على أن يدفعوا لهم الجزية.

وحوالي سنة ١٦٠٠ ميلادية كان المنتفقون هم حكام المنطقة بلا منازع وكانوا يذكرون وكأنهم الأمراء والحكام. وقد ثاروا على الحكم العثماني وحارب المزارعون تحت إمرة «أسرة» المنتفق. ولازال هؤلاء الرعاة الأولون في خيامهم ينظرون بشيء من الكبرياء وانتفوق على رعاياهم. وفي سنة ١٩٢٢ ذهبت بنفسى لأعيش في منطقة المنتفق، وكان الرعاة لازالوا يعيشون في خيامهم يجمعون الإتاوات من المزارعين، وكان هذا بعد انقضاء ما يقرب من خمسمائة عام منذ قدومهم من الصحراء، ولم يتعلم هذا النظام إلا في الأربعين سنة الماضية فقط.

وكانت قبيلة بن صقر رعاة رحل في الحجاز إبان القرن الرابع عشر بعد الميلاد، وقد قيل أنهم كانوا يدفعون الجزية للمماليك في مصر. وفي القرن الخامس عشر أو السادس عشر ظهروا في الصحراء في شرق الأردن، وهم الآن وبعد مضي أربعمائة سنة منذ وصولهم، يمتلكون القرى على امتداد حافة الصحراء ويفلحون الأرض مستخدمين العمال الزراعيين من المناطق المستقرة. ولا يزال أغلب بني صقر بدوا يسكنون الخيام إلى هذه الأيام.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى شبيهة حيث نرى فى كل حالة أن عدد الرعاة الرحل كان جد صغير إذا ما قورن بعدد السكان المستقرين، إلا أن خفة حركتهم مع تماسكهم أتاحت لهم أن يغزوا المزارعين جماعة فى إثر أخرى ومن ثم كانوا غالبا ما يطلقون على المنطقة التى يغزونها إسم قبيلتهم، رغم أنهم من الناحية السلافية يشكلون جانبا ضئيلا من السكان. كما أنهم لم يتخذوا مهنة الزراعة بسرعة، بل كانوا يعيشون فى خيامهم لسنين طويلة معتمدين على الأنماط التى يجمعونها من القرويين.

ويبدو لى أن غزو بنى اسرائيل لفلسطين هو واحد من هذه الأمثلة التى لا تدخل تحت حصر منذ عصر ما قبل التاريخ إلى وقتنا هذا: وإذا صح هذا الرأى فان غزو بنى اسرائيل لم يكن تدخلا إلهيا فريدا لصالح مجموعة من الرعاة الرحل الذين فضلهم الله رب العالمين على خلقه أجمعين.

ويوجز سفر القضاة الاصحاح الثالث/ ٥، الموقف الناجم عن الغزو كالاتى: «فسكن بنو اسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم ابنيهم وعبدوا آلهتهم».

وقد تشير عبارة «سكنوا» بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى كما كان المنتفقون يفعلون فى العراق، كماتدل ضمنا هذه العبارة أيضا على أن بنى اسرائيل كانوا أقل عددا من «أهل البلاد».

وقد علق العلماء الباحثون على حقيقة بأنه «فى حين يظهر أنه كان هناك قتال جنوب الخط الممتد من أريحا الى بيت حورون، فإنه يبدو أن السلسلة الجبلية الممتدة من بيت إيل الى شكيم قد اخترقت دون معركة. ويستنتج البعض أن القبائل فى هذه المنطقة كانوا على شاكله بنى اسرائيل، وأنهم انضموا إليهم طائعين. وهذا استنتاج محتمل من غير ماشك، حيث رأينا أن بنى اسرائيل فى مصر كانوا جمعا مختلطا.

ويجوز، بشكل سوى، أن يكون هؤلاء الفلاحون قد أثروا دفع الجزية نظير السماح لهم بالاستمرار في عملهم. وبناء على ما جاء في سفر القضاة الاصحاح الأول، استطاع الأموريون أن يصدوا الغزاة في بعض الأحيان إلا أنهم كانوا يجبرون في أحيان أخرى على دفع الجزية، وأحيانا ما استقروا سوريا. وقد بنى معبد لعبادة يهوه في شيلوه حيث أودع تابوت يهوه.

ولاتعنى كلمة «القضاة» بالطبع موظفين قضائيين بل تعنى قادة حربيين. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تقع حرب مع الكنعانيين على امتداد الجبل فقد اندمج بنو إسرائيل وإياهم، وإنما هب قادة الحرب كلما هاجم الجيران الخارجيون منطقتهم. وعادة ما كانت تشتبك في هذه الحملات المحلية قبيلة اسرائيلية أو أكثر تحت إمرة رئيس عسكري محلي. وتطلق أغلب الترجمات الانجليزية على هؤلاء الرؤساء العسكريين اسم القضاة. وما لم تحدث مثل هذه الأزمات كان «كل واحد عمل ما حسن في عينيه» وهذه هي المثالية للمجتمع والحياة في رأى معظم رجال القبائل.

خاتمة

يبدو محتملاً أن:

- ١ - كان إله إسرائيل اعتباراً من الخروج من مصر وصاعداً هو يهوه الذى عبد مسبقاً في سيناء وأماكن أخرى بالأخص من سكن الصحراء.
- ٢ - كان الرعاة الرحل غير قادرين على عمل الصور أو حملها وبالتالي لم تتضمن عبادة يهوه الصور والأشكال.
- ٣ - حظى موسى بشواب إلهي روحاني يحتمل أنه من روح القدس التى تتجلى لكل هؤلاء المستعدين لخدمة الرب.

٤ - وكيفما كان فقد فكر رجال القبائل من بنى اسرائيل فى يهوه كمحارب سوف يقودهم شخصيا الى النصر. وقد كانوا ذوا حظ عظيم إذ «اختارهم» مثل هذا الآله البارع فى فنون القتال.

٥ - هذه القصة المجردة المنطقية الطبيعية، إذا جاز لى أن أقول ذلك بكل خضوع تبدو لى وكأنها كانت خافية علينا لأن المترجمين جعلوا ترجمة يهوه «الرب».

الفصل الرابع

أيام مجيدة

ليس هناك سبب يدعو إلى الشك فى أن الايمان بعقد ميثاق بين يهوه وداود وقد حدث منذ وقت مبكر جدا. وقد أفلحت قطعة من الفلسفة اللاهوتية اليهودية فى اقرار مزاعم آل داود، فأصبحت تأكيدات الاختيار اللاهوتى لجبل صهيون مقرا ليهوه، واختيار آل داود لتقديم ملوك بنى اسرائيل، مظاهر رئيسية لتقاليد أورشليم الدينية.

آر. أى. كليمنتس، «ابراهيم وداود»

لأنستطيع أن نتطلع إلى أى من الملوك والرهبان بكثير من الإعجاب، أو الكبرياء، إلا أن العالم بأسره سوف يذكر دائما أسماء عاموس، وهوشع، يونان، ميخا.. إن روح الاستقلال الأخلاقية الباسلة الخالدة هى التى نكرمها فى الأنبياء، لا الاستقلال السياسى الذى يحارب الناس من أجله دون نهاية كدفاع عن النفس أحيانا، أو حربا عدوانية أحيانا أخرى لنيل مزيد من الأرض، أو للتحكم فى مزيد من الرقيق، أو للاثراء على حساب الجيران.

موشى منوحين، «تدهور الديانة اليهودية فى هذا العصر»

الفصل الرابع

جاء الغزاة الفلسطينيون القدماء (شعب البلست) عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخبيل بحر إيجة حيث وطمدوا أنفسهم فى السهل الساحلى، تماما كما وطمد بنو اسرائيل أنفسهم فى المناطق الجبلية. وصناعيا كانوا أكثر تقدما من بنى اسرائيل فقد كان لديهم الحديد الذى استخدموه مع النحاس والبرونز لصنع عجالات القتال والسيوف والرماح وأسلحة المحارث، وقد اندمجوا بسرعة مع أهالى البلاد كما فعل بنو اسرائيل مع سكان الجبال. وبعد أن أحكم الفلسطينيون سيطرتهم على السهل الساحلى الجنوبى اتجهوا الى مرج ابن عامر (سهل زبولون)^(١). ولكى يسترضوا السكان الوطنيين عبدوا الإله المحلى «داجون». وفى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد كان الفلسطينيون يشقون طريقهم شمالا فى داخل المنطقة الجبلية.

وبعد عام ١٠٥٠ قبل الميلاد بقليل وصلت قوة من الفلسطينيين إلى أفيق على سفوح التلال، وطردهم الإسرائيليون بعد أول اشتباك فأرسلوا فى طلب تابوت يهوه الذى كان محفوظا فى شيلوه على بعد سبعة وعشرين ميلا^(٢). وعلى الرغم من هذا التدبير هزمت اسرائيل هزيمة منكرة واستولى الفلسطينيون على تابوت يهوه واجتاحوا بعدئذ النصف الشمالى من المنطقة الجبلية ودمروا معبد «شيلوه» وكانت قوتهم على غرار قوة بنى اسرائيل مؤلفة من مجندين من القبائل لا يأخذون أجرا، ويمكن استخدامهم فى الحملات الحربية القصيرة، ولكن كان من الضرورى بعد ذلك أن يصرفوا أنفسهم لمتابعة اشغالهم المعتادة، ولم يكن لديهم جيش نظامى لحراسة المناطق المحتلة، ولكن يبدو أنهم تركوا قليلا من الحصون الصغيرة فى المناطق الجبلية.

(١) خريطة (٥).

(٢) سفر صموئيل الأول الاصحاح ١.

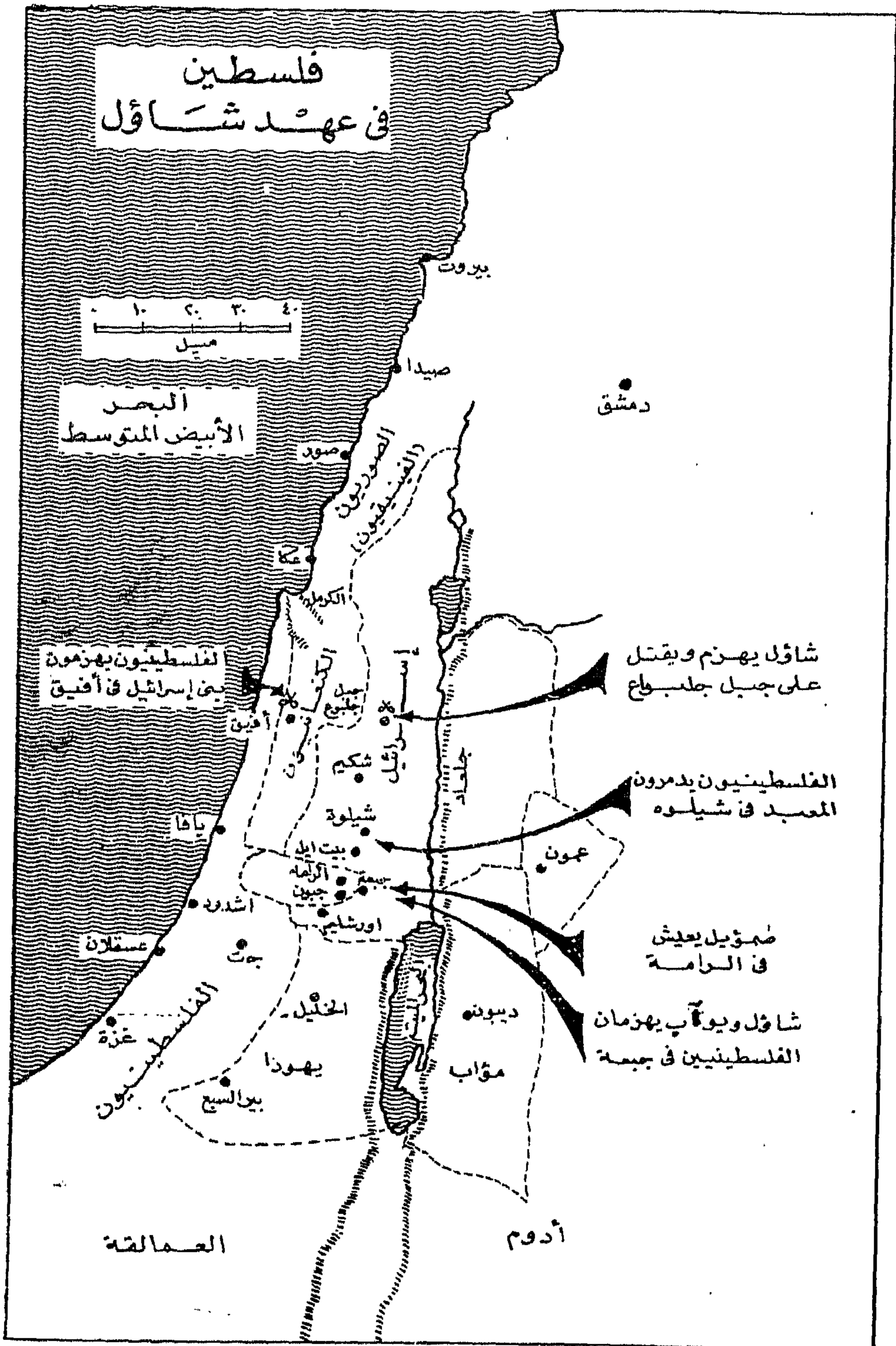
وأخذ الفلسطينيون تابوت يهوه إلى «أشدود»، إلا أن أهل هذه المدينة سرعان ما أصابتهم النزلات والأورام، مما يحتمل أن تكون أعراض الطاعون الدملي، فنقل التابوت إلى «جت»، إلا أن سكان هذه المدينة أصيبوا أيضا بالأورام. وعلى سبيل استعطاف يهوه أعاد الفلسطينيون التابوت وأرسلوا معه تقدمه تمثلت في خمسة بواسير من ذهب وخمسة فيران من ذهب^(٣). ولعل مما يسترعى الانتباه أن الفلسطينيين ربطوا بين الطاعون الدملي والفئران، في حين أن أوروبا لم تتمكن من اكتشاف العلاقة بين الاثنين إلا بعد أنقضاء ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة.

وفي هذه الضائقة، علا صيت النبي شموئيل (صموئيل)، وكان رجلا على خلق عظيم، عاش في الرامة حيث بنى هيكلا لعبادة يهوه بعد أن دمرت «شيلوه». واذ دعا ربه يهوه أن يساعده، أثار في بنى اسرائيل روح الحمية، إلا أنه لم يكن هناك شخصية رئيسية لتتولى قيادتهم. ولم يشترك كثير من القبائل في معركة أفيق، أما شموئيل فكان قد بلغ من الكبر عتيا، كما كان واضحا أن أبناءه غير قادرين على تولي أعباء القيادة. وترتب على ذلك أن ذهب شيوخ بنى اسرائيل الكبار إلى شموئيل حيث طالبوا بملك يتولى قيادتهم. ويعرض سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن تحذير النبي للشعب من رسامة ملك عليهم، إلا أن الفصل التالي يعرض شموئيل وهو يتلقى الأمر من يهوه لينصب عليهم ملكا.

وفي الاصحاح الثاني عشر يعود الموقف السابق للظهور فيقول شموئيل للشعب «وترون أنه عظيم شركم الذى عملتموه فى عينى يهوه بطلبكم لأنفسكم ملكا»^(٤). إن هذه الآراء المتعارضة التى يحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضى قرن

(٣) سفر صموئيل الأول الاصحاح ٦، ٥.

(٤) سفر صموئيل الأول الاصحاح ١٧/١٢.



خريطة (٥)

من الزمان تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الاسباط يتحرق شوقا الى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل، من جهة أخرى، وجهة نظر ملكي، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية. ثم جاء مدون بعدهما بفترة وجمع وجهتي النظر المتعارضتين.

، كان شاول في ذلك الوقت فتى يافعا رائعا، فلما رسمه سموئيل ملكا بدأ بهزيمة العمونيين، إلا أنه لم يستطع أن يجابه الفلسطينيين فاستخدم معهم تكتيكات حرب العصابات. ونبئنا سفر سموئيل الأول الاصحاح ١٥/١٣ أنه كان تحت إمرته ستمائة رجل فقط، وأنه استطاع بفضل مبادأة ابنه «يوناثان» في المقام الأول أن يهزم قوة فلسطينية في جبعة على بعد خمسة أميال شمال أورشليم. ويبدو أن هذا النجاح زعزع قبضة الفلسطينيين على المنطقة الجبلية شمال أورشليم وعزز موقف شاول.

وعندئذ جاء سموئيل الى شاول وأخبره بأن يهوه يريد أن ينتقم من العماليق الذين قاموا بالاغارة على بنى اسرائيل منذ مائتى سنة عندما خرجوا من مصر. وقال سموئيل أن يهوه قد أمر بذبح جميع الرجال والنساء والأطفال وبذبح جميع الحيوانات الموجودة على قيد الحياة من الثيران والأغنام والجمال والحمير. وهزم شاول العماليق وقتل جميع الكائنات الحية بغض النظر عن السن أو الجنس. وذلك باستثناء رئيس القبيلة الذى أخذه أسيرا، كما أبقي على خيار الأغنام والبقر والخراف.

وجاء سموئيل لمقابلة شاول واستنكر عدم إطاعته للأوامر، لأن أجاج ملك العماليق كان لا يزال حيا، ولأن الحيوانات لم تذبح كلها، ثم قال «لأنك رفضت كلام يهوه رفضك من الملك». وهنا أرسل سموئيل فى طلب «أجاج» فلما جاء ذبحه بيديه. ويعتبر هذا الحادث واحدا من الأحداث التى يواجه بها المسيحيون لأن أغلب الترجمات الانجليزية تقول أن الرب أصر على المذبحة.

وفى «ديون» (ديان الحديثة) عشر على نقش «ميشع» الأثرى الخاص بملك مؤاب، وقد نقشت عليه عبارة مؤداها أن «كموش» إله مؤاب غضب لأن المؤابيين أهملوا عبادته، ونتيجة لذلك سمح لاسرائيل، بأن تغزو معظم إقليمهم، إلا أنه عطف على مؤاب فيما بعد فعقد لهم النصر واستولوا على «عطاروت» و«نبو» وذبحوا كل سكانهما قربانا لكموش.

وكتب فريتسن قائلا: «يستطيع المرء أن يدرك أن اعتقاد المؤابيين فى إلههم كان يوازى اعتقاد بنى اسرائيل فى إلههم». ويضيف ملاحظة بأن «أبحاث بريسكل مانز» تشير الى أن هذه المذبحة الجماعية لم تعرف فى الدنيا القديمة (على حد علمنا) - باستثناء إسرائيل - إلا فى مؤاب فقط. وإذا كان هذا البيان صحيحا، فإنه يتضح أن اسرائيل ومؤاب كانتا أكثر وحشية من أى مجتمع آخر غيرهما. فكيف نوفق، والأمر كذلك، بين هذا الرأى والرأى الذى عبر عنه الدكتور دجى. أرنست رايت، حين قال «إن العدالة التى تخنو على الضعفاء والمنبوذين كانت سجية خاصة منفردة فى بنى اسرائيل الأقدمين؟».

وتوضح الاكتشافات الأثرية فى «أوجاريت»، بالقرب من اللاذقية فى سوريا، أن الأغنام والشيران كانت تقدم قربانا فى ذلك المكان، كما كانت الخال فى اسرائيل. وكان يتحتم أن تكون هذه الحيوانات سليمة دون عيب كما كانت الضحايا تحرق على النحو الذى كان معمولا به فى اسرائيل، وتواجد هناك موظفون للمعبد وكان من بينهم كاهن كبير، وقد تمثلت فى «أوجاريت» أيضا سمة التبجيل و«الارتباط الحبيب باللاهوت»^(٥).

وهكذا نرى، على السطح على الأقل، أن ديانة بنى اسرائيل الأقدمين كانت فى بعض مظاهرها أشبه بديانات الأم المحيطة بهم، إلا أنه ينبغى لنا أن نتذكر أن

(٥) توماس. بى. فريتسن، «ديانة إسرائيل القديمة».

ديانة اسرائيل نفسها كانت عرضة للتغيير الدائم، لذا فإن أقصى ما يمكننا أن نعمله هو أن نحاول وصفها في وقت محدد. إن تقديم القرابين من الأغنام والثيران لا يمكن أن يدخل إلا في ظروف زراعية لأن الثيران لا تستطيع العيش في الصحراء، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد».

وقد تميزت الديانة في أيام الصحراء بغياب الصور، وبالتكريس الكامل ليهوه وبغيبية الجنس في صفات يهوه. وعلى أية حال، فالمحتمل أن هذه كانت مميزات جميع ديانات الصحراء البسيطة في ذلك الوقت، وربما كان بنو اسرائيل أكثر اخلاصاً في عبادة يهوه مثل العمونيون في عبادة «كموش» أو الفلسطينيون في عبادة «داجون». ولعل هذا الاخلاص كان هو البذرة التي جاء منها التوحيد، الا أن النتيجة التي تربت على الاخلاص، كانت التعصب الذي لم يشارك بنى اسرائيل فيه الا المؤابيين على حد قول فريتسن، إن صح قوله.

وكان هذا التعصب خليقاً بأن يجر المسيحية الى شذوذ غير عادى، فهي وقد سلمت بأن العهد القديم أوحى به كما أوحى بالعهد الجديد. فإنها كانت ستصبح ديانة جائرة، رغم أن وصايا المسيح كانت على عكس ذلك على خط مستقيم. وأنا نرى دوام هذا التعصب بعينه في اسرائيل الحديثة.

وبهذا التأمل يمكن إدراك التباين في وجهة النظر التي أبداهها وليام نيل حيث يقول: «إن بنى اسرائيل شعب عجيب مختلف عن أى شعب آخر، لأن صلاتهم وعبادتهم تجعل لهم صفة فريدة تميزهم عن أى شعب غيرهم بأنهم العدة المختارة لمشية الله»^(٦) وعندما نصل الى نهاية القصة، في قيام اليهودية الربانية وقيام المسيحية، يمكننا أن ننظر الى الوراء لنرى القصة كاملة ونعجب من تطورها، الا أنه يبدو لى أن من الخطأ أن نصور الغزاة الاسرائيليين البدائيين بتلك الصورة الصالحة.

(٦) وليام نيل، «تعليق على الكتاب المقدس».

من هذه المرحلة وصاعدا تصبح المسألة التي تزداد الحاحا هي مسألة اندماج أولئك المنحدرين من رعاة سيناء مع المواطنين الفلسطينيين. وتظهر الفقرة التالية فى الصفحتين اللاحقتين للعبارة المستشهد بها آنفا من كتاب ويليام نيلب: «أما الآن فقد تغير الموقف، فإن الكنعانيين الذين كانوا ساميين^(٦). على شاكلة بنى اسرائيل، والذين كانوا قد وصلوا قبل بنى اسرائيل بفترة بسيطة، لم يعد ذكرهم يأتى باعتبارهم أعداء أو منافسين، فقد اندمج الشعبان وصار الكنعانيون وبنو اسرائيل شعبا واحدا، واكتمل الامتزاج بينهما بالتزاوج والتعاهد والمتاجرة، وصارت اسرائيل الشريك البارز فى الأعمال المالية والقيادة العسكرية. وفى عملية الامتزاج هذه تحول كثير من العادات الكنعانية الى عادات اسرائيلية، واندمج بصفة خاصة، كثير من الديانة الكنعانية فى ديانة يهوه».

وتوافق الكثرة الغالبة من علماء العهد القديم العصريين على هذه العبارة الواضحة. ان الرعاة الغزاة فى أيام يشوع كانوا خمسة آلاف رجل فقط، وكان الاندماج الذى حدث بين بنى اسرائيل وسكان المناطق الجبلية (ذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى السهل الساحلى) امتزاجا كنعانيا أكثر منه اسرائيليا وذلك من وجهة النظر السلالية (العرقية).

* * *

وقد تقوض مركز شاول على يد شموئيل الذى رسم داود ملكا منافسا، وقد جأرد داود بالشكوى بعد أن جد شاول فى اقتفاء أثره قائلا «قد طردونى اليوم من الانضمام الى نصيب الرب (يهوه) قائلين اذهب أعبد آلهة أخرى»^(٧). ويصعب

(٦) كان الفلسطينيون سنة ١٢٠٠ ق.م، كما رأينا شعبا من أجناس شتى، فكان بعضهم من آسيا الصغرى أو اليونان أو آسيا الوسطى، وربما كان اسم الكنعانيين اصطلاحا مشتركا للفلسطينيين دون أن يكون له أى مغزى سلالى.

(٧) سفر شموئيل الأول (١٩/٢٦).

على ضوء هذه العبارة أن نزع من داود (وناهيك عن ابراهيم) كان موحدا بالله.

وقد انتهى الأمر بقتل شاول خائبا، مغنظا، في معركة مع الفلسطينيين على جبل جلبوع^(٨). وقبلت يهودا وحدها داود ملكا، وحكم متخذاً مقره في الخليل طوال سبع سنوات ونصف سنة بينما حكم واحد من ذرية شاول في الشمال، وقد احتفظ داود السياسي الواسع الحيلة، بعلاقات الود مع الفلسطينيين وعندما شن الفلسطينيون الحرب على بني إسرائيل - في الحملة التي قتل فيها شاول - طلب أخيش ملك جت من داود أن يمضي معه إلى الحرب.

ويوضح هذا الحادث أن يهودا التي تضم قبائل القينيين والقينيزيين وقبائل أخرى كانت متميزة من قبل عن القبائل الشمالية، بل إنها كانت على أهبة الاستعداد لتنضم إلى الفلسطينيين ضد القبائل الشمالية، وحتى بعد أن وحد داود الشمال والجنوب بقي الاختلاف قائما بينهما.

وقد ظل داود في الخليل بضع سنوات في حرب مع «إشبوش» ابن شاول، وفي النهاية انضم «افنير بن نير» قائد جيش إشبوش إلى داود إلا أنه قتل بيد يوباب قائد جيش داود الذي رأى فيه منافسا خطيرا له. وبعد ذلك اغتيل إشبوش وخضعت قبائل الشمال لداود وكان ذلك حوالي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد. وقد حكم داود ثلاثة وثلاثين عاما.

كانت مواهب داود خارقة، فقد كان قائدا متمرسا، واستراتيجيا موهوبا وسياسيا فذا. وطالما بقي داود في الخليل مشتبكا في حرب مع ابن شاول، كان من دواعي سرور الفلسطينيين أن يقدموا له العون، إلا أنه عندما وحد إسرائيل أدرك الفلسطينيون أن تفوقهم أصبح مهددا فهاجموه، إلا أنه استطاع أن يصد هجومهم.

(٨) خريطة (٥).

وعلى الرغم من مضى ٢٥٠ سنة منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم فى حوزة اليبوسيين وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الاسرائيلية الأخرى فى السهل حتى بثيروت وبيت إيل^(٩) كانت تعزل يهودا عن القبائل الشمالية. وفضلا عن ذلك، كانت لأورشليم سمعتها بأنها حصن لا يقهر. وقد رأى داود أن أورشليم بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لاسرائيل المتحدة، كما كان لها أيضا ميزة «الحياد» بين يهودا والشمال، لذا استولى داود على أورشليم ونقل مقره إليها، إلا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية فى المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبى البابلى. وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ثمانمائة سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة. ويذكر (سفر التكوين الاصحاح ١٧/١٤ - ٢٤) ملكى صادق ملك شاليم كاهنا للرب الأعلى الذى كان يطلق عليه اسم «العليون». ويبدو أن هذا التقليد اليبوسى هو الذى أوحى بفكرة داود ومبايعته الخاصة ليهوه.

ولكى يزيد داود من سمعة عاصمته الدينية جلب إليها التابوت الذى كان مهما فى زوايا النسيان بإحدى القرى منذ أعاده الفاسطيونيون. وأوحت الدعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كى تحكم أسرته الى الأبد. وزعم أن أورشليم المدينة اليبوسية هى المقر الخاص ليهوه. ويتردد ذكر ذلك فى المزامير^(١٠) وفى مواقع أخرى وكان لهذه الدعاية دور فى تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، فى ذلك الوقت، لم تخذع بهذه الدعاية، وظلت مخلصا لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) فى أورشليم.

وإذ عزز داود مركزه على هذا، النحو شرع فى فتوحاته فهاجم مؤاب أولا ثم تقدم صوب آرام ملك دمشق وأقام حكاما وحامية فى المدينة، وعند عودته الى

(٩) خريطة (٤).

(١٠) المزامير ٧٢ و ٧٦ (٦٧ - ٧٢) و ٨٧ و ٩٧ (٩)، ٩٩ وأخرى.

أورشليم هزم قبائل الأدوميين جنوب البحر الميت وعين عليهم الحكام، «وكان يهوه يخلص داود حيثما توجه» (١١).

وكان العمونيون الضحية التالية لسياسة داود التوسعية، وبينما كان الجيش يحاصر عمون (عمان الحالية) اغتصب داود بتشبع زوجة أوربا الحثي الذي كان غائبا في الحرب، وقد أرسل الملك أوامره الى يوأب قائد الجيش ليدبر أمر قتل أوربا، وهكذا تزوج داود أرملته، أى أن بتشبع التى صارت أم سليمان كانت امرأة حثية، وكانت جدة داود من المؤابيين.

وقد كان بنو اسرائيل حتى ذلك الوقت حشودا قبلية تخارب أفضل فى مناطقها الجبلية. ولكن لكى يغزو داود مدينة دمشق أنشأ جيشا نظاميا من المرتزقة، وكان أغلبهم من الشريريين والبليثيين الذين يبدو أنهم من الفلسطينيين، إلا أنه يزعم أنه استخدم الغاليين، كما استخدمت اسرائيل لأول مرة قوة من العجلات الحربية.

وكان الاسرائيليون والكنعانيون فى المنطاق الجبلية شعبا واحدا فى ذلك الوقت. والواقع أن يهوه غالبا ما كان يطلق عليه اسم «بليعال»، الا أن داود كان قد غزا أقاليم أخرى وعمل على تشجيع سكانها على الاندماج فى بنى إسرائيل. وكان من بين أتباعه أهيملش الحثي، ودعيل الأدومي، وأوربا الحثي. وقد احتفظ الفلسطينيون باستقلالهم الا أنه كان يسرهم أن يعملوا جنودا مرتزقة فى جيش داود، ولم يستوطن بنو اسرائيل المناطق التى فتحت - آدوم ومؤاب ودمشق.

وكان نهوض اسرائيل المفاجيء «إلى هذه المكانة السائدة بين جيرانها داعية لتحول بنى اسرائيل، فقد تقدموا الى دمشق وآدوم بعد أن كانوا من قبل جماعة من القبائل الجبلية المتخلفة. وجاء المواطنون من دمشق وآدوم الى أورشليم لتقديم

(١١) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ١٤/٨.

ولائهم كما توغل داود أيضا خمسين ميلا على الساحل جنوب حيفا حيث يمتد طريق التجارة الرئيسى من دمشق إلى مصر^(١٢).

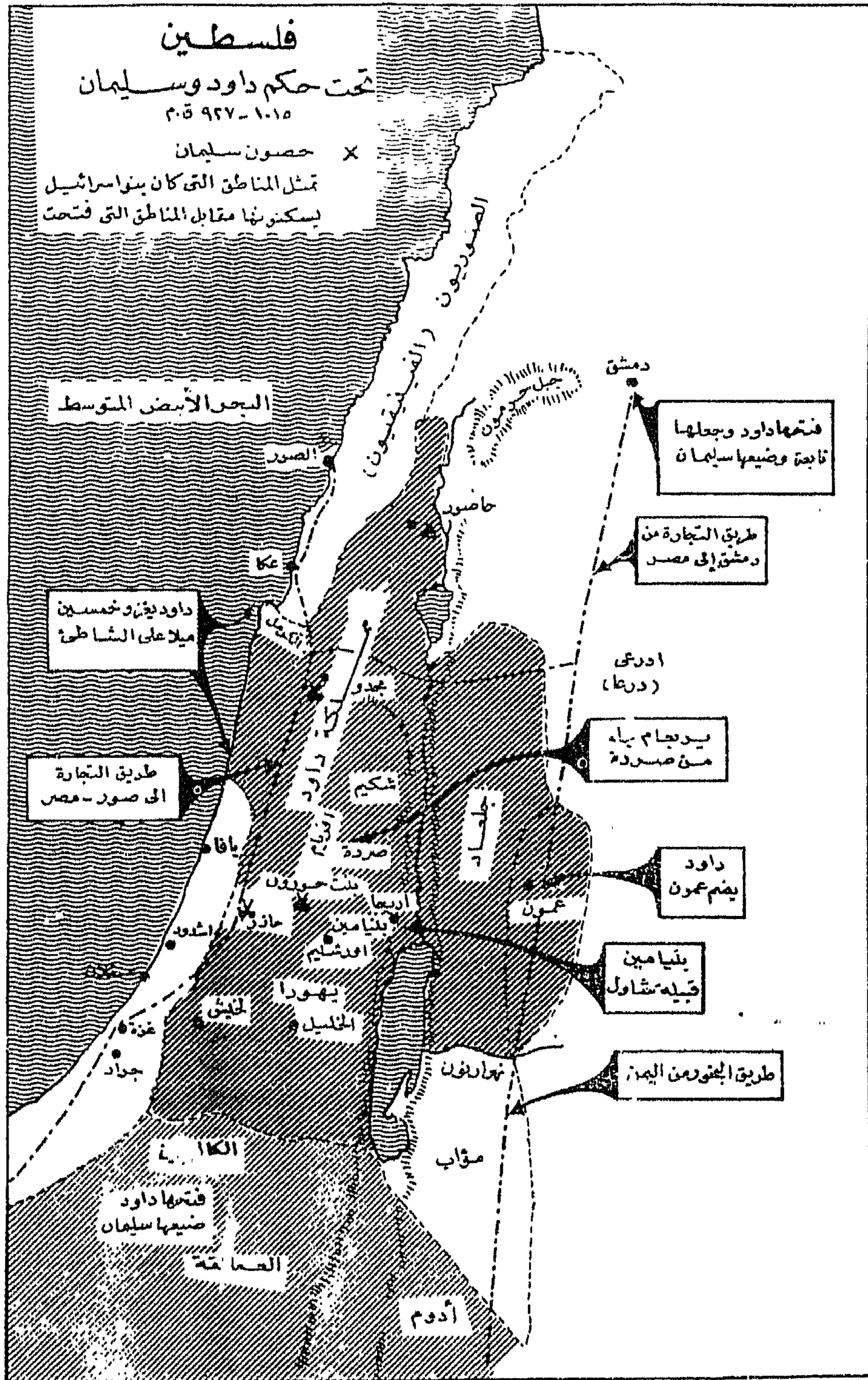
ودائما ما كان الشرق الأوسط يستمد جانبا من ثروته من التجارة العابرة من المحيط الهندى الى البحر الأبيض المتوسط، وكان هناك تجارة رابحة أخرى هي تجارة البخور المستوردة عن طريق قوافل الجمال من اليمن الى مصر وسوريا. وقد أتاحت السيطرة على آدوم الفرصة لداود ليفرض مكوس التجارة العابرة على هذه البضاعة النادرة.

وكان حكم داود بالنسبة لإسرائيل نهاية المرحلة العسكرية فى تاريخها، ولكن الكراهية المريرة التى سادت بين أفراد آل داود شوهت الأمجاد الخارجية، إذ اعتدى ابنه أمنون على عفاف أخته تamar شقيقة أخوه أبشالوم وقام أبشالوم وقتل أمنون ثم ثار بعد ذلك وحاول أن يقتل أباه^(١٣). وانتهى الأمر بقتل أبشالوم، إلا أن هذه المعاداة الداخلية أطلقت الزناد لثورة أخرى أشعلها هذه المرة شبع بن بكرى البنيامينى وهو من قبيلة شاول. وقد صرخ شبع قائلا: «ليس لنا قسم فى داود، ولا لنا نصيب فى ابن يسى. كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل. فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود الى وراء شبع بن بكرى. أما رجال يهودا فلازموا ملكهم من الأردن الى أورشليم»^(١٤). وهكذا ظهر على حين فجأة أن اتحاد إسرائيل الذى حققه داود كان اتحادا سطحيًا. وينبئنا سفر صموئيل الثانى الاصحاح الحادى والعشرون كيف كان هناك قحط تسبب عن عدم سقوط الأمطار، وكيف استعلم داود من يهوه، فأخبره بأن السبب فى ذلك يرجع الى أن شاول قتل الجعبونيين الذين حلف لهم بنو إسرائيل، وقد سبق أن ذكر أن الجعبونيين كانوا قد تحالفوا مع إسرائيل منذ

(١٢) خريطة (٦).

(١٣) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٤/١٧

(١٤) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٢٠ / ١، ٢.



خريطة (٦)

عهد يشوع ، ويخبرنا السفر أن داود سألهما ماذا أفعل لكم وبماذا أكفرا؟. فطالبوا برأس سبعة من ذرية شاول، فقدم داود سبعة من أبناء شاول وأحفاده الى الجعبونيين صلبوهم على ربوة مرتفعة خارج قريتهم^(١٥). فهل لنا أن نصدق أن إله المحبة أصر على موت هؤلاء الرجال السبعة الأبرياء؟ أم أن داود أراد أن يتخلص ممن بقى من أسرة شاول».

وحتى فى الأيام القليلة الأخيرة لداود مزقت الكراهية والغضاء الأسرة المالكة شر ممزق، حيث حاول أدونيت ابن حجيت وهو أخ لأبشالوم القيام بانقلاب فسارع داود الى المناذاة بسليمان خليفة له، وجلس سليمان على العرش يشد أزره المرتزقة الأجانب. ويلح داود، من فراش موته، على سليمان أن يقتل يوأب، وما أن مات داود (من ٩٧٠ - ٩٦٠ قبل الميلاد) حتى عمل سليمان على اغتيال أخيه الأكبر أدونيا هو وبعض منافسيه الخطيرين، وكان يوأب واحدا منهم.

وكما هى حال فى معظم الأمم تلى المرحلة العسكرية فى عهد داود طور تجارى فى فترة حكم سليمان. لقد كان سليمان يريد السلام، وقد سعى اليه عن طريق الزيجات الأجنبية، وكان أبرز زوجات سليمان إبنة أحد الفراعنة الضعاف من الأسرة الحادية والعشرين المصرية.

وكانت «صور» (لبنان الحديثة) أخلص حلفاء سليمان، تمتد جنوبا الى جبال الكرمل، وكان اسمها الاغريقى فينيقيا، إلا أن شعبها كان يطلق على نفسه اسم الصوريين ومن الأرجح أنهم كانوا من أصل يونانى مختلط، وكانوا بحارة مهرة يتاجرون مع كل حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانوا فى ذلك الحين يقيمون وينشئون مستعمرات لهم فى قبرص وسردينيا وصقلية وشمال أفريقية.

(١٥) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٢١ يقول «أنهم خوزقوا»، بينما فى النسخة المنقحة المعترف بها «أنهم شنقوا» المترجم.

وقد عرف سليمان أن أولئك الذين يريدون السلام ينبغي لهم أن يستعدوا للحرب، ففي حين اعتمد داود في المقام الأول على مشاته من الجنود المرتزقة، بنى ابنه قوة كبيرة من العجلات الحربية، كما شيد سليمان كثير من الحصون والقلاع حول الجزء الجبلي من إسرائيل، أي في حاصور ومجدو وبيت حورون وجازر^(١٦). وكانت حاميات هذه القواعد من جيش يدفع له أجره بانتظام، ويبدو أن سليمان لم يستدع للخدمة قط الحشود القبلية القديمة.

وسرعان ما ثارت دمشق واستعادت استقلالها، وأخذت الأقاليم التي كان يحكمها داود في الانكماش، وكان انكماشاً بطيئاً ولكنه كان أكيداً، وكان اهتمام سليمان بالتجارة والصناعة أشد كثيراً من اهتمامه بالحرب، وقد تناول نشاطه عملية شراء الخيول من آسيا الصغرى وبيعها في مصر. وامتد طريق رئيسي للتجارة من دمشق عبر ادرعي (درعا) إلى وادي ازهريلون فوق التلال القريبة إلى مجدو ثم ينزل من الجبال ليسير على امتداد ساحل فلسطين إلى مصر^(١٧)، كان قطاعاً طويلاً من هذه الطريق يمتد عبر الأراضي التي يسيطر عليها سليمان، زد على ذلك، أن صداقة سليمان لصور التي بها أكبر موانئ العالم التجارية، جلبت له كثيراً من الأعمال التجارية، وكرست القبائل الشمالية نفسها للتجارة أكثر فأكثر، ولكن لم تتأثر يهودا كثيراً مثل الشمال.

وفد أحكم سليمان السيطرة على أدوم وجنوبا إلى الخليج المعروف الآن باسم خليج العقبة، وكان له أسطول تجاري يجوب البحر الأحمر ويعمل عليه بحارة صوريون. وعلى مقربة من عصيون جابر^(١٨) استغل سليمان المناجم وصهر النحاس، وربما الحديد. وأصبح سليمان على درجة كبيرة من الثراء، وإن صاحب هذا الثراء ارتفاع في نفقات المعيشة وارتفاع في الأجور.

(١٦) خريطة (٦).

(١٧) خريطة (٦).

(١٨) خريطة (٢).

وكان من نتائج سيطرة سليمان على العقبة أن تمكن من فرض رسوم عالية على قوافل البخور اليمنية. وربما كان الغرض من الزيارة الشهيرة التي قامت بها ملكة سبأ هو الاحتجاج على المطالب الجائرة للمسؤولين الاسرائيليين. واذا كانت فطنة الملك في إدارة الأعمال التجارية قد جبلت له أموالا طائلة، فإن تبذيره وحبه للظهور كلفه أكثر مما يجب. وكان الهيكل أشهر المباني التي شادها، وقد بناه على طراز سراييت الخادم. كما كان هناك مبنى صغير مكعب الشكل أطلق عليه اسم قدس الأقداس. وكان الهيكل واحدا من بين عدد من المباني أقيمت في الجناح الملكي الذي كان يضم عدة قصور وترسانة للسلاح. ولكي ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من «جميع أنحاء اسرائيل»^(١٩)، أي كما كان يفعل رمسيس الثاني في مصر. وعلى الرغم من استخدام عمال السخرة فقد غرقت البلاد في الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية لملك صور.

وكان يربعم فتي يافعا من صرده (يحتمل أن تكون سرده الجديدة) الواقعة على بعد أحد عشر ميلا شمال أورشليم. ولما كان على قسط كبير من التعليم فقد عهد اليه سليمان بوظيفة ملاحظ عمال السخرة في الهيكل، وشهد الظلم الذي حاق بالفقراء والمفترض أنه اتهم بالتحريض والاثارة وصدرت الأوامر بالقبض عليه، ولكنه تمكن من الهرب الى مصر.

ويلقى العهد القديم اللوم على سليمان للتهاون في أمور الدين وينسب إليه أنه اتخذ سبعمئة زوجة معظمهن من الدول المجاورة. وقد رغب في إقامة المعابد لعبادة آلهتهن، واستجابة لرغبتهن أقام سليمان (أماكن عالية) فوق التلال المجاورة وكان التعبد على قمم المرتفعات مظهرا من مظاهر الديانة السورية الفلسطينية منذ

(١٩) سفر الملوك الأول «الاصحاح الخامس / ٢٧».

أمد بعيد. وحتى فى اسرائيل اندمجت عبادة بعل فى عبادة يهوه لدرجة أننا نجد شموئيل يقدم القرابين فى «مكان عال».

والواقع أنه لم يعد نى الإمكان تقييم معنى مصطلح «بنى اسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حراً مع شعب البلاد على جميع المستويات، «وتوضح المطالعة المدققة للعهد القديم بالذات أن وحدتهم (يعنى وحدة بنى اسرائيل) كانت وحدة جد غامضة سياسياً وعرقياً، فلم يكن دين يهوه دين منطق جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبداً الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى اسرائيل»^(٢٠)، إلا أننا إذا كنا لا نستطيع أن نعرف من هم بنو اسرائيل، ولانستطيع أن نفصلهم عن الجماعات الأخرى فكيف كانوا، والأمر كذلك، الشعب المختار الذى يختلف عن كل ما سواه؟

* * *

توفى سليمان حوالى سنة ٩٢٧ قبل الميلاد، واستطاع أن يرفع دولته الى مستوى عال من الثراء، إلا أنه لكى يحقق ذلك ظلم الشعب ظلماً فادحاً، ولذا فقد تبع وفاة ملك بنى اسرائيل إنفجار الثورة.

تواريخ تستحق الذكر

حكم داود حوالى ١٠٠٠ إلى ٩٦٧ قبل الميلاد.

حكم سليمان حوالى ٩٦٧ الى ٩٢٧ قبل الميلاد.

خاتمة

١ - حكم داود. وحكم سليمان نموذجان من تطور الشعوب البدائية من الحرية القبلية الى الحكم الملكى المطلق ومن الحياة العسكرية الى الحياة التجارية.

(٢٠) جى. باركس «النزاع بين الكنيسة والمعبود اليهودى».

٢ - تغطي هذه الحقبة تغييرات اجتماعية عميقة الجذور، تتمثل في زيادة الرفاهية وظلم الفلاحين. ومن الناحية السلالية اندمج المنحدرون من رعاية سيناء مع شعب البلاد. ومن وجهة النظر الدينية كانت عبادة يهوه هي الدين الرسمى للدولة إلا أن الناس كانوا يمارسون جميع أنواع المزج مع الديانات المحلية الأخرى.

٣ - كانت الأسرة الملكى فاسدة تماما، فأبناء داود يغتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويشور، وقد قتل سليمان كل إخوته.

إن البشرية التعسة تبنى في خيالاتها بصفة دائمة عصورا ذهبية في الماضى والمستقبل لتتخلص من آلام الحاضر. وهكذا كان حكم داود وحكم سليمان يمثلان الأيام المجيدة، إلا أن واقع الأمر، هو أن حكم داود كان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاضطرابات. وفى أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى انفجرت بعد موته مباشرة.

الفصل الخامس

التفسخ والأفول

«لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي...»

بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى...

فأنا أيضا أضحك عند بليتكم..

أشمت عند مجيء خوفكم..

لأن ارتداد الحمقى يقتلهم..

وراحة الجاهل تبيدهم..

أما المستمع لى فيسكن آمنا..

ويستريح من خوف الشر..»

(الأمثال الاصحاح الأول / ٢٤ إلى ٣٣)

بَطُلُ فرح الدفوف..

انقطع ضجيج المبتهجين..

بَطُلُ فرح العود..

دمرت قرية الخراب..

أغلق كل بيت عن الدخول..

صراخ على الخمر فى الأزقة. غَرَبُ كل فرح..

انتفى سرور الأرض..

الباقى فى المدينة خراب..

وضرب الباب ردما...

(إشعياء الاصحاح الرابع والعشرون / ٨ إلى ١٢)

الفصل الخامس

«سقط شاول وسقط داود، وسقط سليمان، ووضعت الملكية والملوك فى الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة اسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب والرشوة، حتى تحطمت آخر الأمر اسرائيل مع حطام اورشليم، ولما تنقضى خمسمائة سنة على رسامة شاول أول ملك لها، حتى دفعت اسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة، وتقليدها السلوك الوضع للأُم، واختيارها الخاطيء للحضارة بدلا من الدين، وهى بهذا كانت لا تختلف كثيرا عن أى من الولايات الصغرى التى ترنحت من أزمة الى أخرى فى عالم البحر الأبيض المتوسط القديم.. بل إن ظهور «حزقيال» و«هوشع» لم يكن ليكبح رعونة الشعب الذى «أسلم أمره لقيادة خاطئة، وفشل فى أن يدرك أن السعى وراء الثروة والصيت والسطوة والأمن الزائف الذى تجليه هذه الأمور لم يكن ليمهد السبيل التى كان ينبغى «لشعب الله» أن يسلكها.. إلا أن بنى اسرائيل كانوا شعب الله، شعبا له دعوة، وله رسالة»^(١). إن هذه العبارة، كلها من أولها لآخرها، تبدو وكأنها تلخيص موجز لتاريخ اسرائيل القديم. فقد كانت مجرد ولاية صغيرة ناشئة تترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التى قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلا فى أن تدرك أن الجرى وراء الثروة والصيت والسلطان يشتري إحساسا زائفا للأمن.

أن قصة الثورة ضد رجب عام قصة معروفة، وهى مصورة فى أروع صورة فى سفر الملوك الأول الاصحاح الثانى عشر. فعلى غرار ما حدث فى ثورة شمع بن بكري ضد داود كان الثوار يطلقون أصواتهم قائلين «كل رجل الى خيمته يا اسرائيل» بما يوحى بأن أغلب بنى اسرائيل كانوا لا يزالون من سكان الخيام.

(١) ويليام نيل، «تعليق على الكتاب المقدس».

وقد عاد يربعام من مصر واختير حاكما للمملكة الشمالية. ويشبه هذا الحادث ما يحدث في عصرنا الآن، فما أكثر ما شهدنا الزعماء الشعبين الساخطين على حكامهم يطلبون اللجوء السياسى فى مصر، ليرجعوا بعد قليل ويصبحون حكامها المطلقين.

وقد ظلت يهودا مخلصمة لآل داود الذين كانوا قبل كل شىء عشيرة فى نفس قبيلتهم. ولقد رأينا من قبل أن يهودا كانت تختلف كثيرا عن القبائل الشمالية منذ بداية التاريخ، كما كانت منطقة يهودا منطقة جبلية جرداء وظل كثير من سكانها رعاة بسطاء.

وقد كانت المملكة الشمالية قبل الغزو أكثر انتاجا وتستطيع أن تأوى عددا أكبر من السكان الكنعانيين، وهؤلاء لم يقتلهم الاسرائيليون، وبعد مضى مائتى سنة اندمج بنو اسرائيل فى الكنعانيين وصار يهوه الى درجة كبيرة يتطابق مع الإله بعل.

ولقد تأكد التباين بين اسرائيل ويهودا، بصورة أكبر، فى عهد سليمان عندما فتحت الدولة أبوابها لدولتى صور (لبنان) وسوريا الأكثر تمدينا، وأخذت شعوب القبائل العشر الشمالية وراء متزايدا فى الأعمال التجارية. وعندما قتل آخاب سنة ٨٥٠ قبل الميلاد كان الأمر الذى صدر للجيش « كل رجل الى مدينته وكل رجل الى أرضه ». فلم يعد هناك ذكر لخيام بنى اسرائيل فقد تم امتصاص الاسرائيليين الشماليين فى حياة سوريا التجارية الحضارية.

وكان على يربعام أن يواجه كثيرا من المشكلات، حيث استطاعت الدعاية الملكية طوال سبعين سنة أن تقنع كثيرا من الناس بأن اورشليم هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يعبد فيه يهوه، كما أن الصلوات فى الهيكل الملكى كانت تتضمن الاشارة الى عهود يهوه ومواثيقه الدائمة مع آل داود.

لذا أقام يربعام المعابد فى الشمال (فى بيت إيل وفى دان) كى يقصدها الحجاج وكان له ما يبرره فى ذلك العمل، فقد انقضت ثلثمائة عام منذ الغزو ولم تتبوأ أورشليم مكانتها كمدينة مقدسة إلا فى الأعوام الخمسين الأخيرة.

على أنه ينبغى لنا أن نتذكر دائما أن العهد القديم أعيدت كتابته بأيدى كهنة أورشليم عندما زالت دولة إسرائيل، ومع أنهم ضمنوه بعض مواد من الشمال - ما أطلق عليها إسم الرواية الإيلوهيمية - فإنهم كانوا أحرارا فى نبد أية مادة لاتروق لهم، وبالتالى كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين من يعتقد أن بعض المزامير استعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية. وعموما كان الموقف كله مائعا لدرجة يصعب معها التوصل الى تمييز واضح وصارم.

* * *

وكانت المملكة الشمالية غير مستقرة، حيث خلف يربعام ابنه ناداب الذى اغتيل فى نفس السنة على يد «بعشا» (٩٠٠ - ٨٧٧ ق.م) الذى نصب نفسه حاكما. وخلف «بعشا» ابنه «أيلة» (٨٧٧ - ٨٧٦ ق.م) الذى قتله زمرى بعد بضعة أشهر. وفى خلال أسبوع وقع انقلاب عسكرى آخر ترتب عليه أن إعتلى عمرى (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) وهو رئيس الجيش العرش.

وكان عمرى رجلا يتميز بمقدرة فائقة، إلا أن فترة السنين الاثنتين والسبعين التى مرت تحت نير الملكية الطاغية من عهد يربعام الى عهد عمرى كانت خليقة بأن تنزل إسرائيل، الى درجة من الوهن والضعف، حتى لقد أصبح ملك دمشق هو الحاكم صاحب النفوذ فى سوريا. وكان أساس سياسة عمرى قائما على التحالف مع صور التى كانت فى ذروة ازدهارها التجارى وكانت مستعمرتها فى قرطاجنة ستقام بعد سنوات قليلة. واذا كانت صور تعيش على التجارة فيما وراء

البحار فإنها كانت تشتري الحاصلات الزراعية من اسرائيل . وقد دعم عمرى التحالف مع صور بأن عقد قران ابنه آخاب على ايزابيل ابنة أثعيل ملك الصيدونيين كما تصالح مع يهودا . بعدئذ اشتركت صور واسرائيل ويهودا فى مقاومة دمشق . وقد مكن الصلح بين يهودا واسرائيل الدولتين من الشروع فى حملات محلية ، فأكدت يهودا سيادتها المفقودة على آدوم وأجبرت اسرائيل مؤاب على دفع الجزية ، إلا أنه سرعان ما طغى الخوف من آشور على هذا التنافس . ففي حوالى سنة ٨٧٤ قبل الميلاد غزا آشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) سوريا الشمالية ووصل الى البحر الأبيض المتوسط . وفى عام ٨٥٩ ق.م . عاد شلمناسر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) الى سوريا ، إلا أن حمات (حماة الحالية) ودمشق واسرائيل وعمون اتخذت جميعا للوقوف فى وجهه ، ووقعت سنة ٨٥٣ ق.م . معركة ممتدة فى « قرقر » على نهر العاصى انسحب الآشوريون على إثرها .

وقد ازدهرت اسرائيل وزادت ثروتها زيادة سريعة تحت حكم أخاب الذى زقام عاصمة جديدة للملكة سمى السامرة وبنى قصرا آخر فى جرزيم^(٢) . على بعد خمسة وعشرين ميلا . إلا أن التحول من الزراعة الى التجارة كان حريا أن تترتب عليه العواقب المعتادة ، فأصبح رجال الأعمال على درجة كبيرة من الثراء بينما زاد الفقراء فقرا وعاش الأغنياء فى بذخ واشتروا بفضل الأرباح الطائلة من التجارة مزارع زراعية شاسعة ، وتخلصوا من صغار المزارعين وأصبح السكان الزراعيون عمالاً أجراء . وكانت هذه الأحوال التى تناقض الحلم الاسرائيلى فى الحرية والمساواة ، داعية لقيام عدد من « الأنبياء » الذين أنكروا رذائل ذلك العصر . وكان واحدا من أوائل الأنبياء « ايليا » . ويعزو سفر الملوك الأول معارضة ايليا لآخاب وايزابيل لأن ايزابيل اتخذت البعل إلها . ويتملك المرء الفرع إذا ما قرأ قصتهما .

(٢) خريطة (٧) .

كان ايليا التشبى مواطنا من شرق الأردن، ولم يكن من السامرة ذات البذخ والثراء. وكان مخلصا تماما في عبادة يهوه مؤمنا بذبح أعدائه^(٣) ولما طارده ايزابل هرب الى سيناء، وتلك واقعة لها مغزاها، لأن سيناء كانت مهد التقاليد القبلية القديمة المتحررة، وفي هذا المقام لاقى ايليا تجربة روحانية حيث سمع صوتا منخفضا خفيفا دعاه الى القيام بواجبه.

وحوالى سنة ٨٥٠ ق.م قتل آخاب فى معركة مع ملك دمشق عند «راموت جلعاد» (رمتا الحالية)^(٤). وعلى الرغم من التهديد المتزايد بالغزو الآشورى فقد ظل هؤلاء السوريين النموذجيين يحارب بعضهم بضعا. وخلف «آخاب» ابنه يهورام الذى قتل بعد ثمانية أعوام فى انقلاب عسكري قام به ضباط من ضباط الجيش اسمه «ياهو»، وقد اشترك «اليشع» فى المؤامرة التى دبرت فى الظاهر ضد انغماس البلاط الحاكم فى الملذات وضد نفوذ صور^(٥)، ونجمت عنها مذابح جماعية رهيبة.

وكان رئيس الركابيين على علم بهذه المؤامرة^(٦)، والركابيون عشيرة من الرعاة الرحل رفضت التخلي عن خيامها والاشتغال بالزراعة أو تناول الخمر والانهماك فى الملذات، وبقيت على عهدها رعاة، لأنها آمنت بأن دين يهوه الحقيقى لا يمكن الحفاظ عليه إلا فى ظل الحياة البدوية. ولعل مما يستحق الاهتمام أن نقارن هذه العبارة بتلك التى رفض يهوه بموجبها أن يسمح لداود بأن يبنى له منزلا حيث يقول «لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى اسرائيل من مصر الى هذا اليوم، بل كنت أسيرا فى خيمة وفى مسكن»^(٧).

(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح ١٨ / ٤٠.

(٤) خريطة (٧).

(٥) سفر الملوك الثانى الاصحاح ٩، ١٠.

(٦) سفر الملوك الثانى الاصحاح العاشر / ١٥ إلى ١٧.

(٧) سفر صموئيل الثانى الاصحاح السابع / ٦.

ويمتدح سفر إرميا الاصحاح الخامس والثلاثين حياة الركابيين ويسوقهم مثلاً ليهودا، مع أنهم لم يكونوا من بنى اسرائيل، بل كانوا من القينيين الذين ربما عبدوا يهوه قبل أن يعبدوه موسى، ومع كل فإن من المثير جداً للانتباه أن الروحانية الأخيرة للديانة اليهودية لم تأت عن طريق هؤلاء الأتقياء الورعين، بل جاءت عن طريق انهيار المتحضرين والأثرياء وعن طريق النظرة الدينية الجديدة التي انبثقت عن الكارثة.. وإذا كان لنا أن ندرك معنى العهد القديم، بدلاً من القول بأن الله هو الذى كيف كل كلمة من كلماته، فإننا نستطيع أن نرى الدروس التاريخية والدينية واضحة على كل صفحة من صفحاته.

وبعد ذلك كان انحدار اسرائيل الى الدمار سريعاً، فبعد أن انتعشت تحت حكم يربعام الثانى (٧٨٣ - ٧٤٣ ق.م) وقعت سلسلة من الانقلابات العسكرية أدت إلى الفوضى، وعلى الرغم من ذلك فإن اسرائيل ودمشق هاجمتا يهودا التى استتجدت بآشور. وفى سنة ٧٣٤ ق.م. غزا «تجلات بلاسر» سوريا كلها حتى سهل يزرعئيل وبعث بسكان الجليل الأعلى إلى المنفى وجعل ملك يهودا تابعاً له كما ضم مملكة دمشق إلى آشور.

وحوالى سنة ٧٢٤ ق.م قام نبلمناسر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) بغزو فلسطين واستولى على السامرة. وهكذا بعد مائتا سنة زالت المملكة الشمالية من الوجود ونفى سكانها فأرسل بعضهم إلى شمال العراق وأبعد البعض الآخر إلى بلاد الفرس حيث ذابوا فى السكان المحليين، وأحضر محلهم خليط من السكان المستوردين. وكانت الجماعات الوطنية المتجانسة عرضة لأن تثور، لذا كانت سياسة الأشوريين تقضى بأن «يخلط» جميع سكان امبراطوريتهم بحيث لا تكون طوائف متجانسة.

وقد وقع فى هذ السنوات تطور جدى ذو مغزى عظيم، ألا وهو ظهور الأنبياء ولم يكن هؤلاء الأنبياء من المنجمين الذين يرحمون بالغيب. ولعلنا نطلق عليهم اسم «المصلحين»، فقد كانوا يدعون للرجوع الى حظيرة الله فى الوقت الذى بلغت فيه اسرائيل منتهى الغنى والفساد والتدهور، ونجد فيهم لأول مرة، على الأغلب، موضوعات أخلاقية أصيلة. وتقدم الكتب التاريخية، مثل صموئيل والملوك وأخبار الأيام، صورة طبيعية للعنف واراقة الدماء والكراهية والبغضاء مما كان شائعا فى كافة الدول الصغرى فى الشرق الأوسط قبل مجىء المسيح بألف سنة. وكان ظهور الأنبياء فى ذروة فترة التفسخ مشجعا للغاية حيث كان تحت سطح القسوة والقتل يوجد التقدم الروحى الهادى يمضى قدما. وما كان الأنبياء بقادرين على أن يحولوا دون تفتت المجتمع الاسرائيلى، الا أن كلماتهم ما فتئت تتردد على الأسماع بعد وقوع الكارثة مما أدى الى التقدم فى التفكير الروحانى الذى غير وجه العالم.

أرجعوا إلى الله بـتونه

وتواصوا بالعدل والرحمة

ثقوا فى الله..

وهل قال افرايم نعم، ولكننى أصبحت غنيا

وجعلت نفسى ثريا؟

لكن يوشع لم يدع الى الرجوع الى الله وحسب، بل أنه وعد أيضا. بأن الله سوف يغفر ويصفح:

سوف أغفر لهم عدم أخلاصهم

ولسوف أحبهم من كل قلبى

بعد أن زال عنهم غضبى^(٨)

* * *

ومنذ وفاة سليمان إقتصر تعقيبنا على القبائل الشمالية العشر، حيث كان الموقف فى يهودا أبسط من ذلك لأن، أولا، أرضها كانت أفقر، ولأن كثيرا من رجالها ظل يعمل بالرعى، أى كالعمل الأصلي لعبدة يهوه، وثانيا، لم يكن هناك طريق للتجارة الدولية عبر يهودا بحيث يجلب اليها التجار الأغنياء والأفكار الأجنبية، وثالثا، كان هبة داود واحترام الناس له الذى بقى حيا فى الصدور سببا فى توفير ملكية مستقرة:

وفى الحقيقة جلب حكم داود وسليمان المال إلى أورشليم وكان سببا فى ايجاد «مستوى معيشة مرتفع»، إلا أنه عندما صارت أورشليم عاصمة لمملكة يهودا الصغيرة تبدل الموقف الى ما صار عليه، واحتفظت يهودا بقبضتها على جزء من «آدوم»، وهو إقليم فقير ليست له تأثيرات إفسادية. وكان هناك فترات من التراخى الدينى أعقبتها فترات من الإحياء على غرار ما حدث فى عهد «حزقيا». وشيئا فشيئا دب الفساد فى يهودا، الا أن تلك العوامل أتاح لها أن تبقى نحو مائة وخمسة وثلاثين عاما بعد زوال المملكة الشمالية. وكان «آحاز» ملك يهودا (٧٣٥ - ٧١٥ ق.م) قد أصبح، كما رأينا، تابعا للآشوريين وكان مجبرا على تقديم ولائه إلى «تجلات بالأسر».

ويصف «إشعيا» الفوضى فى ذلك الوقت مشيرا الى يهودا فيقول:

وامتلأت أرضهم ذهبا وفضة.

ولا نهاية لكنوزهم،

(٨) جى. بى. فيليبس «أربعة أنبياء».

وامتلأت أرضهم خيلا

ولا نهاية لمركباتهم.

وامتلأت أرضهم أرثانا.

ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه وكل رجل جاره

يتمرد الصبي على الشيخ

والدنيء على الشريف

شعبي ظالموه أولاده

ونساء يتسلطن عليه^(٩)

ولعل مما يسترعى الانتباه أننا نلاحظ أن إشعيا، يستشهد بداليتين على الانحلال الاجتماعي هما: ثورة الشباب ومشاركة النسوة في الحكم. وفي سنة ٧١٥ ق.م أصبح حزقيا ملكا على يهودا وبدأت بارقة أمل في التخلص من الخضوع لآشور، وكان الأنبياء قد أرجعوا سقوط إسرائيل الى هجرها يهو، وقد يؤدي إصلاح ديني إلى انقاذ يهودا. وكانت بابل قد ثارت ضد آشور، وكان سرجون الثاني في حرب مع ميداس ملك فريجيا^(١٠). وكانت الحروب الأهلية قد مزقت مصرا إلا أن الأسرة الخامسة والعشرين قامت سنة ٧١٦ قبل الميلاد^(١١)، وكان سكان يهودا يؤملون في التلاعب بالسياسة بحيث يضعون مصر وأشور في مواجهة بعضهما.

(٩) سفر إشعيا الاصحاحين الثاني والثالث. ترجمات مختلفة.

(١٠) خريطة (٨).

(١١) جون برايت، «تاريخ إسرائيل».

وبتشجيع من مصر ثارت صور ويهودا وجزء من فلسطين على آشور عام ٧٠١ قبل الميلاد. وفى عام ٧٠١ ق.م جاء سنحاريب وحطم صور التى لم تسترجع بعد ذلك مكانتها، ثم تقدم الى سهل فلسطين محطما فى طريقه عددا من مدن يهودا، وبناء على نصيحة إشعيا طلب حزقيا الصلح فوافق سنحاريب، إلا أنه زاد الجزية. وضم عددا من مدن يهودا الى فلسطين^(١٢).

وبعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاما، أى حوالى سنة ٦٨٨ ق.م عاد سنحاريب الى يهودا. ومن الأرجح أن يكون المشهد الشهير فى سفر الملوك الثانى الأصحاح الثامن عشر / ١٧ - ٣٥ صورة لهذه المناسبة، ولكن خرجت ملائكة يهوه اليه، وضربوا ١٥٨ ألفا فى معسكر الآشوريين^(١٣). ويذكر هيرودوت ذلك الحادث فيقول، أن طاعون الفيران إجتاح الآشوريين، وسرعان ما أصيب حزقيا هو الآخر بالدمامل ويحتمل أن يكون وباء الطاعون الدملى قد تفشى مرة أخرى.

* * *

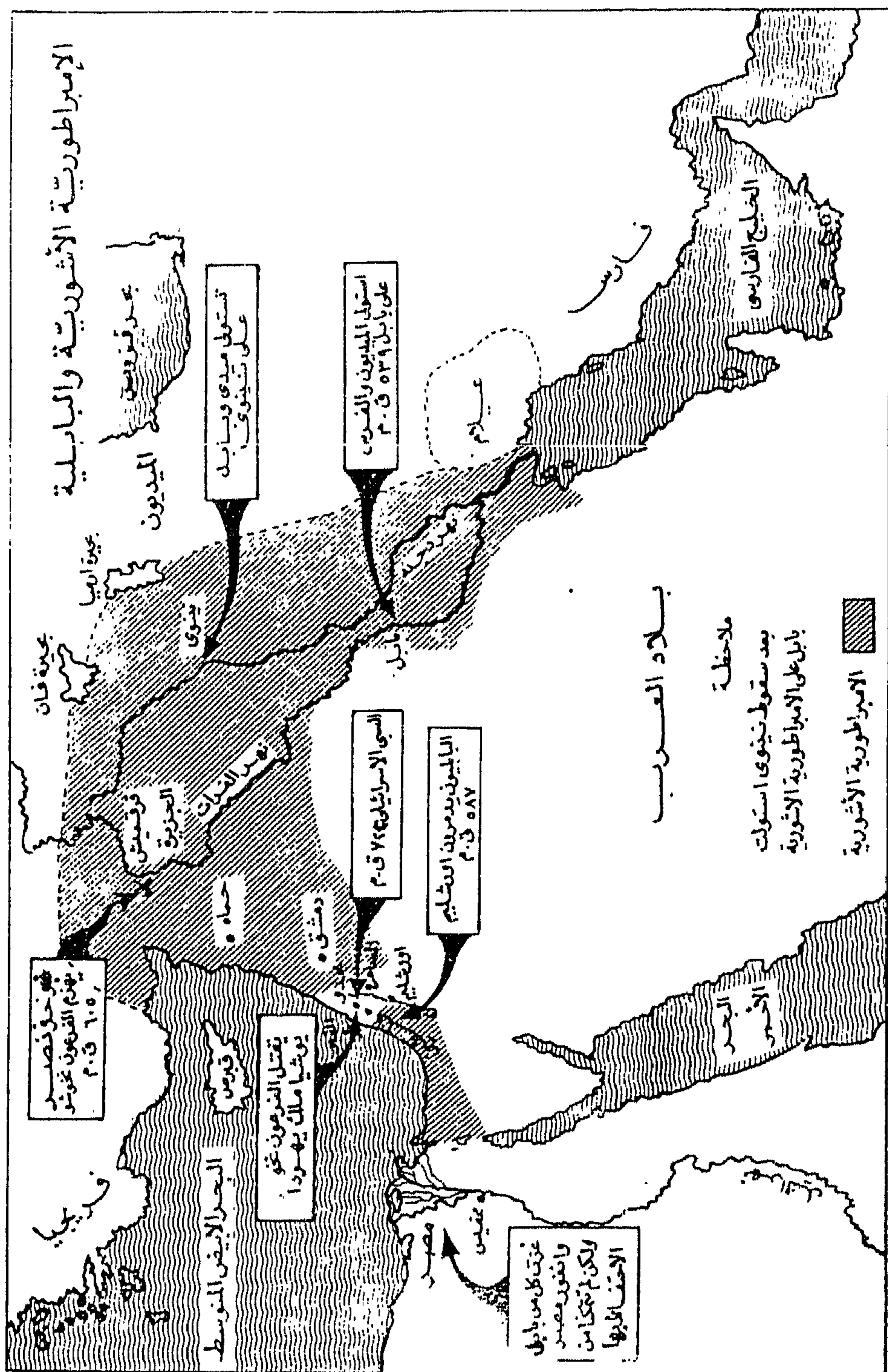
وينبغى لنا ونحن فى هذا المقام أن ندخل ملاحظة موجزة عن الأنبياء المعاصرين ونخص بالذكر إشعيا وميخا، فقد تلقيا شعيا تجربة روحانية^(١٤)؛ ولو أنه تلقاها فى عبارة شعرية معاصرة. والحق أنه تصور النداء مرسلا من يهوه، إلا أن نداءات الزب الروحانية لاتعتمد، كما لاحظنا مسبقا، على دقة مفهومنا العقلى.

كانت يهودا تترسم خطى إسرائيل، فالأغنياء يظلمون الفقراء، والقضاة يقبلون الرشوة، وقد تبددت الديمقراطية الحرة النابعة من تقاليد الصحراء القبلية. زد على ذلك، أن يهودا كانت تعاني من وهم معين لم تتأثر به إسرائيل، ذلك لأن

(١٢) سفر الملوك الثانى الأصحاح الثامن عشر / ١٣ - ١٦.

(١٣) جون برايت، (تاريخ إسرائيل).

(١٤) سفر إشعيا، الأصحاح السادس.



خريطة (٨)

الدعاية السياسية الملكية كانت قد أشاعت فكرتين: أولاًهما، أن أورشليم هي مقر يهو، ومن ثم فهي لن تقهر، وثانيهما، أن بيت داود سوف يحكم الى الأبد.

ولم تكن هناك مواقف مرتبطة في التفكير الشعبى بهذين الوعدين حيث شعر الناس بالثقة فى أن يهو سوف يحمى أورشليم بغض النظر عن فجور العامة. وفى نفس الوقت، صارت طقوس المعبد الدينية مطولة أكثر مما كانت، وأصبحت ملابس الكهنة الرسمية أكثر بهاء، وأضحت القرايين أكثر سخاء دون أن يترتب على كل ذلك أى إصلاح، اخلاقى واستنكر ميخا هذا الموقف استنكاراً بالغاً فى الاصحاح السادس: إذ يقول:

بم أتقدم إلى يهو

وأنضى للإله العلى؟

هل أتقدم بمحركات لعجول أبناء سنة؟

هل يسر الرب بألوف الكباش؟

بربوات أنهار زيت

هل أعطى بكرى عن معصيتى

ثمرة جسدى عن خطيئة نفى؟

ولكن يهو يجيب:

قد أخبرك أيها الانسان ما هو صالح

وماذا يطلبه منك الرب .

إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة

وتسلك متواضعاً مع إلهك.

وقد ابتكر إشعياء، وكان قريب الصلة بالملك، فكرتين لايزال أثرهما ملموسا فى وقتنا هذا. فقد أمن بالعقيدة المعاصرة وبأن يهوہ إتخذ مقره فى أورشليم، إلا أن السلوك الدنيوى للعامة وتهديد الآشوريين السياسى، أقنعه بأن لا مناص من وقوع الكارثة، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الاعتقادين المتضادين تناقضا ظاهرا وكان الحل الذى إرتآه أولا. أن الكارثة سوف تنزل وأن يهوہ نفسه هو الذى سينزلها مستخدما آشور* لمعاقبة يهوذا غير المؤمنة، وثانيا، أن أورشليم، ستبقى مقر يهوہ، ولسوف تبقى بقية صالحة، ويقوم وريث من آل داود ليقيم العدل ويحقق النصر، وهكذا نرى بذور عقيدتين إثنيتين هما: القدسية الدائمة لأورشليم (أو القدس)، ومجىء المسيح المخلص.

* * *

وتنكر منسى (٦٨٧ - ٦٤٢ ق.م) بن حزقيا لسياسة أبيه فأصبح تابعا ذليلا لأشور، إلا أن آشور نفسها كانت قد امتدت أكثر من قدرتها، فجددت بابل ومصر الثورة على الآشوريين، وضغطت الشعوب الهندية الآرية المهاجرة، فى الشمال واستقر الميديون بالفعل جنوب بحر قزوين.

ونحاض «أشور بنى بال» آخر الملوك الآشوريين العظماء حربا ضارية حتى لقد بدت آشور منتصرة عندما توفى عام ٦٣٣ قبل الميلاد، وبعد انقضاء عشرين سنة على وفاته، أى عام ٦١٢ قبل الميلاد تمكن الحلفاء الميديون والبابليون من الاستيلاء على «نينوى»، وكان فى ذلك القضاء على آشور.

* * *

(*) جاء فى سفر الملوك الثانى الاصحاح العشرون / ١٦ بأن بابل هى التى ستكون سوط العذاب (المترجم).

وفي عهد الملك «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) استتمعت يهودا بأخر فترة طيبة، حيث حقق لها انهيار إستقلالها دونما جهد بذلته من جهتها، وفي عام ٦٢٢ ق.م. عثر في المعبد على كتاب يعتقد بعض الباحثين أنه سفر الشريعة الحالي (التثنية)، ويبدو أن لشعور الذي أحدثه هذا الكشف يدل ضمنا على أن القانون الموسوى كان ملقى في زوايا النسيان.

والمفترض أن يوشيا، لكي يجتنب البدع الدينية المحلية، منع العبادة في أى من المعابد المنتشرة في البلاد، بل أنه قصر إعترافه على كهنة أورشليم، دون غيرهم، أما ما عداهم من الكهنة في أنحاء البلاد فقد طردوا. وهكذا كان قصر العبادة على أورشليم سببا في حرمان أهالي المناطق الخلفية من التعبد، حيث أن الوقت لم يكن يسمح لهم بزيارة العاصمة لممارسة نشاطهم الدينى.

وفي عام ٦٠٩ ق.م اكتسح نخو فرعون مصر (٦٠٩ - ٥٩٣ ق.م) فلسطين وسوريا ووصل إلى قرقميش^(١٥) على نهر الفرات. ولأسباب لانعلمها حاول يوشيا إيقافه عند مجدو، ولكنه قتل، وأبيد جيشه عن آخره، فأصبح ابنه يهوياقيم ملكا تابعا لمصر. وانتهى استقلال يهودا بعد عشرين عام، ونبذت اصلاحات يوشيا الدينية لأنها لم تحل دون وقوع هذه الكارثة.

وفي سنة ٦٠٥ قبل الميلاد انقض «نبوخذ ناصر» ملك بابل على الجيش المصرى في قرقميش فأباده، وبعد مضى سنة واحدة، أى عام ٦٠٤ ق.م، وصل نبوخذ ناصر إلى فلسطين فحول يهوياقيم ولاءه وأصبح تابعا لبابل. وفي عام ٦٠١ ق.م. قام يهوياقيم بثورة ولكنه توفى عام ٥٩٨ ق.م. وفي عام ٥٩٧ ق.م. وصل البابليون إلى أورشليم فاستسلمت لهم، ونفى الملك يهوياكين بن يهوياقيم وكبار المواطنين وجانب من السكان إلى بابل، وعين الغزاة صدقيا، عم الملك، ملكا.

(١٥) خريطة (٨).

إلا أن الفتنة ما فتئت تمزق يهودا التي ثارت مرة أخرى سنة ٥٨٩ قبل الميلاد، على الرغم من احتجاجات إرميا. وكان سكانها لا يزالون على اعتقادهم بأن أورشليم هي مقر يهوه. وفي عام ٥٨٨ ق.م. رجع البابليون وحاصروا أورشليم ومن ثم قاموا بتدمير منظم لكل يهودا مدمرين كل مدينة.

وفي عام ٥٨٧ ق.م. سقطت أورشليم، وسملت عينا صدقيا، وأعدم إبناه، وسويت المدينة بالأرض. ونفى عدد آخر من المواطنين الى بابل، وهرب كثير من سكان يهودا الى مصر، من بينهم «ارميا»، كما فر البعض الى سوريا أو عمون أو موآب، وتركت يهودا محرومة من سكانها.

تواريخ تستحق الذكر

وفاة سليمان ٩٢٧ ق.م.

زوال مملكة اسرائيل الشمالية ٧٢٤ ق.م.

زوال يهودا ٥٨٧ ق.م.

خاتمة

١ - أولئك الذين يعتقدون أن بنى اسرائيل كانوا شعبا فريدا يواجهون مشكلة تعريف بنى اسرائيل، وذلك لأنهم امتزجوا مع شعوب الشرق الأدنى الأخرى خلال وجودهم الذى امتد خمسمائة سنة.

٢ - كان يهوه إله الصحراء، وكانت عبادته بالضرورة عبادة مجردة بسيطة، وذلك أيام الرعاة الرحل. وقد عبده بنو اسرائيل الأوائل ولو أنهم اعترفوا بوجود آلهة أخرى غيره.

٣ - حتى فى عهد المادية، أخذ الوعاظ الناهضون يعظون تدريجا بأنه ينبغى لله أن يحكم العالم، وأنه يريد الأخلاقيات ولا يريد الذبائح.

٤ - إنتهت المادية بمأساة، انبثق منها مفهوم أكثر روحانية ووضوحا عن الله.

الفصل السادس

العزلة أو الدولية

« لم ينفصل شعب اسرائيل .. من شعوب الأراضى .. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيتهم . واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى » .. فلما سمعت بهذا الأمر مزلت ثيابى ورأيتى وفتفت شعر رأسى وذقنى .. وبسطت يدي الى يهوه ربى ... »

سفر عزرا الاصحاح التاسع / أجزاء من الايات من ١ - ٦

« فغم ذلك يونان غما شديدا فاعتاظ . وصلى الى يهوه وقال « فالآن يارب خذ نفسى منى » فقال يهوه « هل اغتظت بالصواب ؟ . أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة » .

سفر يونان الاصحاح الرابع

فى كنعان، بطبيعة الحال، ونتيجة للنضال من أجل يهوه ضد الآلهة الآخرين، تركزت مكانة يهوه باعتباره ربا أكثر فأكثر، حول علاقته بإسرائيل . مع أن عاموس يوضح الأمر بصورة مختلفة، إلا أن هذا كان سببا فى التوتر الشديد بين ما قد تسميه الاصطفائية والخلابية *

توماس .. سى . فريتسن ، « دين اسرائيل القديمة »

* الاصطفائية نظرية لاهوتية تقول بأن الخلاص مقصور على النخبة فقط، بينما الخلابية تقول بأن الجميع ينعمون آخر الأمر بالخلاص (الترجم).

الفصل السادس

بدى الغزو البابلي فى يهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض، وذبح سكانها جميعا، ولم يكن ذلك من قبيل اضطهاد اليهود، بل كانت تلك هى الطريقة التى يعامل بها الآشوريين والبابليون الولايات الثائرة عليهم، وتركت يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا الى السبى فى بابل، وتفرقت البقية فى عمون وموآب وسوريا، وفى مصر بصفة خاصة، فشكلت بذلك بداية الشتات.

وما أن وصل المسييون الى بابل حتى لقوا معاملة طيبة، فكان لهم مطلق الحرية فى أن يفلحوا الأرض وسمح لهم بمزاولة التجارة وممارسة شعائر دينهم. وكانت الحياة فى بابل أرحب منها فى الجبال الصخرية فى يهودا الضيقة. وبعد اجتياز الحنين الى الوطن ألقى المسييون بأنفسهم فى خضم الحياة الجديدة، حياة الفرصة السانحة فصار بعضهم واسع الثراء. وكان كثير من سكان يهودا قد فروا الى مصر حيث استقر أغلبهم بالعاصمة ممفيس وتأسست مستعمرة عسكرية يهودية حوالى سنة ٥٨٨ قبل الميلاد فى منطقة فيلة (ألفنتين) عند الشلال الأول على نهر النيل*.

وقد تخطمت المعتقدات اليهودية القديمة، اذ لم يدافع يهوه عن صهيون، ولم يحكم آل داود، الى الأبد، ووجد المنفيون فى مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل فأدركوا بعد ما عاشوا فى هاتين الامبراطوريتين العظيمتين كم كانت يهودا صغيرة. فهل يمكن إذن أن تكون دولة صغيرة كدولتهم محل اختيار الله العظيم.

(*) هناك شكوك كثيرة تحيط بحقيقة الانتماء اليهودى لهذه الحماية التى إستقرت فى ألفنتين وللزميل الدكتور محمد حسن الهوارى أستاذ الديانة اليهودية بأداب عين شمس دراسة علمية تنفى هذا الادعاء نشرها على الانترنت (الم.ج.م).

ويخط إشعيا الذى يظهر أنه عاش فى هذا الوقت، سطرًا جديدًا يصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون^(١). وهكذا من أعماق الكارثة نرى بداية الديانة اليهودية الروحانية. واذ كان اليهود قد حرموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتفون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هى العلامة المميزة لليهودى^(٢). وقد تميز المجتمع اليهودى فى بابل بالنشاط الفكرى العظيم، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمس (الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم) وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

وبعد وفاة «نبوخذ» ناصر قامت الانشقاقات الطائفية الداخلية فى بابل وتبادلت الأيدي العرش ثلاث مرات فى بحر سبع سنوات. وانتهى الأمر سنة ٥٣٩ قبل الميلاد باستيلاء قورش الفارسى على بابل وامبراطوريتها من أقصاها إلى أدناها. وكان قورش واحداً من حكام العصر القديم المستنيرين^(٣)، فأعلن التسامخ الدينى العام، وأعاد الاعتبار لآلهة بابل. وفى سنة ٥٣٨ صرح بترميم الهيكل فى أورشليم، فكانت سياسته على النقيض من وحشية الآشوريين والبابليين. واكتشف اليهود فى المنفى خبرة روحانية فى الفارسيين الذين كانوا غير مشركين وكانوا لا يعبدون الأصنام، بل كانوا يعتقدون أن الدنيا منقسمة عن طريق النضال المستمر بين القوى الروحية للخير والشر. كما استتبط اليهود من الفرس فلسفتهم فى البعث والحساب^(٤).

وكانت الجماعة الأولى التى عادت إلى أورشليم جماعة صغيرة «وبقى كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم»^(٥). ويقدر برايت سكان يهودا

(١) سفر إشعيا الأصحاح ١٢/٤٠ . ٦/٤٤

(٢) من هذه النقطة وصاعدا نستطيع أن نتحدث عن اليهود إختصارا لليهودا.

(٣) جون رايت، تاريخ إسرائيل.

(٤) الحاخام ريزين: رد فعل الأميين للمثل العليا اليهودية.

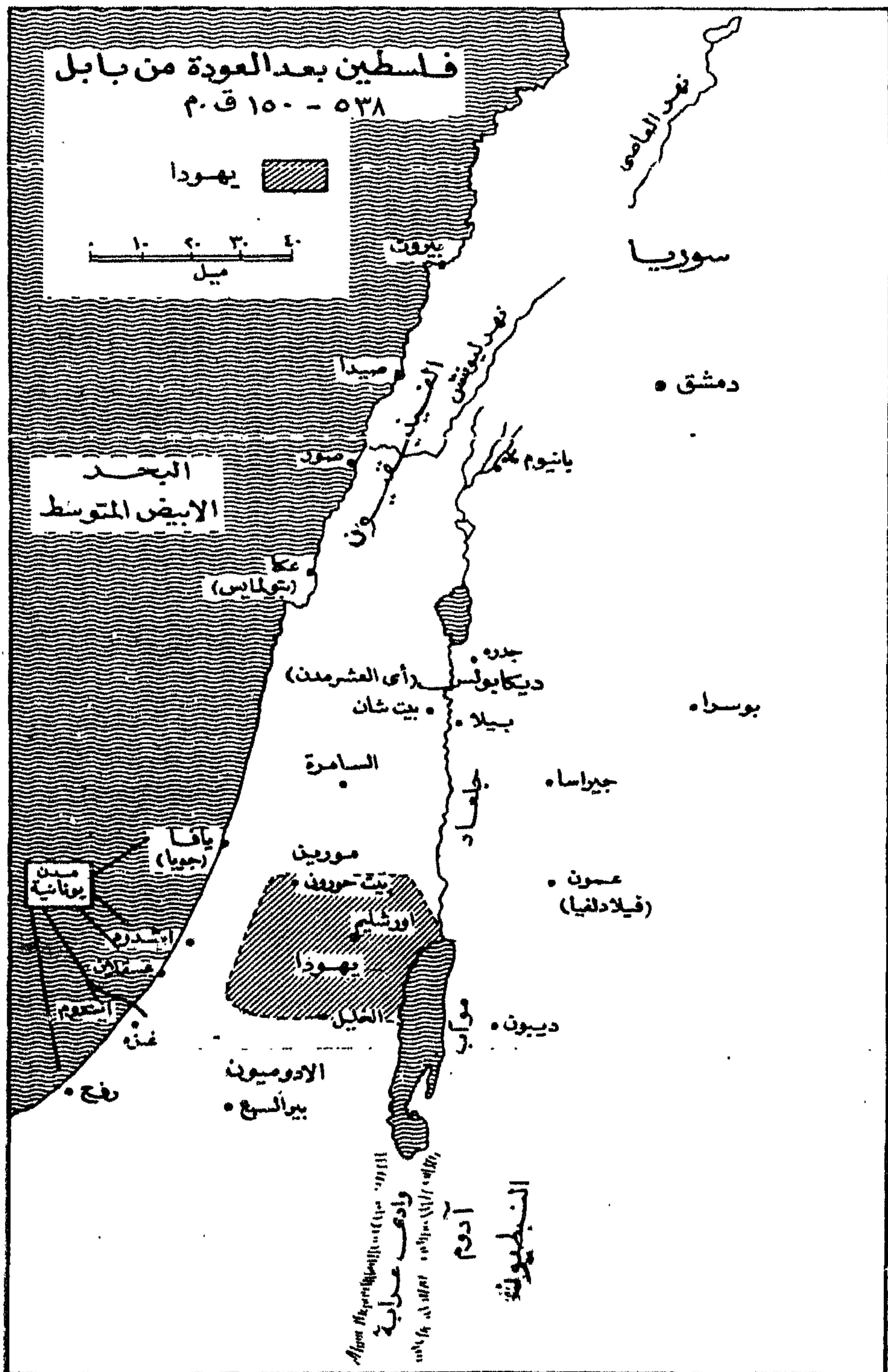
(٥) فليفيوس يوسيفوس: آثار اليهود، الكتاب الحادى عشر.

فى ذلك الوقت بعشرين ألف نسمة، إلا أن هذا العدد كان يضم جانباً من جماعات الأميين. ولم تبدأ عمارة الهيكل إلا فى عام ٥١٦ قبل الميلاد، أى بعد انقضاء عشرين عاماً على عودة أول جماعة يهودية إلى أورشليم. ولا نعلم شيئاً بعد ذلك عن الأحداث فى يهودا طوال سبعين سنة. وكانت سوريا وفلسطين تشكلان معاً مقاطعة واحدة من المقاطعات العشرين فى الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف. وكان يحكم مجتمع القدس الصغير الكاهن الأعظم.

وعلى العكس من ذلك، انتعشت الطائفة فى بابل وفارس انتعاشاً عظيماً وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء، بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط، وفى مصر أخذ عدد اليهود فى الازدياد، كما كانت هناك طوائف يهودية فى آسيا الصغرى. وربما بلغ سكان يهودا عام ٥٤٥ قبل الميلاد خمسين ألفاً، وقد أعيد بناء ثلاث أو أربع مدن فى الريف، إلا أن عدد السكان فى أورشليم كان قليلاً.

* * *

كان نحميا ساقى الملك لارتحشتا الأول (٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م). ويروى الإصحاح الثانى من سفر نحميا بياناً حياً مشرقاً عن كيفية حصوله على الإذن ببناء أسوار أورشليم حيث سافر يحمل خطابات من الملك ومعه حراسة عسكرية إلى أورشليم حوالى سنة ٤٤٠ قبل الميلاد. وحيث أنه كان قائداً بطبيعته فقد جمع أهالى المنطقة وأصلح أسوار المدينة. وكانت يهودا مقسمة بين السامرة وإيدوميا وفلسطين التى رفض حكامها أن يفرطوا فى أى جزء من أرضهم. ومع هذا، يبدو أن «أرض الميعاد» نظمت من جديد فى منطقة منفصلة وأن نحميا عين حاكماً عليها، ولم يسجل تاريخ وفاته، إلا أن المعلوم هو أن حاكم «أرض الميعاد» سنة ٤١١ قبل الميلاد كان موظفاً فارسياً.



خريطة (٩)

وكان «عزرا» (وليس نحميا) هو الذى غير تاريخ يهودا، ويحتمل أنه وصل إلى أورشليم حوالى عام ٣٩٧ قبل الميلاد، ومعه تفويض ملكى باصلاح ديانة يهوه. وكان خبيرا فى القانون وكانت أسفار موسى الخمسة التى استعان بها مختلفة الى حد ما عن الأسفار الحالية، وإن كانت من الأرجح تشبهها بدرجة كبيرة.

وكان التأكيد الأساسى فى اصلاحات عزرا منع الزواج بين اليهود وبقية البشر، أى أنه كان على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت وصاعدا، أن يكون فى معزل عن بنى البشر. ويهمل باخلاص كثير من المعلقين على التوراة لاصلاحات عزرا، إلا أن القس ويليام نيل يذهب إلى حد المناداة به «متعصبا مقدسا»، بل أن الحاخام ريزين يرميه بضيق الأفق، ومع هذا، فإن حركة الاصلاح التى بدأها لاتزال ملموسة الأثر حتى يومنا هذا.

وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، فقد كان لبنى اسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمائة عام. والظاهر أن عزرا كان رجعيا، اذا ما استخدمنا اصلاحا «حديثا»، وأراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء احتقار الغزاة القديم «لأهل البلاد».

وتلقى اصلاحات عزرا، اليوم، معارضة من رأى العام لأن فكرة وجود جنس سام يتلوث دمه إذا ما اختلط مع دم الآخرين لم تعد فكرة محبة بعد. ولم يكن هتلر مبتكرا فى مفهومه عن «الجنس السائد»، فقد قيل أن ارسططاليس أخبر الاسكندر الشاب بأن العلاقة بين الاغريق والأجناس الأخرى أشبه بالعلاقة بين الانسان والحيوان، وهكذا نرى أن التكبر المتعصب لطائفة مفردة تظن فى نفسها أنها أسمى من بقية البشر أمر لم ينته قبول غرور بنى الانسان له أبدا.

ويظهر عزرا نفس التشوش بين الجنس والدين، وكأنما هو بذلك يحيط اليهودية بضباب كثيف. وكان يتكلم بغير دقة عندما يصف اليهود كجنس مقدس، ذلك لأنهم كانوا من الناحية السلالية قد أصبحوا خليطا من شعوب شتى فى

الشرق الأدنى، بينما يقع الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لا يعبدونه.

ولقد وضعت اصلاحات عزرا الخاصة بالزواج موضع التنفيذ الصارم، فطلقت الزوجات الأجنبية، وأنكر الاعتراف بشرعية أولادهن. أما ما كان من أمر ضحايا هذه «البيوت المحطمة» فذلك ما لم يقدم عنه أى إيضاح. وبذا قضى عزرا بأن الانعزالية التى نتج عنها بالتدريج حاجزا متزايدا من المبادئ والممنوعات إنما كانت تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر.

إلا أنه ينبغي لنا ألا ننسى أن الديانة اليهودية لم تكن مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكون تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت اتجاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن الرأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

وأحيانا ما يستشهد مفسرو العهد القديم بسفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر: ١٨، «بل تحب جارك كنفسك» للتدليل على الفضيلة الفريدة لبنى إسرائيل الأوائل باعتبارهم «شعب الله». وتدل كلمة جارك فى نظر القبائل العربية على «رجل القبيلة» ويجرى النص الكامل للآية ١٨ من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اللاويين على هذا النحو «لاتنتقم ولا تحتد على أبناء شعبك بك تحب جارك كنفسك»^(٦). وهكذا يظهر النص وكأنه لا يهدف إلى فعل ما فيه خير الانسانية، بل يهدف إلى تأمين التضامن القبلى فى مواجهة العالم.

وإذا ما أضحت الديانة اليهودية أكثر روحانية ظهر معنى الجار مسببا للشك كما يتضح من السؤال الموجه من المسيح الى الرب^(٧). وإذ يسوق المسيح فى إجابته

(٦) النص المعدل.

(*) جاء فى طبعة الكناس المقدس طباعة القاهرة / ١٩٦٦ كلمة «قريبك» بدلا من «جارك».

(٧) سفر لوقا الاصحاح العاشر / ٢٩.

أمثلة السامري الصالح، فإنه بذلك يفسر كلمة الجار وكأنها تعنى بنى الانسان جميعا ولكنه كان من نفس هؤلاء السامريين من طالبهم عزرا بالانعزال التام.

وتصر الديانة اليهودية والديانة المسيحية والديانة الاسلامية، سواء بسواء، على الأمر بالشفقة والحنو والحب والاحسان والتواضع، ويمارس المؤمنون بهذه الأديان الثلاثة تلك الفضائل فيما بين طوائفهم، إلا أنهم ظلوا قرابة ألفى سنة يفسرون كلمة «الجيران» على أساس زملائهم فى عقيدتهم فقط، فاليهود يعتبرون المسيحيين وحوشا كاسرة بينما يصور المسيحيون المسلمين فى صورة المتعصبين المتزمتين. وكم كان العالم سيكون مختلفا لو أنهم فسروا كلمة الجيران بحيث تعنى كافة بنى الانسان! وهكذا تبدو أمثلة السامري الصالح وكأنها أهم أمثلة فى الانجيل وفى نفس الوقت أقلها مراعاة..

ولم تسلم انعزالية عزرا من المعارضة حتى فى يهودا نفسها. ويبدو سفر راعوث وكأنه نشرة مضادة للتمييز العنصرى كتبت حوالى ذلك الوقت، وخاصة أن التى قامت بدور البطلة فيها جدة داود المؤابية. بل ان سفر يونان أشد إثارة للدهشة. ويبدو أن قلة ادراكنا لهذه الأمثلة الممتعة، هى دليل على التمسك العقيم بحرفية عصرنا العلمى، لأن انتباهنا يتركز حول ما إذا كان الحوت يستطيع أن يبلع الانسان أو أنه لا يستطيع أن يبتلعه، ويونس والذى إسمه يعنى «حمامة»، وهى رمز تقليدى لاسرائيل^(٨) قد أمر بالوعظ فى نينوى الشريرة. فهو بالتالى يمثل اسرائيل، المعنية بالعمل على تعريف العالم بالله. إلا أنه لا يود القيام بهذا العمل، ويحاول الهرب، فيلقى به فى اليم ويبتلعه الحوت - الأسر البابلى - وإذ يعود الى وطنه بمعجزة، يتوجه إلى نينوى التى تندم وتتوب من فورها. والمغزى الأدبى واضح - فلو أن اسرائيل كانت مطيعة، إذن لاستطاع العالم بأسره أن يغير دينه - إلا أن الانعزاليين

(٨) القس ويليام نيبيل، تعليق على الكتاب المقدس.

فى أورشللم كانوا يتجهون وجهة مضادة ففصلوا أنفسهم عن العالم الخارجى ..
وهذان الاتجاهان كانا سيستمران ويدومان بالمثل فى اليهودية وهما: الولع بالهداية
والاندفاع الى الإنعزالية.

وقد الى تحول نينوى أكثر الصور التى تكشف النفس البشرية، حيث غضب
يونس عندما أفلحت عظامه وأتت ثمارها، لأن الشعور بالشعب المختار الذى يسمو
على سائر البشر، كان حريا بأن يشيع حالة من الكبرياء أكثر مما تشيعه رؤية العالم
كله، وقد تغير دينه فأصبح على قدم المساواة مع الشعب المختار. وليست هذه العقلية
مقصورة على اليهود دون غيرهم، لأن تاريخ الكنيسة يعرض لنا مناسبات لاتدخل
تحت حصر من هذا الكبرياء الزائف بالذات.

وينتهى سفر يونان وهو يشير إلى أن الله يحب جميع مخلوقاته، فهو لا يحب
أهل نينوى الأشرار وحدهم، بل يحب أنعامهم كذلك، إننا هنا على عتبة المبشرين
بالإنجيل^(٩). تلك اجابة اليهودية المتحررة على إنعزالية عزرا الضيقة.

* * *

تصادف حكم ارتاكسر كسيس الأول (٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) فى اليونان مع عصر
سقراط وقدياس، وبلاطو، وبركليز، وأشيلوس، أى العصر الذهبى للنهضة
الإغريقية. وفى تلك الحقبة الذى كان التجار اليونانيون قد وطلدوا أنفسهم فى
الشرق الأدنى بدأت الأفكار الإغريقية تصطدم مع الأفكار السورية. وفى نفس
الوقت بدأت الامبراطورية الفارسية فى التدهور، ولكن الطبيعة المشوشة للديمقراطية
اليونانية جعلت امتداد النفوذ اليونانى أمرا مستحيلا. وحدث فقط عندما سيطر
فيليب المقدونى على الجمهوريات اليونانية أن أصبح الفتح الأجنبى ممكنا. وفى عام
٣٣٤ قبل الميلاد عبر الاسكندر بن فيليب البحر الى آسيا الصغرى وهزم دارا الثالث
فى اسوس^(١٠) ولكنه لم يطارده فلول الجيش الفارسى. وقد أدرك الاسكندر (كما

(٩) مقدمة للأنبياء فى التوراة.

(١٠) خريطة (١٠).

تدرك روسيا اليوم) أن الامبراطورية العالمية تتطلب السيادة البحرية على شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما سار جنوبا محاذيا الساحل استولى على موانئ صويرة وغزة، ثم احتل مصر دون أن يلقى أية مقاومة تقريبا. وفي شتاء ٣٣٢ - ٣٣١ ق.م أنشأ ميناء عظيم في الاسكندرية. وفي سنة ٣٣١ قبل الميلاد اتجه شمالا حيث أباد الجيش الفارسي في أربلا وضم الامبراطورية الفارسية إلى أملاكه فانتقلت منطقة يهودا تلقائيا من الحكم الفارسي الى الحكم اليوناني. ولما مات الاسكندر الأكبر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وهو في الثالثة والثلاثين من عمره سقطت امبراطوريته المترامية الأطراف، وانتهى الأمر في النهاية الى ظهور إمبراطوريتين، فكان سلوقس الأول نيكاتور، وهو واحد من قادة الجيش اليوناني، حاكما على بلاد فارس وبابل وسوريا وأسيا الصغرى، واتخذ عاصمته في انطاكية. وكان منافسه ضابطا مقدونيا اسمه بطليموس، نصب نفسه امبراطورا على مصر وليبيا وقبرص وفلسطين.

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريبا كانت المنافسة بين السلوقيين والبطالسة بالغة أشدها، وكانت للسلوقيين امبراطورية أرضية، وللبطالسة قوة بحرية انعقدت لها السيادة على شرق البحر الأبيض المتوسط. واذ طالب الجانبان المتنافسان بضم يهودا وجدت الأخيرة نفسها منطقة على الحدود متنازعا عليها، تماما كما كانت محل نزاع بين مصر وآشور، وانتهى الأمر حينئذ الى أن بقيت تحت حكم مصر من عام ٣٠١ إلى عام ١٩٨ قبل الميلاد.

ولم تكن انتصارات الاسكندر هي كل حقيقة أمره، بل أن سعة أفقه كانت حقيقة واضحة تميز بها، فلقد كان يعارض النزعات الوطنية الاقليمية وكان يحث رجاله كي يتزوجوا من بنات فارس لينصهر الجنسَان بالمصاهرة. ولم يكن متسامحا فيما يتعلق بالديانات وحسب، بل كان يبذل كذلك جهودا نشطة لانهاء الكراهية

الطائفية والدينية. وبالمثل كان البطالسة والسلوقيين متسامحين بالنسبة للأديان على حد سواء؛ وكانت لليهود الحرية المطلقة في العيش والعبادة كما يحلو لهم.

وحاولت كلا الامبراطوريتين إغراء أهل اليونان على الهجرة الى سوريا ومصر حيث كانت الكتائب اليونانية بمثابة العمود الفقري لجيوش كل منهما. وتدفق اليونانيون من رجال الأعمال ومن المستوطنين على الشرق الأوسط وأخذوا يبنون المدن لتي كانت يسكنها اليونانيون بالكامل تقريبا.

وقد ارتقى بطليموس الخامس ايفابس^(١١) (٢٠٤ - ١٨١ ق.م) العرش وهو في الخامسة من عمره، وكان معاصره هو السلوقي أنطوخيس الثالث الكبير، الذي هزم جيش بطليموس الخامس سنة ١٩٨ ق.م. في «بانيوم» (بانياس الحالية)، واستولى السلوقيون على فلسطين. إلا أن قوة جديدة أخرى كانت تزحف من الغرب، وفي سنة ١٩٠ ق.م. هزم الروم أنطوخيس في «ماجنيزيا» مما اضطره للارتداد الى شرق «طوروس» وبذا أصبحت أقاليم آسيا الصغرى تابعة للروم. والأدهى من ذلك وأمر، أن السلوقيين أجبروا على دفع تعويضات باهظة أدت إلى أفلاس امبراطوريتهم، منذ ذلك الوقت وصاعدا تجنب الروم الحرب وحاولوا تدمير السلوقيين عن طريق الدسائس والمكائد، واضطر سلوقس الرابع فيلوپاتور بن أنطوخيس الثالث لأن يرسل ابنه «ديمترىوس» رهينة الى روما. وفي سنة ١٧٦ ق.م. قتل أنطوخيس الرابع واعتلى العرش أخوه أنطيوخس الرابع أيفانسس. وكان حاكما حاد الذكاء يتمتع بصفات خلافة ومحاذة جذابة فواجه الواجب الهائل، واجب لحفاظ على سلامة امبراطوريته غير المتجانسة مع استمرار دفع التعويضات لروما. إلا أن روما لعبت دوراً مزدوجاً فطالبت بمزيد من التعويضات بينما حرصت رعايا أنطوخيس على الثورة ضد الضرائب الفادحة التي كان أنطوخيس في شديد الحاجة اليها لدفع التعويضات.

(١١) شجرة البطالسة.

وقد سعى أنطونيوس الرابع إلى تحقيق تماسك امبراطوريته عن طريق ربط مشترك بواسطة الحضارة اليونانية، وكانت سوريا، قلب الامبراطورية، تمتد من الساحل ونهر العاصي الى نهر الفرات بما في ذلك المدن اليونانية وهي انطاكية، سلوقيا، ولاديكيا (اللاذقية الحالية)، وأباميا^(١٢). وفي فلسطين تحول السهل الساحلى الى منطقة يونانية امتدت عليها المدن اليونانية: بطليموسية (عكا الحالية) وأبولونيا، وبويا (يافا) وأزوتس (أسدود) وعسقلان وأنتيدون، وغزة، ورافيا (رفح)، واستوبولس (بيسان) وكانت هذه المدن تضم كثيرا من السكان اليونانيين. وأعيد بناء سيبست (السامرة) على النمط اليونانى. وكان فى شرق الأردن عشر مدن يونانية (أطلق عليها اسم ديكابولس) هى: فيلادلفيا (عمون أو عمان الحالية)، وفيلوتريا، وأرسينو، وبيلا (خرابة الفحل الحالية)، وديون، وجراسا (جرش الحالية) وجدارا (أم قيس) وهيبوس، وبوسرا. وكان هذا التدفق اليونانى سببا فى تغيير التكوين السلالى لسوريا ولبنان والسهل الساحلى فى فلسطين حتى يومنا هذا^(١٣).

وكانت يهودا دولة معبد، وكان هناك كثير مثلها فى الامبراطورية وكان الحاخام الأكبر يلتزم بالضرائب الامبراطورية للملك السلوقى. ويعزى التدخل السلوقى الى دسياسة يهودية محلية، حين تشاجر شمعون (سيمون)، أحد موظفى المعبد، مع أويناس الثانى الحاخام الأكبر، واقترح على الحكومة السلوقية أن تستولى على كنوز المعبد، فهوجم الضابط الذى أرسل للتحقيق فى ذلك الأمر وأصيب بجراح نتيجة لذلك.

وفى أثناء ذلك كان صبغ أورشليم بالصبغة اليونانية قد بدأ على أيدي اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التنكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، على نحو ما كانت عليه الولايات المتحدة

(١٢) خريطة (١٠).

(١٣) تاريخ كمبريدج القديم المجلد السابع والفصل الخامس.

كل التواريخ قبل الميلاد

سلالة السلوقيين

سلوقس الأول نيكاتور (٣١٢ - ٢٨١)

• أنطيوخس الأول سوتر (٢٨١ - ٢٦٢)

أنطيوخس الثاني تيموس (٢٦٢ - ٢٤٧)

سلوقس الثاني كالينيكس (٢٤٧ - ٢٢٦)

سلوقس الثاني سوتر (٢٢٦ - ٢٢٣)

أنطيوخس الثالث الأكبر (٢٢٣ - ١٨٧)

سلوقس الرابع فيلو باطور (١٨٧ - ١٧٦)

أنطيوخس الرابع إينفانس (١٦٧ - ١٦٣)

أنطيوخس (مات طفلاً)

ديمتريوس الأول سوتر (١٦٢ - ١٥٠)

أنطيوخس الخامس أوباتور (١٦٣ - ١٦٢) (طفل)

ديمتريوس الثاني نيكاتور (١٤٥ - ١٢٩ - ١٢٦)

ديمتريوس الثاني نيكاتور (١٤٥ - ١٢٩ - ١٢٦)

المعتال
الكسندر بالاس (ادعى نبوة أنطيوخس الرابع)
(١٥٠ - ١٤٥)

سلوقس الخامس (١٢٦)

أنطيوخس الثامن فيلوتيدور
(١٢٦ - ٩٦)

أنطيوخس السادس إبيفانس ديونيسيوس
١٤٥ - ١٤٣

بعد ذلك اقتتل الأمراء السلوقيون إلى أن جعل

بومبي سوريًا ولاية رومانية سنة ٦٤ ق.م

ديمتريوس الثاني نيكاتور وأنطيوخس السادس إبيفانس

كانا يحكمان من ١٤٥ إلى ١٤٣ وقد انهكما في حرب أهلية.

الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ذلك فكان تقليد اليونانيين يعتبر تعصرا، وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا.

وسرعان ما بدأت مكيدة أخرى، فقد أغرى جاسون (لاحظ الأسماء الاغريقية) شقيق أويناس الثانى، الحكومة السلوقية لتنصيبه حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم) فى المنصب الذى كان يشغله شقيقه. ولقاء ذلك يؤيد المريدين إدخال الهلينية الى أورشليم. وأخذ الفتية اليهود يلبسون القبعات اليونانية (قبعة الإله عطارد) ويزاولون الألعاب الرياضية وهم عراة فى «الجيمينيزيوم» مما أسخط اليهود المحافظين المتزميتين؛ لأن شغوب الشرق الأوسط كانوا شديدي التحفظ والتزمت بالنسبة لعرى أجسامهم. كما اشترك وفد يهودى فى احتفال هرقل فى صور (وهرقل هذا هو صديقنا القديم إله إيزابل الذى سمي بإسم يونانى لطيف). وهكذا، فإن مبادرة صبغ أورشليم بالصبغة الهلينية لم يفكر فيها أنطوخىوس، بل اتخذتها فئة من اليهود أنفسهم^(١٤).

وفى سنة ١٧٢ قبل الميلاد أحس أنطوخىوس بنية بطليموس غزو فلسطين فتحرك على رأس جيش إلى يونا، وزار أورشليم حيث لقي ترحيبا ملكيا من جاسون فى احتفال كبير بالمشاعل، لكن دسائس جديدة مزقت أورشليم. ففى عا ١٦٩ قبل الميلاد أعزى مينيلوس وهو شقيق شمعون الذى سبق ذكره، إلى الحكومة لكى تجعله حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم)، مع أنه لم يكن ينتسب حتى إلى قبيلة ليفى. وفر جاسون الى عمون.

وبينما كان أنطوخىوس قائما بحملته فى مصر عام ١٦٩ قبل الميلاد، عاد جاسون واستولى على أورشليم ذبح أنصار مينيلوس. وانزعج أنطوخىوس من هذه القلاقل التى طرأت فى غيبته، خاضة وأنه كانت فى أورشليم جماعة موالية

(١٤) تاريخ كمبريدج، القديم، المجلد الثامن.

للمصريين. وقع الملك الذى كان عادة رجلا ودودا فى خطأ فاحش. فقد كانت الامبراطورية تضم كثيرا من المجموعات الدينية الصغيرة تدين لها بالولاء. أما فى يهودا فقد بدا أن الدين هو الذى يشير عدم الولاء. ولم يكن الأمر كذلك، ولكن كان سبب جميع القلاقل هو تنافس المطالبين بوظيفة الحاخام الأعظم. ونظرا لوجود حزب هلليني بالفعل فى اورشليم فقد صمم أنطيوخس على أن يعجل بصبغ البلاد بالهللينية بالقوة. ومع هذا الأمر أدخل أنطيوخس محاولة لطمس الديانة اليهودية. وربما كان أنطيوخس سينجح لو أنه اقتصر على حركة صبغ البلاد بالهللينية وترك الديانة وشأنها. ولكنه تعجل الأمر وكانت روما تترصده. به.

وقد احتلت القوات حصنا على جبل صهيون، وحرمت عملية الختان، واعتبر تحريم أكل لحم الخنزير جريمة لا تغتفر. وفى شهر ديسمبر سنة ١٦٧ قبل الميلاد منعت القرابين اليومية عن المعبد ونصب تمثال جيوثر فى الهيكل، فكان هذا العمل اضطهاداً دينياً، ولم يقدم أنطيوخس على هذا العمل لأنه كان يحبذ أية ديانة أخرى، لكنه أقدم عليه لأنه ظن أن الديانة اليهودية هى مصدر القلاقل السياسية.

وقد ظهر حاخام صغير فى إحدى القرى، اسمه مكابى من أسرة حشموناى من سبط هارون كان موظفا حكوميا بينما كان يقدم قربانا وثنيا فى قرية مدين^(١٥). ثم اتجه هو وأبناؤه الخمسة صوب التلال وأغاروا على القرى الأخرى وقتلوا اليهود المتشبهين باليونانيين. وفى عام ١٦٦ أو ٢٦٥ قبل الميلاد توفى متاتياس (متياهو) وتولى القيادة من بعده ابنه الثالث يوحانان الشهير باسم يودس (يهودا) المكابى (أى المكابى ذو القبضة الحديدية) وكان الفلاحون اليهود فى عام ١٦٠ قبل الميلاد أشبه بالفلاحين «العرب» فى عصرنا هذا. وحين كتب يوسيفوس بعد أكثر من مائتى عام مؤلفه، فقد استطاع أن يقول «لسنا شعبا تجاريا».

(١٥) خريطة (١١).

١٦٨ - ١٥٣ ق.م



وأغلب الظن أن سفر دانيال كتب فى ذلك العهد، وكان يكنى أنطوخىوس بعبارة «القرن الصغير»، ويشير إلى تمثال جيوتتر المقام فى الهيكل بعبارة «معصية الخراب (رجس المحرب)»^(١٦). وكان ناتج معاناة اليهود أن ذكرت كلمة «الخلود» لأول مرة فى المصادر اليهودية^(١٧).

وتوفى أنطيوخس فى أصفهان عام ١٦٣ قبل الميلاد، وفى نفس الوقت أجرى لىسياس نائب الملك تسوية مع اليهود، وصار الياكيم (السيموس باليونانية) الحاخام الأكبر (الكاهن الأعظم)، واستؤنفت الصلوات فى المعبد، ونصب أنطوخىوس أوباتور ملكا. إلا أن ديمتريوس وصل من روما سنة ١٦٢ ق.م. فقتل أوباتور وجلس على العرش^(١٨) وبعث السيموس الحاخام الأعظم مفوضا إلى ديمتريوس للشكوى من الحشمونيين وكانت عصاباتهم ماضية فى نشاطها تحت قيادة يوحانان المكابى، كما أرسل الحشمونيين الى روما حيث حصلوا على معاهدة مائة تحمل أكثر من معنى، وكانت تلك مكيدة رومانية لتقويض السلوقيين.

وفى أورشليم بدا الموقف طبيعيا، فعاد التسامح الدينى، إلا أن عصابات الحشمونيين كانت لاتزال قائمة، بل أنها أوقعت قوة سلوقية فى كمين عند بيت حورون، فسارع ديمتريوس بإرسال القوات التى هزمت العصابات وقتل يوحانان المكابى، وبقي على قيد الحياة إبنان فقط من أبناء مقابياس (المكابى)، هما: شمعون ويوناتان.

(١٦) سفر دانيال الاصحاح الثامن وما بعده.

(١٧) سفر دانيال الاصحاح الثانى عشر / ٢، ٣.

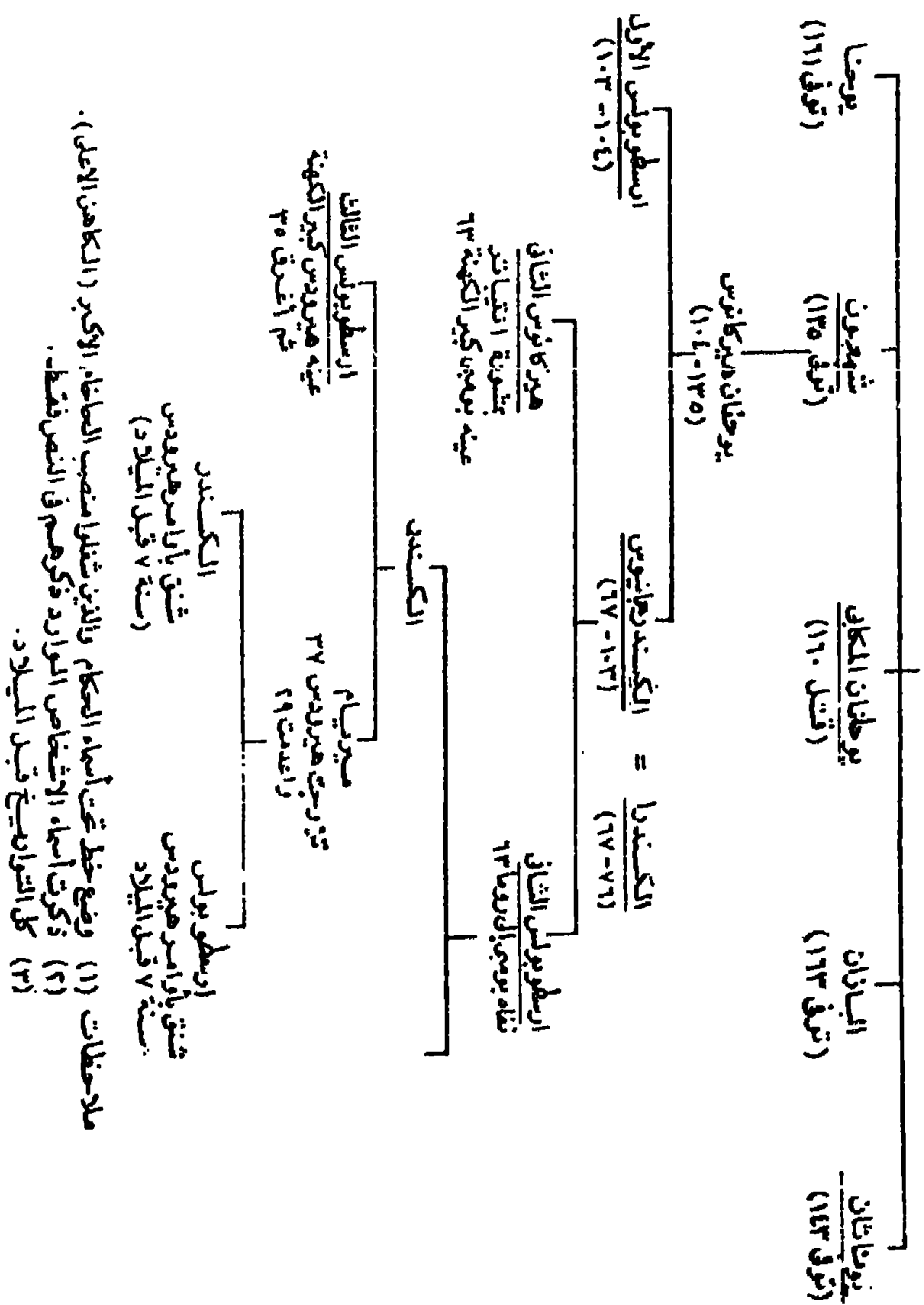
(١٨) شجرة سلالة الحشمونيين.

وقد كان ديمتريوس أهلا لإرضاء الروم الذين أرسلوا المدعو الكسندر بالاس للمطالبة بعرض السلوقيين. وطلب كل من ديمتريوس وبالاس المساعدة من يوناثان الحشمونى، الذى وجد نفسه على حين فجأة يتردد اليه الملوك بعد أن كان ثائرا. وساعد يوناثان الكسندر الذى جعله الحاخام الأعظم. وكان لدى الكسندر ميزة العجز، بينما ديمتريوس شجاعا بارعا. وفى عام ١٥٠ قبل الميلاد سقط ديمتريوس وهو يقاتل فى الحرب، وأصبح الكسندر بالاس ملكا، إلا أن ديمتريوس الثانى بن ديمتريوس الأول هزم الكسندر وصار هو ملكا عام ١٤٥ قبل الميلاد. وقد حظى بتأييد يوناثان الذى استغل الفوضى الضاربة ليقتل مؤيدى السلوقيين من اليهود. وكانت الامبراطورية المتداعية قد نبذت أصدقاءها لتؤيد الوطنيين المتطرفين - وتلك عملية مألوفة فى وقتنا الحاضر.

وفى عام ١٤٥ قبل الميلاد ثار ابن بالاس وتحول يوناثان لتأييده، وفى مقابل ذلك عين شمعون شقيق يوناثان حاكما على سوريا الجنوبية، واستخدم الجنود السلوقيين لزيادة الرقعة التى تتولاها هذه السلالة الجديدة. وفى عام ١٤٢ قبل الميلاد قام مغامر جديد إسمه تريفون فجعل من نفسه حاكما مطلقا على سوريا، وألقى القبض على يوناثان بينما كان فى زيارة لبطليموسية ثم قتله. واستولى شمعون على السلطة فى يهودا وعرض خدماته على ديمتريوس الثانى.

وفى مايو عام ١٤١ قبل الميلاد استسلمت الحامية السلوقية فى أورشليم ووجدت يهودا نفسها مستقلة. وفى شهر سبتمبر عام ١٤٠ قبل الميلاد جعلت الجمعية اليهودية (السنهدرين) وظيفة «الحاخام الأعظم» وراثية فى أسرة حشموناي، ورسم شمعون حاخاما وقائدا عاما، وأميرا على شعب الله وفتحت مدينة يونا اليونانية (يافا) وضمت الى يهودا.

شجرة سلالة الحشيشونيين



وفى عام ١٣٨ قبل الميلاد اغتيل شمعون بيد زوج ابنته، إلا أن ابنه جون (يوحانان) هيراكينوس استولى على السلطة. وفى نفس السنة استرجع أنطوخوس السابع السلوقى يوبا ثم استرد أورشليم، ولكنه سمح ليهودا بالاحتفاظ بمدينة يوبا. وفى سنة ١٢٩ قبل الميلاد قتل أنطوخوس السابع وعمت الامبراطورية الفوضى فاستقل كثير من المدن اليونانية، وكانت هناك طائفة عربية تعمل بالتجارة تحت اسم النبطيين كانت تتخذ لها قاعدة فى بترا، وقد تمكنت هذه الطائفة من الاستيلاء على السلطة فى شرق الأردن. وقد حكم الحشمونيون يهودا حتى عام ٣٨ قبل الميلاد. ومع أن بداية حكمهم اتخذت طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الأتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم (الحسيديم)، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

وعلى نحو ميلاد اسرائيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازى، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطوخوس الرابع يهودا الى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة. وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون إيلات تابعة للامبراطورية السلوقية، وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكرى. كما قام بغزو الأدوميين (وكانوا يعرفون فيما مضى باسم الايدوميت) الذين كانوا يستوطنون الخليل فى الجنوب. ولكى يزيد يوحانان هيراكينوس من أعداد جيشه حول الأدوميين قسرا للديانة اليهودية - وهى سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية.

وحوالى عام ١٠٨ قبل الميلاد استولى هيراكينوس على مدينة السامرة، وكانت أغليبتها السائدة من اليونانيين. فذبح جميع سكانها، كما لقيت نفس المصير مدينة سيتوبولس (بيسان الحالية) وكان معظم سكانها هى الأخرى يونانيين. وتوفى يوحانان هيراكينوس عام ١٠٤ قبل الميلاد.

وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقلال بين الامبراطوريات الأمر الذى يشبه كثيرا ما حدث بالشرق الأوسط فى أيامنا هذه بين البريطانيين والروس. وقد رجب المتحمسون لنهاية الامبريالية وباستقلال الدول الصغيرة، إلا أن الدول الصغيرة فى ذلك الوقت، مثلها مثل الدول الصغيرة فى وقتنا هذا، استخدمت استقلالها فى مهاجمة جيرانها.

«لا المكابيون ولا البارثيون هم الذين قهروا السلوقيين، بل إن روما هى التى قهرتهم»^(١٩). والواقع أن الدور الذى تلعبه روسيا اليوم أشبه بالدور الذى كانت تلعبه روما فى الفترة من عام ٢٠٠ إلى عام ٦٤ قبل الميلاد، فهى لا تتورط فى الحرب ولكنها تثير الحروب بصورة دائمة، تماما كما أحيالت روما الشرق الأوسط الى فوضى شاملة قبل أن تدخله بنفسها.

تواريخ تستحق أن تذكر

الغزو البابلى	٥٨٧ ق.م
قورش يأذن بإعادة بناء الهيكل	٥٣٨ ق.م
نحميا حاكماً على يهودا	٤٤٠ ق.م
اصلاحات عزرا حوالى	٣٩٧ ق.م
الاسكندر يحتل مصر	٣٣٢ ق.م
فلسطين تحت حكم البطالسة	٣٠١ - ١٩٨ ق.م
أنطوخىوس الرابع يحاول طمس الديانة اليهودية	١٦٩ ق.م
ثورة الحشمونيين	١٦٦ ق.م
وفاة يوحانان المكابى	١٦٠ ق.م
تحلل الامبراطورية السلوقية	١٥٠ - ٦٤ ق.م

(١٩) تاريخ كمبريدج القديم، المجلدين السابع والثامن.

البطالسة

بطليموس الأول سوتر	٣٢٣ - ٢٨٢ ق.م
بطليموس الثانى فيلادلفوس	٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م
بطليموس الثالث أورجيتس	٢٤٦ - ٢٢١ ق.م
بطليموس الرابع فيلوپاتور	٢٢١ - ٢٠٤ ق.م
بطليموس الخامس ابيفانى	٢٠٤ - ١٨١ ق.م
بطليموس السادس فيلوميتور	١٨١ - ١١٦ ق.م
بطليموس السابع أورجيتس (فيسكون)	١٧٠ - ١١٦ ق.م
بطليموس الثامن سوتر (لاثيروس)	١١٦ - ١٠٨، ٨٨ - ٨٠ قبل الميلاد
بطليموس التاسع الكسندر	١٠٨ - ٨٨ ق.م
بطليموس العاشر السكندر	٨٠ ق.م
بطليموس الحادى عشر فيلوپاتور فيلادلفوس نوى (أوليتس)	٨٠ - ٥١ ق.م
بطليموس الثانى عشر فيلوپاتور وأخته كليوباتره	٥١ - ٤٧ ق.م
بطليموس الثالث عشر فيلوپاتور مع كليوباتره	٤٧ - ٤٤ ق.م
بطليموس الرابع عشر سيزاريون مع أمه كليوباتره	٤٤ - ٣٠ ق.م
(يقال أنه كليوباتره ويوليوس قيصر)	
مصو تصبح ولاية رومانية	٤٠ قبل الميلاد

خاتمة

- ١ - بدأ تشتت اليهود عام ٥٨٧ قبل الميلاد مع الفتح البابلى.
- ٢ - غيرت ثلاثة أجيال فى بابل اليهود من فلاحين الى رجال مجربين وواسعى الخبرة بالحياة.

٣ - بدأ عزرا فكرة «الأمة المقدسة» التي يتلوث دمها بالتزواج من بقية بنى الانسان.

٤ - منذ ذلك الوقت انقسم اليهودية بين الانعزاليين والدوليين.

٥ - سرعان ما أصيبت الارستقراطية الكهنوتية بالفساد، وكانت دسائسها داعية لتدخل السلوقيين.

٦ - كانت ثورة يوحانان المكابى مثيرة على الورق، إلا أنها عندما أحرزت النجاح انتكست فأصبحت ثورة قاسية وعسكرية عدوانية.

الفصل السابع

اليهود يملأون العالم

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذى سبيته من أورشليم الى بابل .. إبنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلو ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبننيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا. واطلبوا سلام المدينة التى سبيتكم اليها وصلوا لأجلها الى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام..»

سفر إرميا الاصحاح التاسع والعشرون: ٤ - ٨.

«انتعشت الحياة اليهودية فى بابل اقتصاديا وروحانيا، كما تطورت فى مصر طائفة يهودية سعيدة مزدهرة بلغت مليوناً من الأنفس فى القرن الأول من العصر المسيحى. ومنذ ذلك الوقت انتقل مركز الحياة اليهودية إلى بابل ومصر».

موشى منوحن، «أقول اليهودية فى عصرنا».

«إن تشتتهم على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، واستخدام اللغة اليونانية التى اتخذوها وسيلة للتخاطب عندما طردوا من فلسطين، كل ذلك مهد السبيل لدعاية لم يسبق أن قدمت المجتمعات القديمة مثيلاً لها.. وصار الدين اليهودى هو الدين الحق بمعنى الكلمة. وقد أعطى الحق لكل من يرغب أن يدخل فيه وسرعان ما صار إدخال أكبر عدد ممكن فى هذا الدين عملاً من أعمال الورع والتقوى».

إرنست رينان، «حياة يسوع».

الفصل السابع

تميل الأحداث في يهودا الضيقة الصغيرة الى توجيه الالتفات اليها وبالتالي إغفال اليهود في الدول الأخرى. ولكي نعدل الميزان ينبغي لنا أن نترك يهودا لوقت ما، لتفكر في أمر يهود العالم.

بدأ الشتات مع الغزو البابلي عام ٥٨٧ قبل الميلاد (وكانت عشر قبائل من القبائل الاثنتي عشرة قد زالت من الوجود بالطبع عام ٧٢٢ قبل الميلاد مع الغزو الآشوري). وترك الغزو البابلي يهودا وقد نقص سكانها الى حد كبير بعد أن أرسلت الطبقة الحاكمة الى السبي. إلا أن كثيرا من اليهود فروا إلى مصر حيث استقر بعضهم في العاصمة ممفيس واستقر البعض الآخر في الأقاليم وتزوج كثير منهم من مصر.

وترتب على فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد أن زادت الهجرة من يهودا، ويذكر يوسفوس^(١) أن «الاسكندر اذ تلقى تأييدا ايجابيا شديدا ضد المصريين من اليهود، منحهم مكافأة على تأييدهم، وهي التصريح بالاقامة في المدينة (الاسكندرية) مع مساكنهم باليونانيين الغزاة. «وقد تأيد هذا الامتياز من خلفائه الذين خصصوا لليهود، فضلا عن ذلك، حيا خاصا لسكانهم كي يتمكنوا، اذا ما قل اختلاطهم بالأغراب، من ممارسة أحكامهم على نحو أكثر كمالا ودقة، وسمح لهم أيضا باتخاذ لقب القدونيين، كما سمح لهم بعمل ادارة خاصة ونظام قضائي خاص، وبعبارة أخرى، كانت الطائفة اليهودية تشكل مدينة داخل المدينة تتمتع بسلطات مساوية من الناحية العملية لسلطات الاسكندرانيين»^(٢).

(١) فلافيوس يوسفوس، «حروب اليهود»، الكتاب الثاني:

(٢) اتش، آي، بل، «اليهود ولسيحيين في مصر».

ويجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودى (الجيتو) ، الذى قام فيما بعد، أنه فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد كان اليهود يفضلون أن يعيشوا فى مجتمع يهودى خاص بهم، رغم أنهم كانوا، فى ذلك الوقت، يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد ما يكونون عن الاضطهاد.

كان سكان الاسكندرية يشكلون فئات أربع:

١ - المقدونيون - وهم طبقة تتمتع بامتيازات خاصة، ويفترض أنهم كانوا جنود الاسكندر القدامى.

٢ - الاسكندريون - وهم اليونانيون المقيمون فى الاسكندرية.

٣ - النزلاء الأجانب مثل الفرس.

٤ - أبناء البلد المصريين - الصناع والعمال، وكانوا لايعتبرون مواطنين فى البلدة.

وكانت الاسكندرية مدينة مستقلة، من يصبح مواطناً بها يعد ذلك له امتيازاً. وكان هناك يهود فى الفئات الأربع على حد سواء: «المقدونيون» وهم المنحدرون من أولئك الذين ساعدوا الفتح اليونانى، كما قد يكون اليهود فى الفئة الرابعة، طبقة أبناء البلد، أى من أولئك الذين اندمجوا فعلاً مع المصريين، أو من المصريين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية.

وقد عمل البطالسة على استمرار الامتيازات التى منحها الاسكندر لليهود، كما استخدموا اليهود فى جيوشهم، وارتقى بعضهم إلى المراتب العليا. وبالمثل منح سلوكى الأول اليهود صفة المواطن على قدم المساواة مع اليونانيين. وقبل عهد الاسكندر كان اليونانيون يحتقرون الأجناس الأخرى ويعدونهم برابرة، تماماً كما كان اليهود يزدرون بقية بنى الانسان باعتبارهم وثنيين، إلا أن الاسكندر كان يعارض التمييز العنصرى معارضة شديدة.

وعندما التقى اليونانيون لأول مرة باليهود أثاروا اهتمامهم. وكانوا يعتقدون أن نبيهم موسى كان على درجة غير عادية من الحصافة والبسالة وقام متعمدا بجعل عاداتهم مغايرة لعادات الشعوب الأخرى بغرض الإبقاء عليهم كأمة متفردة^(٣). وعندما أخذ اليونانيون يعرفون اليهود على حقيقتهم بدأ الاحتكاك بين الجانبين. فقد كان اليهود يجتنبون المملذات الاجتماعية في حياة المدنية اليونانية مثل المسارح وساحات الألعاب الرياضية والاحتفالات العامة، حتى لقد أثار عدم مراعاتهم للأصول الاجتماعية الامتناع والغضب. وقد اتهمت المسيحية بكراهة اليهود، إلا أن أسباب كراهة اليهود كانت قائمة منذ ٣٠٠ قبل الميلاد.

وبعد عام ٣٣٠ قبل الميلاد، انتشرت المدن اليونانية في الشرق الأوسط، وكانت هذه المدن تميل إلى الديمقراطية ومناهضة الأباطرة والملوك، أما اليهود فكانوا بالطبع يؤيدون الأسرات الحاكمة، وليست الديمقراطيات، بشرط أن تترك لهم الحرية المطلقة لممارسة عاداتهم الخاصة. وحيثما وجدت جالية يهودية كبيرة في مدينة من المدن اليونانية كانوا يقيمون لأنفسهم معبدا يهوديا ويعيشون سويا. وغالبا ما سمح لهم بإقامة أسلوبهم القضائي الخاص، وفقا لتقاليد الشرق الأوسط المرعية.

وقد منح اليهود خاصية الحصول على الوظائف الرسمية الهامة، ويحتمل أنهم كانوا يأملون أن يضمنوا من وراء هذه الوظائف أسباب أمنهم وطمأنينتهم بوصفهم أقلية غير محبوبة. وفي عهد البطالسة عمل كثير من اليهود، في جباية الضرائب. وقد اختار اليهود أنفسهم الحى الذى كانوا يسكنونه فى الاسكندرية على مقربة من القصر الملكى.. وكانت اللغة العبرية غير مستعملة (لغة ميتة) فى يهودا نفسها، حيث كان اليهود يتكلمون اللغة الأرامية، وكانوا يتكلمون اللغة اليونانية تحت حكم البطالسة والسلوقيين باعتبارها كأنها لغتهم الأصلية. وفى عهد

(٣) هيكتايوس، ايود ديودورس سيكولس، اقتباس اس. ديفيز، والواقع أنه لم يكن موسى بل كان عزرا.

بطليموس فلايلفوس (٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م) بدىء فى اخراج أول ترجمة باللغة اليونانية للعهد القديم (الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة) بالاسكندرية. وقبيل هذا التاريخ مباشرة استبدل كبار اليهود فى يهوذا اسم «يهوه» بالإسم «أدوناي» (وكان قد بدأ التفكير فى يهوه كرب العالمين وليس كإله القبيلة) وقد استخدمت كلمة «كربوس (الرب)» «لتعنى» «أدوناي» فى الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة، وبالتالى أصبح «شعب يهوه المختار»، دون أن يلحظ أحد، «شعب الرب المختار».

وقد كان اليهود فى مصر وسوريا يعيشون فى جو يونانى، وكانوا يدرسون الفلسفة اليونانية. وبينما كان الأغلبية مواظبة على مراعاة أحكام الدين، كانت أفكارهم مشبعة بالثقافة اليونانية، وترتب على هذا أن نقصت مشاركتهم أهل يهوذا نظرتهن المحدودة شيئاً فشيئاً. وكان شغفهم بالفكر اليونانى قد أوجد فيهم ميلاً إلى العالمية، إلا أن سيادة اليونانيين الفكرية كانت تمضى جنباً إلى جنب مع مذهب تعدد الآلهة، وشعر اليهود بأن الديانة اليهودية إذا ما ارتبطت بالثقافة اليونانية فإنها قد تخرج مجتمعاً مثالياً، وبناء على هذا عقد اليهود المشتتون فى المهجر العزم على تحويل وهداية العالم اليونانى.

ولم يكن فى العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود فى المهجر. ويقول سترابون (ولد عام ٦٣ قبل الميلاد)، العالم الجغرافى الرومانى - اليونانى، أن اليهود كانوا يملأون الدنيا حوالى سنة ٨٧ ق.م، بحيث «كان يصعب أن نجد مكاناً فى الدنيا ليس به جالية ضخمة ذات نفوذ كبير».

وفى عام ٥٩ قبل الميلاد قال شيشيرون فى روما دفاعاً عن فلاكيوس: «إنكم تعرفون كم يشكلون (اليهود) مجموعة ضخمة، وكيف أنهم عند اجتماعهم يلتصقون ببعضهم، وكيف أن نفوذهم جد عظيم فى الشؤون السياسية».

وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود في العالم الخارجي الى أعدادهم في يهودا، قبل ظهور المسيح بوقت قصير، اختلافا شديدا، بل انها تختلف من القول بأن «اليهود في المهجر كان عددهم مساويا، على الأقل، لعدد اليهود في يهودا» إلى القول بأنه «ربما كان عدد اليهود في خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم في يهودا». ومن الأرجح أن عدد اليهود في المهجر كان مساويا لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم في يهودا، وهذا يعتبر تخميننا مقبولا. ويكتب الحاخام ريزين في معرض حديثه عن فترة الحشمونيين (١٦٦ - ٣٨ ق.م) عن «تدفق اليهود المستمر إلى الدول الأخرى»، ويستطرد فيقول أن «كثرة عدد اليهود في جميع أنحاء العالم قبيل غزو الروم لفلسطين لم تكن ناجمة عن كثرة التوالد الطبيعي، فان نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية»^(٤).

ويشير جان جوستر إلى «حمى التهود» التي انتابت اليهود من سنة ٢٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٠٠ بعد الميلاد^(٥). ويشير الحاخام ريزين إلى «الزيادة الهائلة في التهود» في القرنين السابقين لظهور المسيح. وطوال خمسمائة عام - من ٣٠٠ قبل الميلاد إلى ١٠٠ بعد الميلاد - كان اليهود أكثر تقدما في الروحانيات عن اليونانيين والرومانيين. وكانت الديانة الرومانية قد أخذت تصبح أكثر وأكثر ديانة الطقوس الرسمية. وعلى العكس من ذلك، كانت الديانة اليهودية الجديدة بدعوتها للتوحيد، وإقبال الأفراد عليها، شديدة الأثر في الجماهير. وتمثلت العقبة الرئيسية التي اعترضت التحول إلى الديانة في التشريع الذي يفرض عملية الختان (الطهارة) والمحافظة على اعتبار يوم السبت هو اليوم الديني المخصص للراحة، والتزام طرق وأنواع خاصة في الطعام. وكانت عملية الختان مانعا للرجال، إلا أن المحافظة على احترام يوم السبت كانت أمرا محبوبا ومألوفاً. أما قوانين الالتزام في الطعام فقد

(٤) الحاخام ريزين، رد فعل الوثنيين على المثل العليا اليهودية.

(٥) جان جوستر، اليهود تحت حكم امبراطورية الروم.

كانت تضطر المهتدى حديثا الى أن يترك أهله وأصدقائه ويدخل فى المجتمع اليهودى، إذ لا سبيل له للحصول على الطعام اليهودى إلا عن هذه الطريق. وبالنظر إلى الألم الشديد المترتب على اتخاذ هذا القرار، فانه جدير بالاعتبار كم من المهتدين حديثا دخلوا فى الدين اليهودى.

ويكمن سر اجتذاب الديانة اليهودية للوثنيين فى سمتها الروحانية وفى اقبال المتعبد عليها مخلصا. وهكذا يبدو لنا أن الأصرار على عدد لا يعد ولا يحصى من القواعد بشأن الطعام، أمر تافه، إذا ما قورن بهذه الأساسيات الجوهرية. إلا أن اليهود كانوا على درجة شديدة من الصلابة وقسوة الفؤاد، إذ يجب أن يعيش، أولئك الذين تحولوا عن دينهم لليهودية، معيشة اليهود فيما بين اليهود، وأن يقطعوا أنفسهم نهائيا عن العالم الوثنى، لأنه لا يمكن لهم أن يكونوا يهودا أو يونانيين أو فارسيين فى نفس الوقت.

وكانت نتيجة ذلك ظهور أنصاف اليهود ممن عرفوا بأنهم يخشون الله. فلقد استهوى هذه الفئة التوحيد بالله والقبول الروحانى للديانة اليهودية، إلا أنهم كانوا أما غير راغبين أو غير قادرين على الاستجابة لجميع الالتزامات المفروضة على الطعام. ويقدر جوستر عدد أولئك الذين «يخشون الله». بما يساوى عدد الذين غيروا دينهم تغييرا تاما، ولا بد أن يكون مجموع هؤلاء قد شكل نسبة هائلة من سكان الامبراطورية. ولا يعتبر هذا المعدل السريع للتحويل الدينى داعية للدهشة عندما نفكر فى أن الديانة المسيحية كانت ستحول الامبراطورية الرومانية كافة إليها على مدى ثلثمائة عام أى فى المدة من عام ٣٢ بعد الميلاد إلى عام ٣٢٥ ميلادية.

والواقع أن اليونانيين والرومانيين، بكل أمجادهم الفكرية، كانوا يعانون من الجذب الروحانى، والانسان ان كل انسان يتحرق اشتياقا الى الله، حتى ولو كان ذلك بغير وعى أو شعور، واذا ما أثير وحرك ظمأه الى الله فقد يمكن غمر الأرض بفيض من ادراك الله كما يذخر البحر بالماء.

ولقد قام جوستر بدراسات عن المدن التي كان اليهود يشكلون بها جالية هامة في العصر الروماني، وشملت هذه الدراسات جميع المدن، على الأغلب، في فرنسا، وإيطاليا وصقلية، وسردينيا، وأسبانيا، وجزر البليار، واليونان، وتراسيا، ودلماسيا، وبانونيا، ومقدونيا، وآسيا الصغرى، وسوريا، وأرمينيا، وأرض الجزيرة (العراق)، وآشور وبابل، وشمال وجنوب فارس، وجزيرة العرب، واليمن، ومصر، وأثيوبيا، وليبيا وطرابلس وأفريقيا حتى موريتانيا، والولايات الألمانية في حوض نهر الراين. وقد جمع هذه القائمة من النقوش والمخطوطات ومن المقابر اليهودية والمصادر الأدبية.

ويزعم فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودي أن «نصف الجنس البشري» كانوا من اليهود، وتذهب مراجع أخرى إلى القول بأنه، في عهد المسيح، كان في مصر مليون يهودي من بين سكانها البالغ عددهم سبعة ملايين، أي بنسبة ١٤٪، وكانت نفس النسبة في طرابلس. وفي روما تحت حكم تيبيريوس (٤٢ قبل الميلاد - ٣٧ بعد الميلاد) تواجد ستين ألف يهودي من بين سكانها الثمانمائة ألف، أي بنسبة ٧.٥٪. وقد قدر عدد سكان الامبراطورية في عهد أوغسطس أوكتافيوس بخمسة وخمسين مليون نسمة، كان من بينهم خمسة ملايين من اليهود تقريبا، أو حوالي ٩٪. ويقول بر هيبيريوس، وهو يودي تحول إلى المسيحية (حوالي سنة ١٢٧٠) بأنه كان هناك تحت حكم كلادايوس (٤١ - ٤٥ بعد الميلاد) سبعة ملايين يهودي أو ما يساوي ١٢.٥٪ من سكان الامبراطورية.

وإذا سلمنا بتقدير جوستر القائل بأن أنصاف اليهود (الذين يخشون الله) كانوا كثيرين مثل اليهود، فإنه يمكننا أن نرى أن اليهود كانوا يشكلون مشكلة خطيرة للغاية بالنسبة للروم. ولاتشمل الأعداد المذكورة أنفا اليهود في فارس أو بابل أو جزيرة العرب، أي تلك المناطق التي كانت خارج الامبراطورية.

ومن المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشئون المالية بدأ فعلا فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد عام ٧٠ ميلادية، أن اليهود لم يكونوا شعبا تجاريا، كان يشير إلى أهل يهودا. ويمكن عمل مقارنة شائقة بين اليهود والإيرلنديين فى القرون الثلاثة الأخيرة. فقد كانت أيرلندا دولة فلاحين فقراء، إلا أن المهاجرين الايرلنديين حققوا قدرا كبيرا من الشهرة عندما غادروا جزيرتهم الى بريطانيا والولايات المتحدة.

وقد خدم يهود الاسكندرية البطالسة قرابة ثلثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيون تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم^(٦). وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من السكندريين، ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائما فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

فى صيف سنة ٣٨ ميلادية نزل أجريبا الأول^(٧) فى الاسكندرية قادما من روما فخف اليهود لاستقباله استقبالا ملكيا رائعا، ولكى يبدى اليونانيون استياءهم من تدليل الرومان لليهود قلبوا الاحتفالات اليهودية فى قالب هزلى بأن ألبسوا شخصا معتموها لباسا ملكيا فكان ذلك داعية لأعمال شغب عنيفة، ونهبت أحياء اليهود وقتل عدد منهم، وأرسل كل من الجانبين مندوبين عنه الى روما، لكن كاليجولا المزدول الشائن السمة كان امبراطورا حينئذ فلم يحصل أى من الجانبين على ما يرضيه.

(٦) اتش، آى. بل، «اليهود والمسيحيون فى مصر».

(٧) أنظر الفصل التالى.

وتجددت أعمال الشغب فيما بعد وكان اليهود هم المعتدين هذه المرة، ولم يكن «يهود الاسكندرية كلهم فلاسفة أفلاطونيين (على شاكلة فيلون)، ولا أيضا شهداء معذبين لكنهم كانوا غوغاء هائجين يثيرون الفتنة كلما عانوا من الفتنة»^(٨).

وفى الرابع والعشرين من شهر يناير عام ٤١ ميلادية أغتيل كاليجولا، وأصبح كلادايوس إمبراطور، فأرسل الطرفان المتخاصمان وفدين الى روما، ولا يزال رد كلودايوس موجودا، ومستترا بعبارات وضعت فى دقة تامة، حيث وجه اللوم لليونانيين على كراحتهم لليهود، وأكد على جميع الامتيازات التى كانت لليهود، فقد كتب الامبراطور يقول: «ان من حقى أن أغضب غضبا لا يلين على كل من تسول له نفسه أن يكون السبب فى تجدد هذا الشغب. وإنى أعلنها صريحة أنكم أن لم تقلعوا عن هذا العداء المنغص البلغى فلسوف أكون مضطرا لأن أبين كيف يكون الأمير المتسامح عندما يتال منه الغضب. وإنى أمر اليهود بأن يفيدوا مما فى أيديهم ومن الخير العميم، كما أمرهم ألا يستقدموا اليهود من سوريا فيجبروننى أن أتوجس ريبة، وإلا فلا نتقم منكم بكل وسيلة ممكنة كأنهم يثيرون فتنة عامة للعالم كافة»^(٩).

وتستوجب أعمال الشغب فى الاسكندرية الاهتمام لأسباب عدة، حيث أنها تنقض الادعاء بأن الأعمال العدوانية ضد اليهود نشأت عن المسيحية، إذ أن هذه الظاهرة نفسها كانت موجودة فيما قبل أيام المسيحية.

وأحيانا يستشهد بأعمال الشغب فى الاسكندرية، كدليل على أن اليهود التعساء يتعرضون دائما للاضطهاد، إلا إن الحقيقة هى أنهم كانوا هم المدللين من الحكومة، بل إن كثيرا من اليهود السكندريين كانوا يشغلو وظائف هامة فى

(٨) إس. ديفز «العلاقات العنصرية فى مصر القديمة».

(٩) إتش. آى. بل: «اليهود والمسيحيون فى مصر».

الأفرع المالية بالإدارة الحكومية مما أعطاهم القوة والنفوذ ولكن لم يدخل فى حساب أحد أن يجعلهم غير محبوبين.

وإذا كان المجال لا يسمح بدراسة مفصلة لليهود فى كل دولة، فإن الفقرة التالية من رينان قد تؤخذ كأنموذج حيث، يقول: «إن اليهود قدموا فى وقت مبكر جدا الى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمان طويل، وقد أستقبلوا استقبالا طيبا ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد «كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكون لهم سلف واحد فى فلسطين. وعندما يتذكر المرأ أن يهود انجلترا وألمانيا قد جاءوا من فرنسا، فإن الأسف يتملكنا لأننا لانملك بيانات أكثر. وقد يدرك المرء أن يهودى الغال فى عهد جونتران أو شلبرك (المتوفى عام ٥٨٤ ميلادية) غالبا ما كان مجرد غالى يقر الدين الاسرائيلى».

فى الفصل السابق تركنا يهودا عام ١٠٤ قبل الميلاد، وهى تحت حكم يوحانان هيراكينوس، وسنستأنف السرد فى الفصل التالى، أما الآن فاننا نتوقف عن السرد التاريخى لنكتب بعض كلمات عن التطور الدينى لليهودية، ذلك التطور الذى جعل هذه الديانة جذابة بدرجة كبيرة للوثنيين فى الامبراطورية الرومانية.

رأينا كيف أن الشخص العادى من بنى اسرائيل قبل الفتح البابلى كان يؤمن بيهوه باعتباره الاله القبلى لاسرائيل، وأنه لم يكن لديه أى مفهوم للعالم الكلى، ناهيك عن الكون. وهذا فى رأى المتواضع، لم يكن ليمنع موسى وإشعيا والأنبياء من تلقى تجارب روحانية حقيقية، لأنه من حسن طالعنا أن الله لم يقصر رحمته على أولئك الذين يعتبر علمهم اللاهوتى صحيحا من الناحية العقلية.

والحق أن دين يهوه الاسرائيلي أمر بعبادة إله واحد فقط، إلا أنه لم يستبعد وجود آلهة أخرى، إلا أنه عندما اندمج بنو اسرائيل فى أهل البلاد وأصبحوا على درجة كبيرة من الثراء اتسعت كذلك آفاق دينهم، وأدت تجارتهم المتزايدة الى النتائج الحتمية التى يمكن أن نراها اليوم فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، ألا وهى المادية والوصولية، والذى يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال هو أن تقع الكارثة. إلا أنه كان من نفس تلك الكارثة أن قامت ديانة اليهود الروحانية وذهبت كل العوامل المادية التى كان الدين معتمدا عليها وبدأ يبرز حثيثا شيئا أكبر وأشد روحانية، وأكثر استدامة.

وتمر السجلات اليهودية مر الكرام على الفترة من أيام عزرا الى عهد أنطوخيوس، إلا أن الديانة اليهودية فى هذه الفترة كانت قد وصلت فى هدوء إلى مستويات أخلاقية^(١٠) جديدة، حيث بدأت، اعتباراً من هذه المرحلة، تعظ بأن الله ينبغى أن يعبد لذاته، لا طمعا فى جزائه. وفى حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد ظهر كتاب يشوع بن سيراخ الذى يطلق عليه فى أسفار «الابوكريفا»، أى الاسفار الخفية أو الغير موثوق بها والتى لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة، ولكنها بالرغم من ذلك مليئة بالجمال والحكمة:

يا بنى، كن لين الجانب فى معاملتك

يحبك الناس أكثر مما يحبون الجواد الكريم

ولتكن متواضعا كلما عظم شأنك

كى تنال رضى الله العظيم

(١٠) دجى. اف. مور، «الديانة اليهودية».

ما أكثر الذائعى الصيت المتعاضمين

لكن الله يوحى بسرهِ إلى المتواضعين

فهو جلت عظمته

يقبل دعاء الخاشعين.

وما أطول سنى التقدم الهادى التى تباعد بين هذا الشعر وبين مطالب
صموئيل بإبادة العمالق بالكامل.

* * *

وبالنسبة للفرد، يمكن أن تؤدى المعاناة الى نتيجتين مختلفتين فقد يزداد
عمق سمة المعاناة فتجعله أكثر رقة، وأشد شفقة، وأعظم عطفا على الآخرين، أو قد
تجعله مغیظا من الله ومن الناس فتؤدى به إلى التعصب المتزمت جريا وراء الانتقام
لنفسه. وقد ألحت زوجة أيوب على زوجها لكى يجافى الله ويموت ولكنه أجاب
«الخير نقبل من عند الله والشر لانقبل؟» ويبدو لى أن رد فعل اليهود كان على
هذا النحو، فان الكارثة المروعة التى حلت بهم، كارثة الغزو البابلى، أدت إلى
نتيجتين، فأصبح البعض قديسين، بينما صار البعض الآخر متعصبين متزمتين،
وكان للأنموذجين الاثنین أن يمضيا معا جنبا إلى جنب.

* * *

ولا يمكن القول بأن «اليهود»، فى أى وقت من الأوقات، كانوا يؤمنون بهذا
أو بذاك، فما أشد تعقيدات أحوال البشر. ومع هذا، يمكن الاستدلال على
الاتجاهات التالية حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

أولا، لم تكن أغلبية اليهود الساحقة موجودة فى يهودا، بل إن اليهود كانوا
يملاؤن الدنيا، وكان أكثرهم من الوثنيين الذين تهودوا حديثا. ثانيا، فى يهودا

اصطبغت الى حد كبير الكهنوتية الارستقراطية (وسرعان ما سميت بالصدوقية) بالهللينية وأصبحوا قابلين للرشوة وفاسدين للغاية. ثالثاً، بدأ كثير من المفكرين الهادئين يفكرون في الله باعتباره رب العالمين، وليس باعتباره رب اسرائيل دون غيرها. رابعاً، قبل بابل، كان تفكير بنى اسرائيل تفكيراً قبطياً، يعنى طائفياً وقد جاهر الأنبياء بأن اسرائيل أذنبت وأنه لا مفر لها من العقاب. لقد كانت الطائفة جميعها مسئولة، وجعل زوال يهودا والهيكل والهجرة الى الدول الأخرى الأفراد مسئولين عن نفس تقواهم وولائهم للدين.

وقد أدى الاحساس التدريجى بأن يهوه (أو أدوناي كما سمي أخيراً لتحريم نطق حروف الجلالة ي. هـ. و. هـ. ونطق الحروف أ. د. ن. ي. بدلاً منها. المترجم) هو رب العالمين الى الارتياب فى أن اسرائيل قد لا تكون هى الوحيدة التى ستنال رحمته. وجعل «الاعتقاد بأن الدين الحق يجب أن يكون ديناً شاملاً، آخر الأمر، فى حد ذاته، وجعل من الديانة ديانة تبشيرية»^(١١).

ويستطرد دجى. اف. مور فيقول: «ان العبادة المقصورة على إله واحد فقط.. لاتعتبر، بمقتضى قانون الدين القومى، توحداً على الاطلاق»، لأن التوحيد هو الاعتقاد بوجود إله واحد فقط. «ولما عرف مضمون التوحيد، وجد أنه يصطدم بعدم شمول العلاقة المتبادلة بين الله واسرائيل» وبناء على هذا تحمس اليهود حماساً شديداً لتغيير دين العالم. إلا أنهم ظلوا يتوقون للاحتفاظ بالدور الرئيسى لأنفسهم ومن ثم ظهر التعارض بين فكرة تحويل العالم الى الديانة اليهودية من جهة، وبين سيادة اليهود المستمرة، من جهة أخرى، وكان الحل هو أن الوثنى الذى يغير دينه يجب أن تتبناه الطائفة اليهودية على غرار تبني الأبناء والبنات فى العائلات فى العصور الكلاسيكية بحيث يصبح المتبنى عضواً كاملاً فى عائلته الجديدة بعد أن ينكر عائلته القديمة انكاراً تاماً.

(١١) دجى. رف. مور «الديانة اليهودية».

كان هذا الاحتياط عقبة في وجه كثير ممن يرغبون التحول لليهودية، لكنه ضمن الابقاء على الصفات المميزة للطائفة اليهودية، وهى استقلال الأصول السلالية. وهكذا لم يقدر للديانة اليهودية أن تكون ديانة عالمية بل بقيت ديانة طائفية معينة. وفى كثير من الدول كان العنصر السلالي «اليهودى - الفلسطينى» قليلا لدرجة غير ملموسة، إلا أن المجتمع اليهودى احتفظ بالميزات الخاصة للحياة اليهودية.

وقد كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهوديا من جميع الوجوه (تاركا جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة الجالية اليهودية) أمرا حاسما، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى كثير من الأمور، بالرغم من انتمائهم الى سلالات مختلفة لاتدخل تحت حصر. وتزعم الديانة اليهودية أنه قد أوحى بها من الله الى موسى عليه السلام، فلا يمكن والأمر كذلك أن يتغير شىء منها أو يتبدل من الوجهة العملية، دون القول ضمنا بأن الوحي الأصلى كان مخطئا، ولكن فى الواقع، تغيرت الديانة اليهودية تغيرا كليا. وقد تم هذا التغيير على أيدي الحاخامات الدينيين الذين استطاعوا أن يستنبطوا ايماننا روحانيا جديدا من آيات هنا وهناك فى العهد القديم. كما أنهم أيضا وضعوا بأنفسهم قواعد جديدة فرضت بمنتهى الصرامة. ولم يظهر الاعتقاد فى الخلود الا حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد، إلا أن الديانة اليهودية كانت، حتى ذلك الوقت، تتطلع إلى عصر ألفى سعيد على الأرض ولم تكن تنظر إلى الحياة الأخرى.

وقد أعطى الغزو البابلى بتدميره الهيكل الفرصة لميلاد المعبد أو الكنيس (دار العبادة لليهود) حيث ما تجمع عدد منهم (عشرة على الأقل) * . وكان الكنيس (المعبد) فى الأصل مدرسة لتعليم التشريع الدينى، إلا أنه صار بعد ذلك بوقت

(*) يطلق على المصلين العبادة اللازمة لاقامة الصلاة إسم «مبيان» بالعبرية (المترجم).

طويل مكانا للعبادة. وعلى ذلك كانت هذه المدرسة فى كل مكان اشارة إلى الجالية اليهودية حيث لم يكن للوثنيين مدارس دينية أو أساليب منظمة لتعليم دينهم.

وكانت مدرسة الكنيس «بيت - همدراش» هى الأداة الرئيسية التى يتم عن طريقها الدخول فى دين اليهود، وكانت مفتوحة للجميع. ولما كان التعليم فيها باللغة اليونانية واللغات المحلية الأخرى فإن كثيرا من الوثنيين كانوا يستمعون إلى الدروس التى تلقى فيها. وقد تأثر بهذه الدروس كثير من الناس فى ذلك العالم البائس المتدهور.

ويقول دجى. اف. مور بأنه «فى عصر يوحنا المكابى، على سبيل المثال، لم يكن هناك يهودى واحد فى الجليل ولكن بعد قرن كان اليهود أغلبية عظمى». وكان بعض هؤلاء قد تحول من الوثنية قسرا كما سرى فيما بعد، إلا أن بعضهم تحول طائعا مختارا.

و«ليست هناك طريقة لاحصاء التبشير اليهودى (لتحقيق التحول الدينى) فى الحقبة التى يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك فى أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخلون فى دين اليهود من أجناس كثيرة، ومن كل طبقات المجتمع»^(١٢). وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين فى القرن الثانى بعد الميلاد من أصل وثنى مثل الحاخام عقيبا الشهير.

وإذا كنا بصدد الدخول فى العصر الرومانى، فقد يكون من المفيد أن نذكر كلمة عن الامتيازات اليهودية التى أشرنا إليها فيما تقدم، حيث كان التسامح الدينى فى العصور القديمة أمرا محوطا بالاحترام الشديد الصادق. فقد كانت آلهة

(١٢) دجى. اف. مور «الديانة اليهودية».

الدول يجمال أحدهم الآخر، إلا أن إله إسرائيل كان عفيفا، لا يحب المعاشرة، وكان يرفض الأخذ والعطاء فى مجال التسامح الذى كانت الديانات الأخرى على أتم الاستعداد لتبديده له»^(١٣). وكان يبدو فى نظر الوثنيين غيورا يرفض السماح لعباده بأن يؤدوا كثيرا من الأفعال التى كانت اجبارية بحكم القانون.

وبالنسبة للحكومات الأخرى، كان اليهود يشكلون معضلة، فإما أن يجبروا على طاعة القانون وهنا كانوا يرفعون عقيرتهم بالشكوى على أساس أن ذلك اضطهاد دينى، وكان تلك فكرة لاتتلاءم أو تتناسب مع طبقة القدامى، أن أن يمنحوا الامتيازات التى تستثنيهم وحدهم من القانون. ولم يكن اليونانيون والرومانيون يعاقبون الناس بسبب معتقداتهم ولكن فقط بسبب أفعالهم.

ومن بين الامتيازات العديدة التى كانت ممنوحة لليهود وحدهم دون غيرهم الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت، وفى روما عندما كان يجرى توزيع الغذاء على الفقراء يوم السبت كان اليهود ينالون نصيبهم يوم الأحد. وإذا كان الغذاء من النوع الذى يرفضونه أخذوا بدلا نقديا عوضا عنه. وكان تصدير الذهب محظورا، إلا أن اليهود فقط كان فى أماكنهم جمعه وإرساله الى أورشليم.

وكان لليهود، نبي بعض الجهات، أسواق خاصة للمواد الغذائية، كما كان لهم جهاز شرطتهم وقضاؤهم الخاص الذى يمكنه النظر فى القضايا المدنية والجنائية ويوقع العقوبات. كما كان لهم الحق فى عقد الاجتماعات العامة وتشكيل الجمعيات وجمع التبرعات وإنفاقها. ولم يكن لأى طائفة أخرى مثل هذا الحق. وكان تعدد الزوجات محرما بحكم القانون الرومانى، إلا أن اليهود كانوا قادرين على أن يجمعوا بين أى عدد من الزوجات كيفما شاءوا.

(١٣) جين جوستر، «اليهود تحت حكم الروم».

وكان على موظفى الحكومة أن يحضروا الاحتفالات العامة، وكانت اليمين القانونية التى يؤديها الموظف لدى استلام وظيفته تتضمن الإشارة الى صفات الامبراطور الإلهية، وعلى ذلك ففى بعض الأحيان كان اليهود لايعينون فى الوظائف، لأنهم كانوا لايقبلون أداء هذه اليمين. وفى مناسبات أخرى كان المسئولون يتنازلون عن هذه الرسميات بالنسبة لليهود فقط أو يتخذون صيغة أخرى لليمين القانونية. وعلى أية حال فقد وصل كثير من اليهود إلى مرتبة فارس روماني كما كان هناك أعضاء من اليهود فى مجلس الشيوخ الروماني. وليس بمستغرب كذلك أن تضج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التى ينالها المواطنون الآخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات».

ولم تسبب الثورات فى يهودا أى إنتقاص لهذه الامتيازات فى جميع أنحاء الامبراطورية. ففى أعقاب ثورة من هذه الثورات أخذ كثير من اليهود الى روما كرقيق، وعمل جزء منهم فى القصر الامبراطورى. وعلى مر السنين أعتقوا تدريجيا، وكان اليهود الذين أعتقوا من القصر معروفين للامبراطور فكانوا يرسلون الى الولايات بصفة مبعوثين شخصيين له لتوزيع الرسائل السرية وللتحقيق فى المشاكل. ويقال أن بوبيا عشيقة نيرون ثم بعد ذلك زوجته، كانت من المؤمنات بالدين اليهودى، وان كانت غير ملتزمة بكثير من قواعده. وعلى أية حال كانت تستخدم نفوذها الواسع فى مساعدة اليهود.

وكان أوغسطس يبعث بالهدايا القيمة إلى المعبد فى أورشليم وكان لزوجته ليفيا وصيفة يهودية. وقد عاش أطفال الأسرة اليهودية^(١٤) عددا طويلا من السنين فى روما وكانوا على علاقة طيبة مع العائلة الامبراطورية، كما «انتقلت بعض

(١٤) انظر الفصل الثانى.

العادات اليهودية الى الدوائر الرومانية الوثنية، بل لعلها انتقلت كذلك إلى الدوائر الاجتماعية العليا. وكان اليهود نشيطين في الحصول على مهتدين لآرائهم وعاداتهم الدينية»^(١٥).

وكان سعيهم النشط لتهويد الأهالي هو الذى سبب لهم المتاعب فى روما من آن لآخر، وبخاصة عندما كان الداخلون فى دينهم من «صفوف الطبقات الاجتماعية العليا»، ولا يمكن أن توصف الشكايات من اضطهاد اليهود الخفيف على أيدي الرومان بأنها تاريخية.

تواريخ تستحق الذكر

الفتح البابلى	٥٨٧ ق.م
الاسكندر الأكبر	٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م
فتح الاسكندر لمصر	٣٣٢ ق.م
استبدال اسم يهوذا باسم «أدوناي» حوالى	٣٠٠ ق.م
بدء الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة حوالى	٢٨٠ ق م

خاتمة

- ١ - بدأ التشتت بالفتح البابلى سنة ٥٨٧ قبل الميلاد.
- ٢ - وجد اليهود حياة أكثر ترفا وشمولا أرحب فى بابل ومصر وسوريا واليونان ولم يرجع الى يهوذا سوى قليل منهم.
- ٣ - بعد عام ٣٠٠ قبل الميلاد تحول عدد كبير من الوثنيين الى الديانة اليهودية.
- ٤ - أدت الكارثة البابلية الى نتيجتين متضادتين.
- أ - روحانية اليهودية التى تتخيل آلهة واحدا لجميع البشر.
- ب - قومية متعصبة ضيقة الأفق تطالب بالعزلة عن الجنس البشرى من غير اليهود.

(١٥) هنرى جى ليون «يهود روما القديمة».

الفصل الثامن

الهيروديون

(ملوك اليهودية عند مولد المسيح)

لم يكن هيرود يالكامل بشعا نازعا الى الشر.. فقد كان جذابا فى شبابه.. بل إن سحره وفتنته كانتا تسيطران على الرجال والنساء.. والرجل الذى استطاع أن يصادق أنطونيو أوغسطس لايمكن أن يكون خاويا أو خاملا. فلقد كان كل الناس يتملقون هذين الرجلين، وبخاصة عملاؤهما، ولك هيرود فقط اكتسب صداقتهم، وكان هيرود فقط هو الذى أصبح أمين سر أجريبا، وهو وحده الذى عينه أوغسطس مستشارا رسميا لحاكم سوريا الرومانى، ويوحى كل هذا.. بمقدرة هيرود الفائقة.. وإثبات أن هيرود كان يملك هذه الصفات هو كفايته الإدارية.. فقد عرفوا أنهم يستطيعون الاعتماد عليه اعتمادا مطلقا. وكان السلام يرفرف على البلاد فى عهده، وانتعشت التجارة وأعيد بناء المدن وأقيمت مدن جديدة

ستيوارت بيرونى «حياة وزمن هيرود الأكبر».

الفصل الثامن

خلف إنهيّار السلوقيين الشرق الأدنى في حالة من الفوضى، ففي يهودا أدت ثورة المكابيين إلى انفجار ونشاط العدوانية الحربية، وأصبح الهدف الآن يوضح ليس حماية الدين اليهودي، بل تقوية النفوذ اليهودي وامتداده^(١).

وفي عهد يوحانان هيراكينوس المتوفى عام ١٠٤ قبل الميلاد، زاد كثيرا العداء بين الحشمونيين (الأسرة الحاكمة) وبين الفريسيين (غلاة المتدينين). وصاحب ذلك تزايد القومية العدائية التي كشفت عن نفسها في التوسع الإقليمي عن طريق الغزو. ولما كان هيراكينوس مكروها في وطنه فقد استخدم المرتزقة المجندين في آسيا الصغرى. وبعد غزو ادومية استولى على ماريسا وأدورا في سهل فلسطين، ومرة أخرى أجبر السكان على إجراء عمليات الختان. ومنذ الفتح البابلي كانت الرغبة الجامحة في ادخال العالم في دين اليهود آخذة في الازدياد، ومع أن الحشمونيين لم يكونوا متدينين أصلا، إلا أنهم كانوا قوميين عدوانيين استخدموا القوة لادخال الناس في دينهم.

وقد خلف يوحانان هيراكينوس ابنه يهودا، وكان يسمى بالاسم اليوناني ارستوبولس (١٠٤ - ١٠٣ قبل الميلاد)، وكان محبوبا من اليونانيين مع أنه، بناء على ما ذكره يوسفوس، قتل أمه وأخاه. وقد فتح الجليل الذي كان يسكنه أناس أطلق عليه اسم، الذين أجبروا على إجراء عملية الختان.

وفي عصر يوحانان المكابي لم يكن هناك فعلا يهود في الجليل^(٢) حتى لقد أطلق عليها إشعيا اسم «جليل الوثنيين». ولا بد أن يكون سلف أهل الجليل في

(١) اميل شورر، «تاريخ الشعب اليهودي».

(٢) دجي. اف، موز «الديانة اليهودية».

عهد يسوع المسيح كانوا من الوثنيين^(٣). وقد يزعم كثيرا من المسيحيين أن يسمعون أن بعض الحواريين الاثنى عشر لا ينتمى إلى الملة اليهودية.

وقد خلف ارستوبولس الكسندر جاناي (يوناثان) (١٠٣ - ٧٦ ق.م) الذى اتخذ لنفسه لقب ملك و«أثبت الملك - الكاهن الجديد أنه وغد أثيم لأن عهده كان عهد حروب، وامتدت مملكته بقوة السلاح إلى أن طابقت عمليا مملكة داود»^(٤).

وهاجم الكسندر جاناي (يوناثان) بطلميوس ولكنه صده بخسائر كبيرة فتحول شرقا واستولى على المدينة اليونانية جادارا، وفى عام ٩٦ قبل الميلاد غزا السهل الساحلى المصبوغ بالصبغة الهلينية واستولى على غزة وأحرقها. وبعدئذ غزا الجولان^(٥) حيث هزم هزيمة منكرة ووصل إلى يهودا هاربا عام ٩٠ ق.م. وكانت هذه الهزيمة إشارة لبدء الثورة التى دبرها الفريسيون واستنفدت سنتان من الحرب الأهلية موارد جاناي فطلب الاتفاق، إلا أن الثوار أصروا على قتله. واستمر القتال، وكان يساعد الثوار الأمير السلوقي ديمتريوس الثالث وهو من سبط شقيق أنطوخيوس ايفانس، ومرة أخرى هزم جاناي.

إلا أن ظهور السلوقيين أزعم كثيرا من اليهود، وكان ذلك مدعاة لأن يحصل جاناي على المساعدة واستطاع أن يخوض الثورة بعد ست سنوات من الحرب الأهلية الوحشية. وقد احتفل بانتصاره بطريقة اتسمت بأبشع الأعمال البربرية فى التاريخ، حيث ذكر المؤرخ اليهودى يوسفوس أنه «بينما كان يحتفل مع محظياته على مرأى من المدينة كلها أمر بصلب ثمانمائة منهم (يعنى من

٣ تاريخ كمبريدج القديم: المجلد التاسع.

٤ تاريخ كمبريدج القديم، المجلد التاسع.

٥ ارتفاعات الجولان التى استولت عليها دولة اسرائيل الحديثة سنة ١٩٦٧ (المترجم).

الثوار)، وبينما كانت الحياة لاتزال تنبض فى أجسادهم أمر بذبح أبنائهم وزوجاتهم أمام عيونهم. وكان ذلك على سبيل الانتقام للضرر الذى أوقعوه به»^(٦).

وما أن استرجع سلطته حتى استأنف حروبه العداونية. وبينما كان يحاصر قلعة على مقربة من جراسا (جرش) عام ٧٦ قبل الميلاد مات متأثرا من التسمم الكحولى بسبب الإفراط فى تناول الخمر «وكان يعانى منه طوال سنوات ثلاث»، واجتاحت فتوحات جانائى البربرية مدن جنوب سوريا اليونانية كما تجتاحها عاصفة مدمرة، فأصبحت خرابا يبايا وكانت من قبل عامرة بالسكان^(٧).

وخلفت جانائى زوجته سالومى الكسندرا التى حكمت تسع سنوات، وبإدارتها تولت السيدات الحكم فى إسرائيل، إلا أن ذلك الأمر كان مألوفاً فى الأسر المصرية واليونانية الحاكمة. وقد نصح جانائى زوجته، وهو على فراش الموت، بأن تفعل عكس سياسته وتنتهج سياسة التصالح مع الفريسيين بل وترتبط بنفسها معهم^(٨). وقد عملت الملكة مخلصه بهذه النصيحة فنعم حكمها بالسلام، لأن الفريسيين كانوا يحظون بتأييد شعبى واسع. وقد عين ابنها هيراكينوس الثانى حاكما أعظم، وكان رجلا ضعيفا يسيطر عليه الفريسيون. وورث ابنها الآخر، إرسطوبولس الثانى روح العنف عن أبيه. وعندما توفيت الأم نشبت الحرب الأهلية بين الأخوين وكان الصدوقيون فى صف إرسطوبولس الثانى.

وكان يوحانان هيراكينوس قد عين أنيباتر الادومى حاكما على ماريس وأدورا. وقد تزوج ابنه انيباتر الثانى من وريثة تبرا التى أنجبت له أربعة أبناء هم فزال وهيرود ويوسف وفيروراس. ومع أن أصل سلالة العائلة كان من الادوميين إلا أنها أجبرت على اعتناق الديانة اليهودية على يد يوحانان هيراكينوس^(٩).

(٦)

(٧) تاريخ كمبريدج القديم.

(٨) يوسفوس فلافيوس «آثار اليهود».

(٩) شجرة سلاة الهيروديين.

وتولى انيباتر الثانى السلطة تحت إمرة هيراكينوس الثانى، الرجل الضعيف الذى سرعان ما أجبره على الانسحاب أخوه العنيف أرسطوبولس الذى نصب نفسه حاخاما أعظم. ولكن حرض أنيباتر النبطيون على تأييد هيراكينوس الثانى وحوصر إرسطوبولس الثانى فى المعبد.

وفى غضون ذلك، أى عام ٦٦ ق.م. أرسل مجلس الشيوخ الرومانى بومبى قائدا عاما للشرق. وفى عام ٦٤ ق.م. وصل بومبى الى دمشق حيث استقبلته ثلاثة وفود يهودية متنافسة، وكان وفد منها من قبل هيراكينوس وعلى رأسه انيباتر، والثانى من أرسطوبولس والثالث من شعب يهودا ليلتمس إبعاد الحشمونيين جميعا. واستولى بومبى على اورشليم ودخل قدس الأقداس، إلا أنه على نقيض انطوخىوس أبيفانس لم يستولى على الكنوز، وأرسل إرسطوبولس الى روما ليحضر موكب نصر بومبى، بينما حصلت ديلوماسية انيباتر لهركانيوس الثانى على لقب الحاكم.

وحرر بومبى المدن اليونانية التى فتحها الحشمونيين، بما فى ذلك كل السهل الساحلى واحتفظت يهودا بجزء من ادوميا الجليل وجزء من بيريا التى هود سكانها رغما عنهم. ولكن وضعت يهودا نفسها، مع حاكمها اليهودى، تحت ادارة الوالى الرومانى فى سوريا. وهكذا مثلما كان التنافس على منصب الحاخام الأعظم دافعا للسلوقيين للحضور الى اورشليم، أحضرت الحروب الأهلية الحشمونية الرومان.

كان انيباتر هو القوة الحقيقية، فى اورشليم، وراء هيراكينوس، ولقد أثار الكسندر بن إرسطوبولس الثانى حرب عصابات إلا أنها أخمدت. وعقد هيرود الاين الثانى لانيباتر صداقة وطيدة مع ضابط رومانى شاب اسمه مارك انطونيوس.

وكانت روما فى تلك الفترة تمزقها الحرب الأهلية بين بومبى ويوليوس قيصر. وفى شهر أغسطس عام ٤٨ قبل الميلاد هزم بومبى فى فرسالوس وفر إلى مصر، حيث أغتيل عندما كان ينزل الى البر. وسرعان ما وصل يوليوس قيصر بعد

ذلك على رأس قوة صغيرة، إلا أنه وجد نفسه فى موقف حرج، لأن الحامية الرومانية كانت فى صف بومبى. وسرعان ما حول أنيباتر صديق بومبى صداقته فى اتجاه القيصر. فسار على رأس ثلاثة آلاف يهودى لمساعدة قيصر فى مصر مغريا ملك النبطيين على إرسال خيالته، وأعرب قيصر عن امتنانه العميق مظهرا مودة ملحوظة لليهود. وفى مقابل هذه المساعدة سمح لهيراكينوس بضم مدينة يوبا اليونانية التى حررها بومبى والتى كانت مخرج أورشليم الوحيد الى البحر.

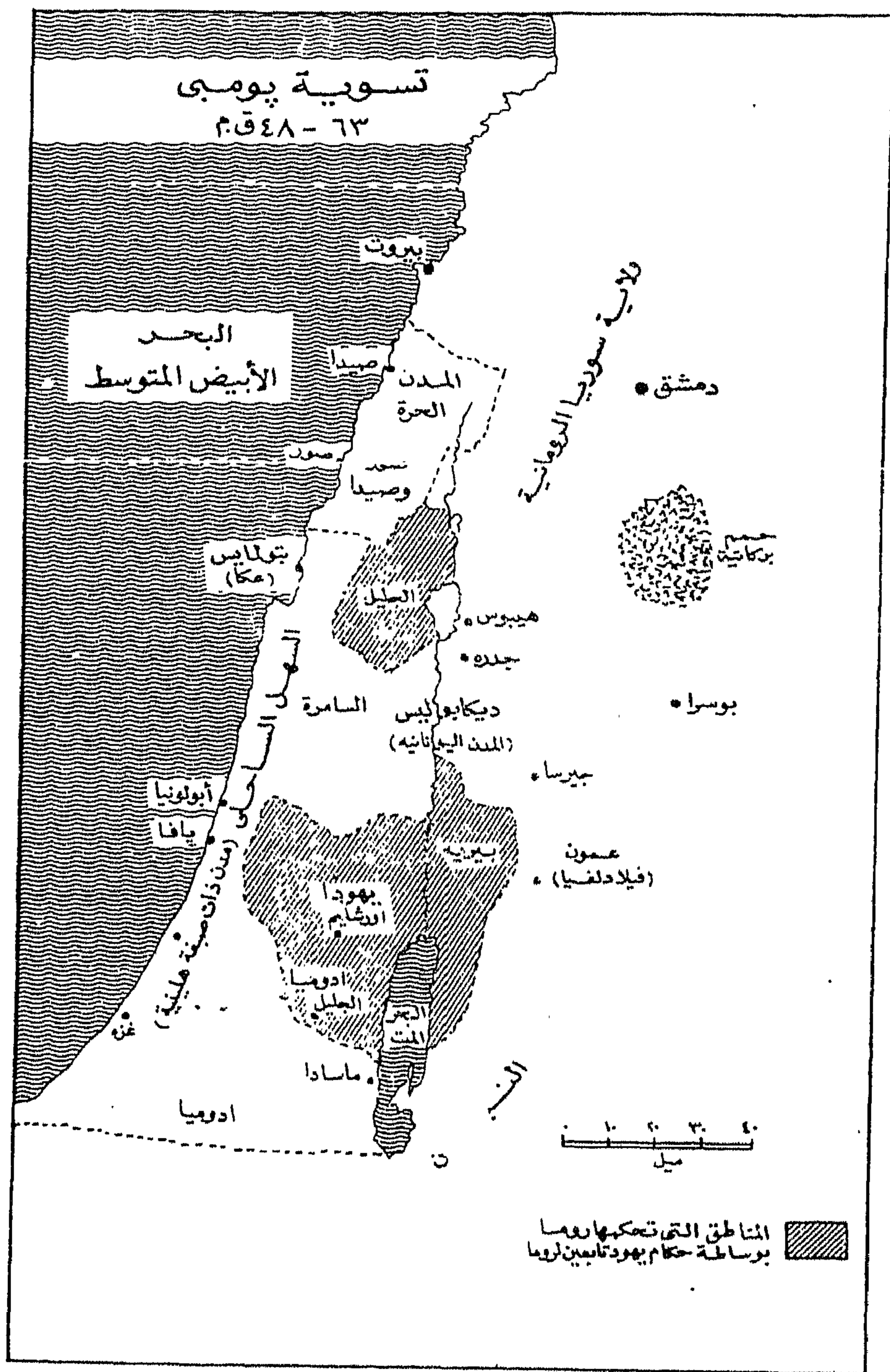
وأغرى انيباتر اليهود فى مصر على مساعدة قيصر، كما فعل يهود روما وهكذا تحول انيباتر بمهارة فائقة الى الجانب الرابع. وأعلن قيصر أن منصب الحاخام الأعظم وراثيا فى سلالة هيراكينوس، وحصل انيباتر على لقب مواطن روماني، وسمح له ببناء أسوار أورشليم، وذلك بمقتضى قرار أصدره قيصر فى انطاكية فيما بين الثالث عشر والثامن عشر من شهر يوليو عام ٤٧ ق.م^(١٠). وقد حكم على يهودا بأن تقدم ربع محصولها من القمح الى روما. ولم يتمكن انيباتر من إعادة بناء أسوار أورشليم وحسب، بل أضاف سورا خارجيا جديدا أيضاً على الجانب الشمالى^(١١).

وفى ذلك الوقت كان هيرود الابن الثانى لانيباتر فى السادسة والعشرين من عمره، وسيما طويل القامة، ذا صفات خلابة، وكان على علاقة طيبة مع اليهود والعرب واليونانيين والرومانيين والمصريين، كما كان قويا شديد المراس نظرا لمعيشته فى معمران الحروب الأهلية التى لم تتوقف، وفى خضم الخيانة والاغتيالات وإراقة الدماء فى يهودا. وقد أثار رجل يدعى ايزيكيا (حزقيال) حرب العصابات اليهودية فى الجليل، وأرسل هيرود لاختماد هذه الثورة وسرعان ما هزمهم وقتل ايزيكيا.

وقد أثارت السلطة المتزايدة، التى أتاحت لهذه الأسرة الأيدومية غير الارستقراطية الدينية، فحرضت هيراكينوس، الرجل الضعيف، على محاكمة هيرود

(١٠) ستورات بيرون «حياة وحكم هيرود الأكبر».

(٢) خريطة (١٨).

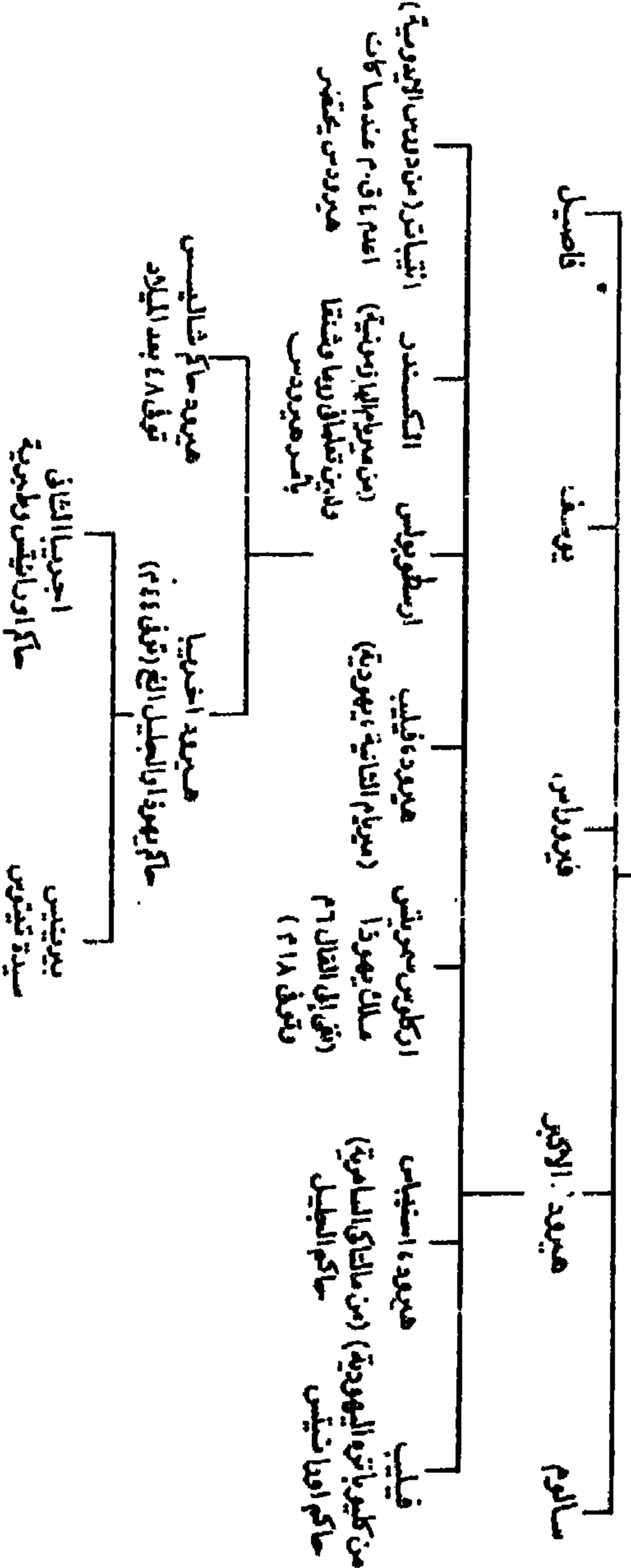


خريطة (١٤)

1. The first step in the process is to identify the problem or issue that needs to be addressed. This involves gathering information and understanding the context of the problem.

تبیان الاول (تلف ۷۰ ق ۲۰)

تبیان الثانی (توفی ۱۴۳۳ ق.م)



أمام السنهدرين وهى هيئة مؤلفة من الفريسيين والصدوقيين والأعيان. وكان واضحا أنها سوف تحكم بإعدام هيرود لقتل ايزيكيا، وبناء على ذلك، فر إلى سكتوس قيصر الوالى الرومانى فى سوريا الذى عينه حاكما على سوريا الجنوبية والسامرة. وقد أقنع هذا الحادث هيرود بعدم الوثوق فى اليهود وضرورة الاعتماد على صداقة روما.

وظلت الحروب الأهلية الرومانية قائمة، فقتل سكتوس بأيدي عصابة بومبى التى كانت مجتمعة فى بارثيان. وفى الخامس عشر من شهر مارس ٤٤ قبل الميلاد قتل يوليوس قيصر فى روما. ويصف سوتينوس^(١٢) حزن يهود روما العميق على يوليوس قيصر الذى كان قد أفاض عليهم فضلا وخيرا كثيرا، حيث أكد حقوقهم فى ممارسة دينهم والتخلف عن الاحتفالات الرسمية، وسمح لهم بجمع الأموال وارسالها الى اورشليم وأعفاهم من الخدمة العسكرية.

وجاء كاسيوس أحد قتلة قيصر إلى سوريا واليا عليها سنة ٤٣ ق.م. وغير انيباتر صديق قيصر المبدأ مرة أخرى، اذ كان كاسيوس فى حاجة إلى المال فجمع له أنيباتر مبلغا كبيرا من يهودا. وإبان هذه الأزمات قتل أنيباتر بالسم الذى دسه له منافسوه فى اورشليم، إلا أنه كان قد استطاع أن يكسب كاسيوس الى جانبه فى الوقت المناسب، فأرسل كاسيوس نجدة إلى هيرود الذى كان لا يزال حاكما على سوريا الجنوبية، وسيطرت الفوضى على يهودا، وكان هيراكينوس الثانى طاعنا فى السن، وعمل على تشجيع أعداء هيرود. وهكذا بقيت يهودا فى الفوضى بسبب الحروب الأهلية والفساد.

وتحركت الجيوش الرومانية المتنافسة بعضها صوب بعض فى اليونان، وكان مارك أنطوني وكتافيون (أوغسطس المستقبل) على رأس حزب يوليوس قيصر، بينما كان بروكس وكاسيوس على رأس الجمهوريين. وكان لهيرود صديق حميم

(١٢) حياة القياصرة، سوتينوس.

فى كل من الجانبين المتخاصمين - مارك أنطونيو وكاسيوس اللذين وطد بعناية صداقته معهما فى سوريا. واذ كان هيرود يأمل فى أن يخلف هيراكينوس فقد تقدم لخطبة ماريام حفيدة الرجل العجوز آملا أن يستطيع بذلك التسلل الى الأسرة الملكية. وكان هيرود متزوجا بالفعل، ولكن كانت الديانة اليهودية تسمح بتعدد الزوجات.

وفى أكتوبر عام ٤٢ ق.م. هزم مارك أنطونيو واكتافىوس بروتس وكاسيوس فى فيلبى. وفى سنة ٤٣١ ق.م جاء مارك أنطونيو الى صور حيث رحب به صديقه القديم هيرود، كما جاءت إليه وفود من يهودا لترفع شكواها ضد هيرود، إلا أن إلحاحهم وازعاجهم كان سببا فى إغضاب انطونيو الذى أمر بالقبض عليهم، وحصل كل من هيرود وأخوه فازال على لقب حاكم مقاطعة.

ومن سوء الطالع أن أنطونيو ذهب إلى مصر حيث وقع فى أسر كليوباترة التى أمضى معها عام ٤١ - ٤٥ ق.م، وغزا البارثيون سوريا دون أن يلقوا أية مقاومة وكانوا قد اصطحبوا معهم أنطوجينوس ابن إرسطوبولس الثانى حفيد الكسندر جاناي^(١٣). وقد دعى هيراكينوس الثانى فازال الى مؤتمر حيث ألقى القبض عليهما بطريقة غادرة وقتل فازال بينما نفى هيراكينوس الى بابل وأصبح أنطوجينوس ملكا وحاخاما أعظم.

وفجأة وجد هيرود نفسه، والذى كان منذ ستة أشهر مضت الصديق المبجل لحكام روما، محاطا بالأعداء، وهاربا من أورشليم. وترك هيرود عائلته فى قلعة مسارا فارا الى مصر. وكان مارك أنطونيو قد سافر الى روما، فوجهت كليوباترة الدعوة إلى هيرود الشاب الوسيم لتمضيته الشتاء معها، ولكن هيرود أبى أن يضيع وقته فى الغزل والمداعبة. ومع أن الوقت كان شتاء وكان السفر بالبحر يعتبر مخاطرة

(١٣) شجرة سلالة الحشمونيين.

كبيرة، فإنه أبحر إلى رودس وتحطمت السفينة التي كانت تقله تقريبا فنزل إلى البر معدما موحلا، إلا أنه لم يكن قد فقد فتنته الشخصية فاستطاع، وهو في رودس، أن يجمع من المال ما يكفي لاعداد سفينة رائعة ذات صفوف ثلاثة من المجاديف وصل بها الى برنديزى فى صورة ملكية. وقد رحب به مارك أنطونيوس فى روما، واكتسب صداقة أوكتافيوس الشاب، ووافق مجلس الشيوخ بالاجماع على قرار بتعيين هيرود ملكا على يهودا.

ومن حسن حظ هيرود أن أنطوجينوس منافسه الحشمونى كان قد ربط نفسه بالبارثيين، وبالتالي تأكد لهيرود معاونة روما التامة. وعلى الرغم من ذلك كان نجاحه السريع مكافأة غير عادية لشخصيته «فلقد فتح هيرود روما، ولازال باقيا أمام الملك هيرود أن يفتح أورشليم»^(١٤). وفى غضون ذلك كان البارثيون قد انسحبوا تاركين أنطوجينوس ملك يهودا.

وعلى حين فجأة نزل هيرود فى بتولمايس فى أوائل عام ٣٩ قبل الميلاد. وقد أتاحت له زيارة خاطفة قام بها للجليل، التى كان حاكما عليها فيما سبق، أن يحصل على المجندين، ومن ثم تحرك بسرعة جنوبا على السهل الساحلى مستوليا على يوبا ثم استأنف تقدمه إلى ادوميا حيث حرر أسرته التى حاصرها أنطوجينوس فى مسادا، ودونما راحة تحرك هيرود شمالا حيث ضرب الحصار على أورشليم، وفى أثناء ذلك جاهرت السامرة، التى دمرها الحشمونيون تدميرا ذريعا، بهيرود. وأصبحت أورشليم الآن محاصرة من كل جانب، ولكنها قامت مقاومة مستميتة ولم يتمكن هيرود من الاستيلاء عليها.

وكان من حسن طالع هيرود أن مارك أنطونيوس نزل فى سوريا عام ٣٨ قبل الميلاد فتبادل الصديقان التحية واقترض هيرود فرقتين رومانيتين من صديقه، وبين

(١٤) ستيورات بيرونى، «حياة وعصر هيرود الأكبر».

مناظر العنف والدم المرافق اقتحمت قوات هيرود أورشليم مستولية عليها، وأعدم انتوجينوس وأعلن هيرود نفسه ملكا. وهكذا منذ ثورة يوحانان المكابي عام ١٦٦ قبل الميلاد، ظل العنف يمزق فلسطين والدم يجرى فيها أنهارا طوال المائة والثمان وعشرين عاما التالية.

وفي عام ٣٢ قبل الميلاد قطع أنطونيوس الذي كان يعيش مع كليوباترة علاقته مع أوكتافوس. وكانت الملكة التي تمقت هيرود نظرا لصدده إغوائها له عام ٣٠ قبل الميلاد قد أغرت أنطونيوس ليعطيها سوريا والسامرة وحتى أريحا، إلا أن أنطونيوس هزم في الثاني من شهر سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد على يد أوكتافوس في معركة اكتيوم ومات بعد ذلك وقت قصير. وكان على هيرود صديق أنطونيوس الحميم أن يتحول إلى الجانب الآخر، فأبحر ليقابل أوكتافوس المنتصر في جزيرة رودس. ومرة أخرى كسبت جاذبيته الموقف وثبته أوكتافوس في مملكته.

وجاء أوكتافوس الى سوريا ثم سار إلى مصر إلى جانبه هيرود وسط هتافات الجماهير (لم يكن هناك بطبيعة الحال أية مدن يهودية على السهل الساحلي)، وهو ما أقنط أعداء هيرود، الذي كان في عهد الحروب المستمرة دائما في الجانب الفائز.

وابتداء من عام ٤٠ قبل الميلاد فصاعدا تمتعت يهودا تحت حكم هيرود بالشراء والأمن لأول مرة خلال مائة وست ثلاثين سنة، حيث كتب له النجاح بفضل سياسة المودة التي كان ينتهجها مع روما وبفضل اتصالاته الشخصية مع أوغسطس. وكانت مملكة هيرود هامة بالنسبة لروما، لأنها كانت في منتصف الطريق بين سوريا ومصر، وهما ولايتان من أغنى الولايات في الامبراطورية. ثانيا، كانت بارثيا أقوى منافس لروما، وكان من الأهمية بمكان أن يظل الشرق الأدنى مواليا لروما. ثالثا، كانت تجارة الشرق الغنية تحمل عن طريق القوافل من عدن عبر مصر وسوريا مارة بأقليم النبطيين أقارب هيرود من ناحية أمه.

كانت يهودا سببا فى متاعب لاحصر لها، إلا أنها كانت مستقرة ومخلصة تحت حكم هيرود. ونتيجة لذلك ترك الاقليم وشأنه مع أدنى ما يمكن من التدخل الامبراطورى، وكان هيرود إداريا ممتازا مثلما كان سياسيا بارعا. وكانت حكومته أقل فسادا من حكومة روما، وكانت الطرق مأمونة والتجارة منتعشة ويهودا مزدهرة. وقد ملأ هيرود الشرق الأدنى بالمدن والمسارح والقلاع، وشيد مدينة رائعة جديدة وميناء فى قيصرية، لأن فلسطين كانت تفتقر إلى الموانئ الطبيعية، وكانت ذروة أعمال هيرود إعادة تشييد المعبد فى أورشليم.

كانت، سيرة هيرود العامة مشرفة إلا أن حياته العائلية كانت مأساة مفرجة. ولعله أراد أن يتزوج مريم لكى يتسلل إلى العائلة الحشمونية ولكنه أحبها أيضا. ولم تبادله هى الحب، بل أنها كانت تفكر فقط فى إعادة الحشمونيين وأغرت هيرود على تعيين أخيها إرسطوبولس الثالث^(١٥) حاخاما أعظم لكى تستخدمه فى تدمير زوجها. وأوغرت دسائس مريم صدر هيرود الذى احتال لاغراق إرسطوبولس فى أريحا.

وصارت الحياة فى القصر جحيما لا تطاق فقد كان هيرود يحب مريمنى لدرجة العبادة ولكنها كانت تمقتة. وكانت سالومى أخت هيرود تكره مريم كرها كبيرا وأقنعت أنحائها بأنها غير مخلصة وأمام مجلس اختيار أعضائه من المؤيدين لسالومى حوكت مريم وحكم عليها بالاعدام ونفذ الحكم. وكاد هيرود الذى كان يحبها من كل قلبه، أن يصبح مجنوننا كئيبا وطاغية مرتابا، وكانت هذه واحدة من أكثر المآسى التى تتخللها المفاجآت المفجعة والأحداث المحزنة فى التاريخ.

(١٥) شجرة السلالة.

وكان اليهود أيضا يكرهون هيرود لتعاونه مع روما، مع أنه جلب لهم بذلك السلام والازدهار، وربما كان ذلك مصير هيرود الاغتيال لو لم يكن يحميه حرسه الخاص المكون من أربعمئة من رجال الغال^(١٦).

وبالإضافة إلى حرسه الخاص احتفظ هيرود، بجيش نظامى من المرتزقة يضم التراقيين والألمان والايديوميين، كما ضم أبناء آسيا الصغرى. وقد بنى المستعمرات العسكرية لهؤلاء العسكريين المتمرسين، وبالتالي أضاف مزيدا من العناصر الغربية إلى الخليط السلالي فى فلسطين.

وفى عام ٢١ قبل الميلاد زار أوغسطس انطاكية حيث ذهب هيرود لتقديم ولائه. وكان هناك اضطرابات فى أورانيس (حوران) جنوب دمشق فأعطى أوغسطس المنطقة جميعها لصديقه هيرود^(١٧) مما كان سببا فى مضايقة النبطيين. وكانت القومية غير ذات بال فى نظر الروم، ولم يكن هناك يهود فى اورانتس، إلا أن هيرود كان مؤاليا وكان اداريا قديرا. ثم قام هيرود بزيارة رسمية لروما حيث استقبل استقبالا رائعا وقد اصطحب معه، لدى عودته، الكسندر وأرستوبولس، ابنيه الباقيين على قيد الحياة من زوجته مريم واللذين كانا فى روما حيث تلقيا تعليمهما.

وكانت أخريات سنين هيرود جد مفاجعة، حيث كانت له عشر زوجات وكان أبناؤهن ينفر بعضهم من بعض، وكان أكثرهم نشاطا فى الكيد والفساد الكسندر وأرستوبولس ابنى مريم اللذان انتهى أمرهما الى حبل المشنقة بناء على أمر الملك الطاعن فى السن.

(١٦) الحاخام ريزين، «رد فعل الوثنيين للمثل العليا اليهودية».

(١٧) خريطة (١٥).

وأصبح هيرود يشكو من مرض عضال أثر في قواه العقلية، كما كان يشكو من الألم الموجه المستمر علاوة على إصابة الجزء الأسفل من جسمه بالنغل (الغرغرينا). وصار القصر مستشفى للمجاذيب، واتهم هيرود أكبر أولاده انبياتر وأمر باعدامه بينما كان هيرود نفسه على شفا الموت. ولا بد أن يكون في هذا الوقت - بينما كان يحتضر، ولعله كان وقتئذ في هذيان الحمى والألم الجسماني البالغ - قد أصدر الأمر الذي جعله مرذولا شائن السمعة، وهو الأمر الخاص بذبح الأبرياء في بيت لحم.

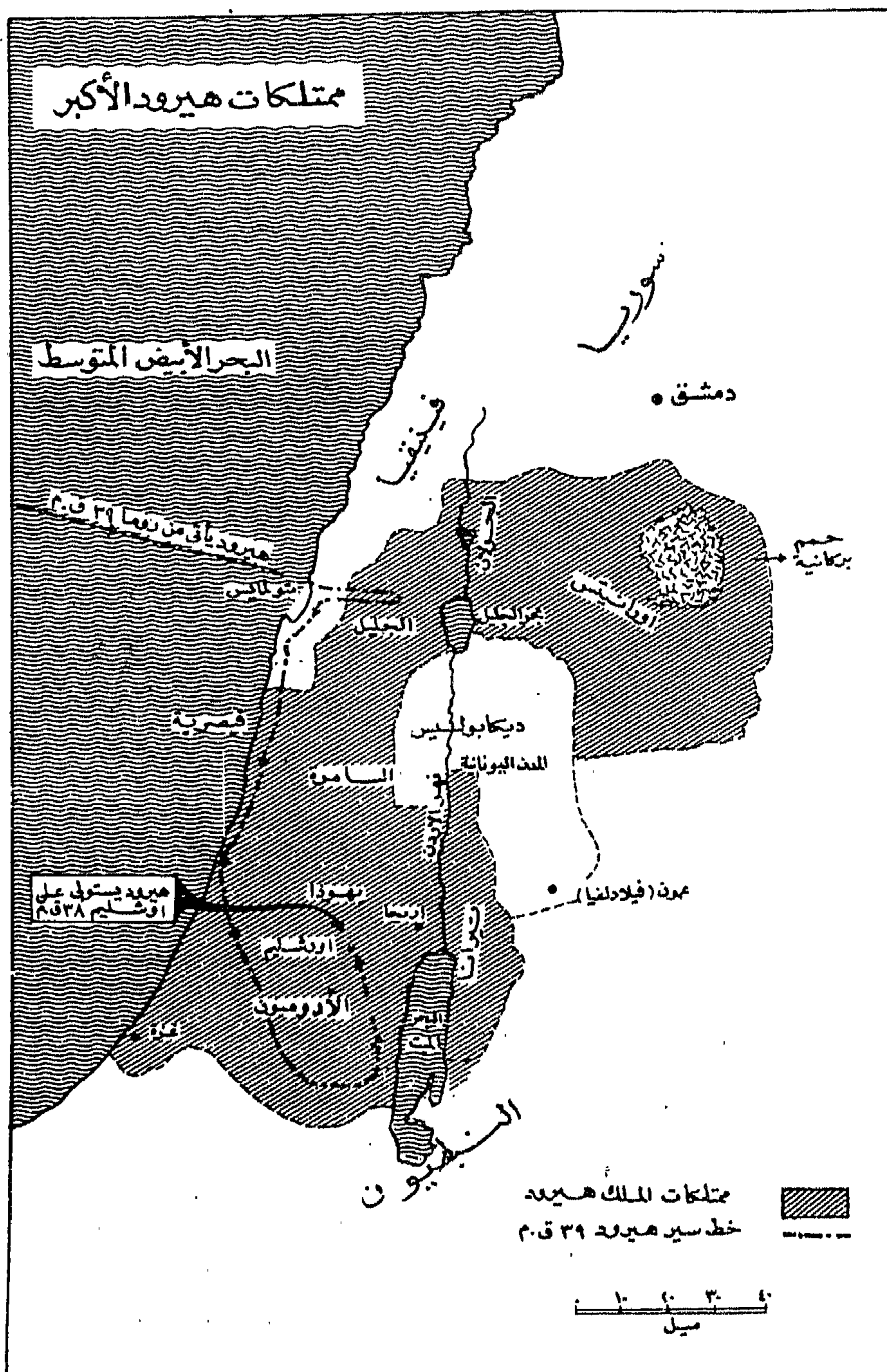
وقد مات هيرود في أريحا في شهر أبريل سنة ٤ قبل الميلاد وكان في السبعين من عمره، وقد كرهه اليهود، ويمكن الحكم بصورة أفضل على ما قدمه من أجلهم بما حدث بعد موته.

* * *

ترك هيرود، في وصيته، يهودا لابنه أركلوس (أرخيلاس) وكانت أمه سامرية^(١٩) وترك الجليل وبيريا انتباس شقيق أركلوس (أرخيلاس)، وتولى فيليب، وكانت أمه يهودية، جولونيتس وأورانيس وتراكونيتس. وقد ذهب وفد شعبي من يهودا إلى روما للمطالبة بالحكم الروماني المباشر وإبعاد أسرة هيرود، إلا أن أوغسطس أكد وصية هير د. وعلى أية حال، كان حكم أركلوس (أرخيلاس) سيئا للغاية لدرجة أن أوغسطس نفاه إلى بلاد الغال سنة ٦ بعد الميلاد، وانتقلت يهودا لتصبح تحت الحكم الروماني المباشر، كما طلب بذلك الوفد الشعبي، واحتفظ هيرود انتباس وفيليب بولاياتهما. واختار حاكم يهودا مدينة هيرود اليونانية الجديدة، قيصرية (قيساريا) مقرا لحكمه. وفي عام ٢٧ بعد الميلاد عين بونتيس بيلاتس حاكما حيث استمر لمدة عشر سنوات. وكان اداريا حازما وأقل فسادا من أسلافه^(٢٠) إلا أن اليهود كانوا يعارضونه معارضة شديدة. وقد هيا لأورشليم موردا

(١٩) انجيل متى الاصحاح الثاني / ٢٢.

(٢٠) آف. ام. آبل، «تاريخ فلسطين».



خريطة (١٥)

منتظما للمياه، الأمر الذى كان ضرورة ملحة. وقد أعده بأن بنى مجرى ماء يرتفع على أعمدة (مجرى عيون) يمتد لمسافة سبعة وثلاثين ميلا، وفى هذا يكتب يوسيفوس: «غضب اليهود غضبا شديدا بسبب الخطوات التى اتخذها لامدادهم بالماء»^(٢١). وقد أنفق فى هذا الغرض أموالا من كنوز المعبد. ولعل الشكاوى المستمرة المتحاملة أحيانا - التى رفعها اليهود الى تيريوس ضد بيلاطس هى التى جعلته يتردد فى اطلاق سراح يسوع، «إن اطلقت هذا فلست محبا لقيصر» فهل كان معنى ذلك تهديدا بإرسال شكوى أخرى الى روما^(٢٢).

وقد أثبت هيرود أنتباس أنه أهل لأن يكون حاكما على الجليل وبيريا، وكان قد تزوج ابنه ملك النبطيين، إلا أن زواجه المحرم الذى تمنعه الشريعة عام ٢٦ ميلادية من هيروديا قرييته ضايق رعاياه كما ضايق النبطيين. وكان هيرود انتباس هو الذى أطاح برأس يوحنا المعمدان وهو الذى سخر هو وجنوده من المسيح صبيحة يوم صلبه. ومات فيليب عام ٣٣ ميلادية بعد سبع وثلاثين سنة قضاها فى حكم هادىء على ولايته التى كانت تضم قليلا جدا من اليهود. ولما لم يكن قد أنجب ولدا فقد اندمجت مقاطعته الصغيرة فى ولاية سوريا الرومانية.

تواريخ تستحق الذكر

يوحانان	١٣٥ - ١٠٤ ق.م
الكسندر جانائى	١٠٣ - ٧٦ ق.م
هيرود الأكبر	٣٩ - ٤ ق.م

(٢١) يوسيفوس «آثار اليهود».

(٢٢) انجيل يوحنا الاصحاح التاسع عشر / ١٢.

خاتمة

- ١ - لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل الى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد، ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة.
- ٢ - غزا الحشمونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان قسرا. وقد أصبح كل هؤلاء يهودا بالدخول فى ديانة اليهود دون أن يكونوا يهودا من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.
- ٣ - أصبح الحشمونيون، فيما بعد، أوغادا قساة القلوب.
- ٤ - أعطى هيرود الأكبر للأرض المقدسة سلاما ظل أربع وثلاثين عاما ومات من المرض المبرح الذى صاحبه الهذيان واضطراب الاعصاب.
- ٥ - إبتداء من عام ١٦٦ قبل الميلاد الى عام ١٣٥ ميلادية، أى طوال ثلاثة قرون من الزمان، كانت فلسطين غارقة فى لجنة من الدم بسبب العدوان اليهودى العسكرى، إلا أنه مع الثنائية المتناقضة فى الظاهر، والتى تبدو وكأنها تلح على القصة جميعها، كانت هناك بذرة دقيقة تنمو فى قلب هذه الوحشية، وكان على هذه البذرة أن تؤدى بالعالم الى الرقة الروحانية، فكان من الكارثة التى جلبها هؤلاء المتعصبون على أنفسهم أن ظهر مفهوم الله الواحد، رب العالمين، مالك الملك، وصاحب الأمر. تلك مشيئة الله، ولا راد لمشيئته.

الفصل التاسع انهيار الكفاح

فمن يشفق عليك يا أورشليم

ومن يعزيك

ومن يميل ليسأل عن سلامتك

سفر إرميا الاصحاح الخامس عشر / ٥

«حقا ماذا عساه أن يكون هذا الذى استفز جيش الروم على أمتنا؟ ألا يكون ذلك هو عقوق وعدم تقوى الأهلين؟ من أين ابتدأت عبوديتنا؟ أليس ذلك ناشئا من التحريض على الفتنة الذى كان سائدا بين آبائنا وأجدادنا عندما استقدمت حماقة إرسطوبولس وهيراكينوس وخلافاتنا المشتركة مع بومبي الى هذه المدينة، وعندما أخضع الله لسلطان الرومان أولئك الذين لا يستحقون الحرية التى كانوا ينعمون بها؟ ان من يسكن هذه الأرض المقدسة ينبغى له أن يسلم بأن الأمور كلها تجرى بإذن الله.. أما أنتم فماذا قدمت أيديكم؟ السرقة والخيانة والكيد للانسان وارتكاب الفحشاء.. إنكم تقاتلون فى سبيل النهب والسلب وسفك الدماء والقتل.. فهذا الهيكل نفسه.. قد لوثته أيدي أولئك الذين ينتمون الى وطننا..»

نداء يوسيفوس للمدافعين عن أورشليم كي يسلموا
فلافيوس يوسيفوس: «حروب اليهود» الكتاب الخامس الفصل التاسع.

الفصل التاسع

كان هيرود أجريبا حفيد هيرود الأكبر يتلقى العلم فى روما حيث كان كلوداس ووالد كاليجولا زميله فى الدراسة. وفى عام ٢٣ بعد الميلاد عاد إلى الشرق الأدنى، ولكن سرعان ما أودت به عاداته الرومانية المبذرة الى الفاقة. وبعد مضى بضع سنين قضائها على غير هدى هنا وهناك وهو يقترض النقود، عاد إلى روما حيث وحد نفسه فى السجن. وبوفاة تيبيريوس عام ٣٧ ميلادية تغير كل شىء فى روما حيث انحط مقام أصحاب تيبيريوس وارتفع شأن أعدائه. وبناء على ذلك أخرج كاليجولا، الامبراطور الجديد أجريبا من السجن ونصبه ملكا على مقاطعة فيليب السابقة^(١). وبعد ذلك بوقت قصير نفى هيرود انتباس الى بلاد الغال بسبب دسائسه وأضيفت الأراضى الخاضعة له الى تلك الخاصة بأجريبا. وفى عام ٣٩ بعد الميلاد أراد كاليجولا أن يقيم تمثالا له فى الهيكل، إلا أن أجريبا أدى له له خدمة قيمة بأن أثناه عن عزمه.

كان أجريبا لا يزال فى روما فى شهر يناير عام ٤٠ ميلادية عندما اغتيل كاليجولا، وبسرعة وضع أجريبا أشعرته فى الوضع الملائم حيث ساعد على رفع مقام زميل المدرسة القديم كلودياس الى كرسى الامبراطورية. واعترافا من كلودياس بالجميل أضاف يهودا الى مملكة أجريبا، بحيث جعل مملكته تشارك فى حدودها حدود مملكة هيرود الأكبر.

ولكى يكفر أجريبا عن حياته القديمة ذات السمعة السيئة أقام فى اورشليم حيث كان يقدم القرابين فى المعبد كل يوم، وهو هيرود الذى جاء ذكره فى أعمال الرسل الاصحاح الثانى عشر/ الآيات من ١ إلى ٣ حيث قطع رأس يعقوب

(١) خريطة (١٦).

شقيق يوحنا، وسجن بطرس. إلا أن أجريبا التقى الورع في أورشليم كان رجلا مجربا واسع الخبرة في بيروت وقيصرية، حيث كان يقيم مهرجانات الألعاب احتفاء بكلوداس. وبينما كان يلقي خطابا في هذه المهرجانات في ربيع عام ٤٤، فاجأه المرض وتوفي بعد خمسة أيام^(٢). وعلى أثر وفاته عين حاكم روماني على يهودا مرة أخرى.

وفي عام ٥٣، أعطى ابنه أجريبا الثاني إقطاعية فيليب السابقة، وأضاف نيرون، الذي ارتقى عرش الامبراطورية عام ٥٤، الى اقطاعية طبرية أربع عشرة قرية في الجليل وهكذا أصبح الهيروديون ملوكا محترفين حتى في المناطق التي لا يوجد بها يهود.

في غضون ذلك كانت الأحوال في يهودا تتدهور وتتفكك، وكان اللصوص يصلون ويجولون في أنحاء البلاد، والسيكاركين السفاحون يخفون المدى والسكاكين الطويلة في ملابسهم ويقتلون من يشاءون. وفي عام ٦٤ ميلادية عين فلورس، صنيعة بوبيا عشيقة نيرون، حاكما على يهودا، فشرع من فوره في حشو جيوبه، فاستولى في مايو عام ٦٦ ميلادية على ما يوازي مائة وسبعين ألف من الجنيهات ذهبا من كنوز الهيكل ليدفع الضرائب الامبراطورية المستحقة. وثار الشعب في أعقاب ذلك وسقط كثير من القتلى. ووصل أجريبا الثاني ليخطب في الغوغاء محذرا من حماقة الثورة ضد روما، ولكنه تعرض للاهانة والقذف بالحجارة فعاد أدراجه مسرعا إلى مملكته الشمالية.

عندئذ خرج الوطنيون عن السيطرة فاستولوا على مسادا معقل هيرود السابق وذبخوا حاميتها. وفي أورشليم توسل المعتدلون والصدوقيون إلى فلورس كي يتخذ إجراء حاسما سريعا، إلا أن توسلهم ذهب أدراج الرياح.

(٢) أعمال الرسل الاصحاح الثاني عشر / ٢٠ - ٢٣.

وأرسل الملك أجريبا الثانى ألفين من فرسانه احتلوا الجزء الأعلى من المدينة وكان الثوار مرابطين فى الجزء الأدنى منها وفى الهيكل . ونشب قتال مرير ثم انتهى الأمر بانسحاب رجال أجريبا، إلا أن القوات الرومانية الاحتياطية - وأغلبها من الفلسطينيين غير اليهود - أبيدت عن آخرها. وتم الاستيلاء على حصن انطونيا الهائل الذى يطل على الهيكل حيث ذبحت حاميته. وانتقاما لذلك ذبح اليونانيون فى قيصرية جميع يهود المدينة.

وفى جميع أنحاء البلاد، قتل اليهود الوثنيين الذين انتقموا من اليهود عندما سنحت لهم الفرصة وسيطر الارهاب على فلسطين، قاضطر والى سوريا سيستيروس جالوس للتدخل. وكان تحت إمرته أربعة فرق (لجئون) فى سوريا إلا أنه استعان بواحدة منها فقط، وهى الفرقة الرومانية الثانية عشر، ولو أنه أضاف اليها عددا كبيرا من القوات المساعدة المحلية.

ومع أن هذا حدث فى شهر أكتوبر عندما كان موعد هطول الأمطار متوقعا، إلا أن تحركه كان بطيئا، وقد عسكر على بعد ألف ياردة شمالى أورشليم. وقامت الفرقة (اللجئون) الثانية عشر بالهجوم، وسرعان ما احترقت السور الخارجى ووصلت إلى انطونيا التى بدأ فى هدمها. ولو أن جالوس، بناء على رواية يوسيفوس، شدد ضغطه هجومه لسقطت المدينة، إلا أنه لم يفعل ذلك، بل فقد أعصابه وأمر بإيقاف الهجوم ثم التقهقر.

وغالبا ما يكون التقهقر خطيرا عندما يكون القتال دائما مع عدو غير نظامى، فقد احتشد اليهود، الذين كانوا على وشك التسليم، خارج المدينة فى هرج شديد وباغتوا الرومان الهائمين جنوب وادى بيت حورون الضيق. وتجمع اليهود على الجبال حيث ألقوا على الرومان سيلا من الحجارة وصبوا على طوابيرهم وابلا من القذائف^(٣).

(٣) خريطة (١٧).

وقد قتل قرابة ستة آلاف جندي في هذه الكارثة وترك جاللوس مهماته وأدوات حصاره والتجأت شردمة واهنة العزيمة إلى أنتيباتريس. وبدأت الامبراطورية الرومانية في أعين الثوار الذين أسكرتهم نشوة الانتصار وكأنها قد توقفت عن الوجود، فأزيل من يهودا كل أثر من آثار روما.

وباتت فلسطين في فوضى ضاربة الأطناب، ويقول يوسيفوس أن كثيرا من اليهود البارزين تنبأوا بالنهاية المتوقعة فغادروا أورشليم في هدوء، أما الطائفة المسيحية الصغيرة، وهي تذكر أن سيدها قد منح بركته لصانعي السلام، فقد آثرت أن تتحرك إلى بيللا فيما وراء نهر الأردن، وكانت مدينة من مجموعة المدن اليونانية (ديكابولس).

وفي أورشليم أقام الثوار حكومة، ونودي بالحاخام الأعظم أنانوس رئيسا للدولة يساعده بن جوريون. وقد وقع الاختيار على المؤرخ اليهودي يوسيفوس ليكون حاكما على الجليل حيث اتخذ مقره في فيسيفوريس^(٤).

إلا أنه، على نحو ما يحدث دائما في فلسطين انشق الثوار على أنفسهم وأصبح كل من يستطيع من قطاع الطرق أن يجند عصابة، قائدا مستقلا. وحقد زعماء العصابات في الجليل على يوسيفوس ونشبت حرب عصابات وحشية بينه وبين يوحنا زعيم عصابة جيشالا.

وفي شهر فبراير عام ٦٧ ميلادية عين نيرون فسبازيان قائدا عاما في يهودا (وكان فسبازيان قد نال شهرته بعد أن استولى على جزيرة وايت إبان حملة كلاديوس على بريطانيا سنة ٤٣ ميلادية). وكان فسبازيان الذي يناهز الثامنة والخمسين من عمره يرتدي زي الجندي العادي، وكان حريصا مدققا أكثر منه

(٤) يوسيفوس: «حروب اليهود»، خريطة ١٧.

[illegible]

٢٠٤

بارعا عبقريا. ولم يكن ينوى أن يعرض نفسه لكارثة كما فعل جالوس، وكان يعرف أن تقدم الجيش النظامي في صورة قاسية ضارية من شأنه تدمير معنويات أعدائه غير النظاميين. وكان ابنه تيتوس البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما يعمل في هيئة أركان حربه.

ويقول يوسيفوس، أنه كان تحت إمرة فسبازيان ثلاثة فرق رومانية (لجيون)^(٥) قوامها ثمانية عشر ألف أو عشرين ألف مقاتل، ومعهم أيضا عدد أكبر من الجنود المحليين - الفلسطينيين الوثنيين والنبطيين والسوريين.

وبعد أن استرجع فسبازيان الجليل ضرب الحصار على جوتاباتا، وهي مدينة حصينة يحيط بها الوحل من كل جانب، ويقوم على الدفاع عنها الحاكم يوسيفوس بنفسه. وبعد مقاومة عنيفة دامت سبعة وأربعين يوما أمكن التغلب على المدينة بعد أن تسلل تيتوس مع فئة قليلة من رجاله قبل الفجر وفتح أبوابها. وقتل أغلب المدافعين عن المدينة، إلا أن يوسيفوس أخذ أسيرا ثم صار صديقا شخصيا لتيتوس الذي كان مثله في العمر.

وانقضى صيف سنة ٦٧ ميلادية في هذه العمليات وفي احتلال طبرية وقاريكيا وجوبا، وانتهى الأمر باستيلاء الرومان على جيشالا، ففر زعيم العصاة المحلي يوحنا الى اورشليم حيث استطاع، بتفاخره بجرأته على الرومان، أن يجمع كثيرا من الأعوان.

وكانت اورشليم غارقة في الفوضى، حيث اندفع السفاحون من جمع أنجاء البلاد الى المدينة لسلب المواطنين المحترمين. وكتب يوسيفوس: «إن أولئك الذين كانوا تواقين للحرب بشبابهم وجرأتهم قسوا على المتقدمين في السن المتبصرين لعواقب الأمور. ولقد اجتمع هؤلاء المغامرون على نهب الشعب فلم يكن هنالك

(٥) كتب سبتونيوس أن فسبازيان كان لديه فرقان إضافيتان.

فى مجال البربرية والطغيان اختلاف بين أولئك الذين ينتمون الى أمة واحدة وبين الرومان .

ووجد «الزىلوت» (طائفة يهودية متعصبة قديمة كانت وطنية متطرفة) ، فلاحا لايدرى من أمر الدنيا شيئا فألبسوه لباس رجال الدين ورسومه، وسط عاصفة من الضحك والمجون، حاخاما أعظم. ووطد الزىلوت أنفسهم فى الهيكل الذى أحالوه الى قلعة مسلحة وأهاب أنانوس بالشعب أن يطرد الزىلوت من الهيكل. وكان الجمهور يود إطاعة أمر الحاخام ولكنه هزم على يد رجال العصابات الذين قتلوا عدد جيرا من الجمهور.

وبعد ذلك، أرسل الزىلوت فى طلب الادوميين الذين اندفعوا الى المدينة حيث نهبوا البيوت وقتلوا كثيرا من الناس بما فيهم أنانوس الحاخام الأعظم. ويبدو أن ما يقرب من ثلثى رجال العصابات فى أورشليم كانوا من الأدوميين أو سكان الجليل أو البيرانيين ممن أجبروا بواسطة الحشمونيين على اعتناق الديانة اليهودية.

* * *

وفى أوائل عام ٦٨ ميلادية طهر طابور رومانى المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وحين سمع فسبازيان بالثورة فى بلاد الغال على نيرون، فإنه خشية قيام الحرب الأهلية، عجل بعملياته الحربية. وتحرك خارجا من قيصرية ليستولى على اللد ووضع الفيلق العاشر فى عمواس.

بعدئذ عبر فسبازيان الجبال عن طريق شكيم واستولى على أريحا وقام بتحسينها. وفى شهر يونيو عام ٦٨ ميلادية كان على أهبة الاستعداد للتحرك إلى أورشليم، وعندما سمع بآ وفاة نيرون وقبول جليا تولى زمام الامبراطورية أوقف تقدمه وأرسل تيتوس إلى روما ليسأل عن أوامر الامبراطور الجديد.

ولما وصل تيتوس الى كورنثوس سمع بمقتل جاليا في شهر يناير على ٦٩ ميلادية وقبول أوثو عرش الامبراطورية. وعاد تيتوس الى أبيه الذي ظن أن الحرب الأهلية قد انتهت فأستأنف تقدمه عبر السامرة حيث عسكر على مسيرة أميال شمال أورشليم. واستولت الفرقة الخامسة على الخليل.

عندئذ عقد يوحانان بن زكاي، وهو واحد من أبرز أحبار ذلك العصر، العزم على الهرب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل في تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب الى فسبازيان وحصل على الأذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة في يافته على السهل الساحلي وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية.

وفي مستهل صيف عام ٦٩ ميلادية كان كل شيء معدا للهجوم على أورشليم عندما جاءت الأنباء بهزيمة أوثو وتقدم فيتليوس الى روما، فأمر فسبازيان بالتوقف مرة أخرى. إلا أن الفيالق الجرمانية التي جاءت مع فيتليوس كانت في غاية الشراسة، وكانت روما شديدة الاستياء من امبراطورها الجديد، الذي كان على حد وصف سيتونيوس رجلا «اصطبغ بجميع ألوان الخسة والحقارة». وكانت من المقربين الى نيرون، ورفضت فرق الدانوب تقديم ولاءها له.

وفي أول يوليو سنة ٦٩ ميلادية أعلنت الفرقتان (اللجيونان) المرابطان في مصر ولاءهما لفسبازيان، وفي اليوم التالي حذت حذوهما الفرق الأربعة المرابطة في سوريا تحت قيادة موسيانوس. وكان تحت إمرة فسبازيان نفسه ثلاثة فرق. ومع أنه نودى الآن به (فسبازيان) إمبراطورا، إلا أنه ظل يمارس عمله الروتيني المعتاد دون أن يبدو عليه أي تفاخر أو استعلاء^(٦). ثم اجتمع مجلس أعلى في بيروت فقرر أن يزحف موسيانوس على روما، وأن ينتظر فسبازيان في مصر، وأن ينهي تيتوس الحرب في يهودا. وفي العشرين من شهر ديسمبر عام ٦٩ نادى روما بفسبازيان إمبراطورا،

(٦) تاسيتوس، «التاريخ».

وقتل فيتيلوس ، ولكن فسبازيان انتظر فى الاسكندرية حتى الصيف ، أى عندما يصبح البحر مأمونا للملاحة قبل أن يبحر الى روما .

* * *

ولعدة أشهر بينما كانت العمليات متوقفة تنتظر نتائج الصراع على العرش الامبراطورى لم يقم اليهود بإعداد أنفسهم للحرب القادمة ولكنهم استمروا فى محاربة بعضهم بعضا . وفى اورشليم احتفظ يوحنا الجيشالى والجليليون بأعلى المدينة بينما احتفظ الزيلوت بالهيكل . وجعلت حرب فرعية بالخناجر والسكاكين الشوارع الضيقة تجرى بالدماء . وعندئذ ظهر رجل يدعى شمعون برجورا يعيش مع عصابته على نهب أهالى منطقة الخليل . ودعا مواطنوا اورشليم شمعون الى مدينتهم ليحميهم من يوحنا الجيشالى والزيلوت . واحتل شمعون مع عصابته الجزء الأوسط من المدينة وأصبحت الفوضى أكثر شيوعاً وتأكيذا . وبدأت كل العصابات تستخدم المدفعية (القذائف) ملقاة بأحجار كبيرة كانت تطن فوق الأسطح ثم تشق طريقها بصوت مزعج الى داخل المباني . وقد نهبت معظم المؤن التى جلبت وجمعت . من أجل الحصار بواسطة هذه العصابات .

وفى شهر أبريل سنة ٧٠ ميلادية تقدم تيتوس من قيصرية الى اورشليم . وكان جيشه يتألف من الفرق (اللجيون) الثلاثة التى كانت تحت قيادة فسبازيان من قبل - الفرقة (اللجيون) الخامسة فى عموس ، والعاشر فى أريحا ، والخامسة عشر فى الشمال - وقد أضيف الى هذه الفرق الثلاثة الفرقة الثانية عشر التى كانت متلهفة على محو العار الذى وصمت به عندما كانت تحت قيادة جالوس . وبعد وصول ألفين من الامدادات من مصر وثلاثة آلاف من سوريا بالإضافة إلى القوات الإضافية المحلية بلغ تعداد هذا الجيش خمسة وستين ألف مقاتل^(٧) .

(٧) ستيورات بيرون : «الهيروديون الأواخر» .

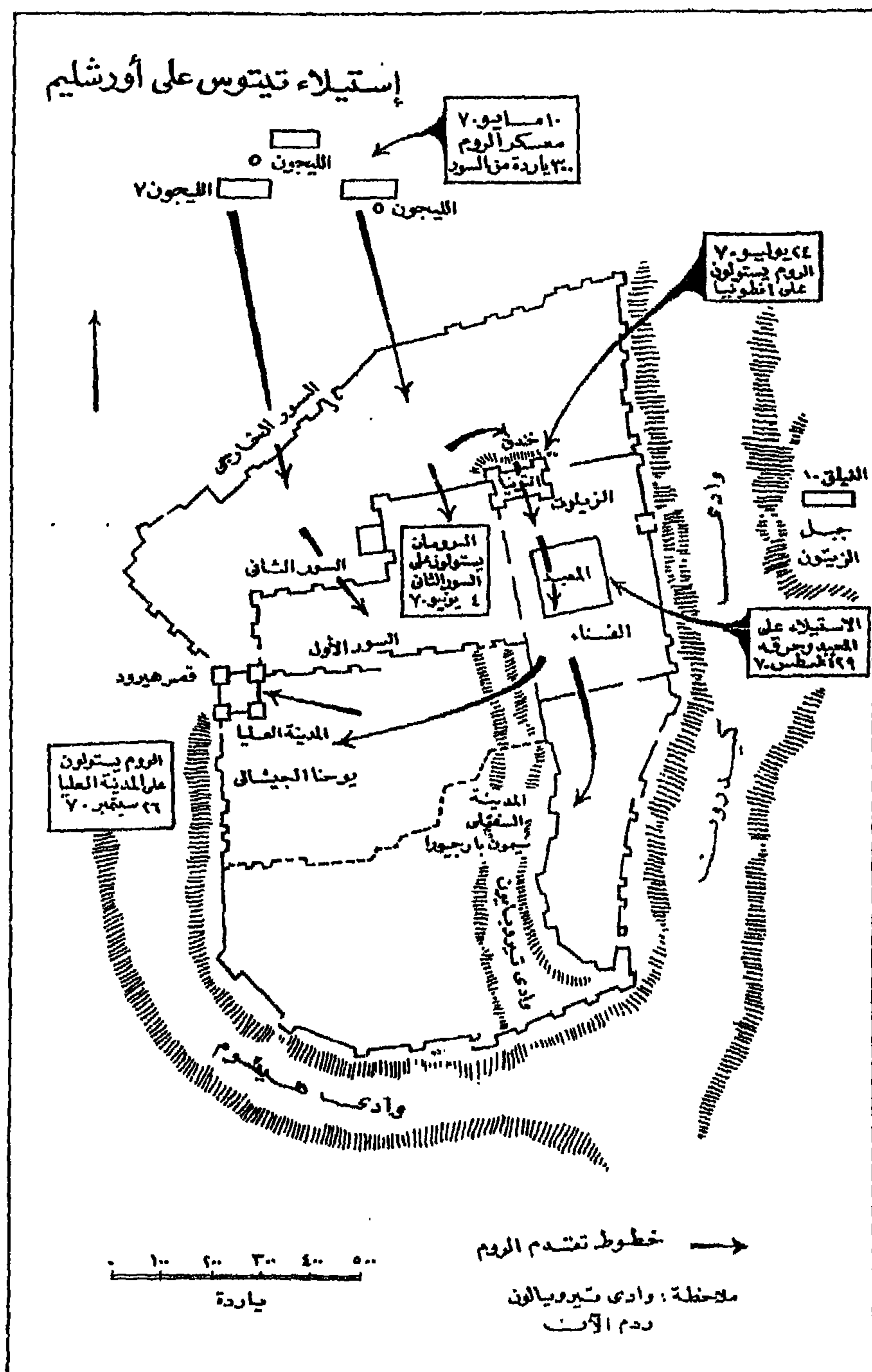
وكان تيتوس على وشك الوقوع فى أسر جماعة انبرت للهجوم من المدينة بينما كان يقوم بعملية استطلاع على صهوة جواده. وفى العاشر من شهر مايو سنة ٧٠ ميلادية تحرك الرومان الى أن صاروا على بعد ثلثمائة ياردة من الأسوار. وكانت الفرق الثانية عشر والخامسة عشر فى الخط الأمامى بينما أبقىت الفرقة الخامسة فى الاحتياط. وقامت الفرقة العاشرة التى تحركت من أريحا، باحتلال جبل الزيتون.

ومع أن يوحنا الجيشالى وشمعون برججورا واليعازر الزيلوتى اتفقوا فى بادىء الأمر على مقاومة الرومان، إلا أنهم الآن استأنفوا حروبهم الخاصة فأخذ أحدهم يطعن الآخر فى الطرقات الضيقة بينما كانت آلة الحرب الرومانية تدك الأسوار وتهشمها « فلم يكابدوا من الرومان أسوأ مما كابد بعضهم من بعض »^(٨).

وسرعان ما اخترق الرومان السور الخارجى، ثم تقدموا الى السور الثانى. وكان سيمون يدافع عن النصف الغربى من هذا السور بينما دافع يوحنا الجيشالى عن النصف الشرقى وانطونيا. وفى الرابع من شهر يونيو، وبعد حصار دام خمسة وعشرين يوما استولى الرومان على السور الثانى. وكانت مداخل المدينة من الشرق والجنوب والغرب محمية بالأخاديد بينما سيطرت قلعة انطونيا على المنطقة التى يتحتم على الرومان، أن يتقدموا منها. وبدأ المهاجرون، وهم أشبه بخلية النمل، العمل فى ملء الحفرات لكى يتمكنوا من إحضار أبراجهم المتحركة وآلات هدم الأسوار الى أسوار أنطونيا، إلا أن اليهود انبروا لهم فى هجمة محمومة واستطاعوا أن يحرقوا الأبراج الخشبية المتحركة.

وقرر تيتوس أن يحيط المدينة كلها بمتراس بارتفاع تسعة أقدام على امتداد خمسة أميال. وقد أقيم هذا المتراس فى وقت مدهل، إذ تم بناؤه فى ثلاثة أيام

(٨) يوسفوس: «حروب اليهود».



خريطة (١٨)

فقط، وكان جنود الروم عمالا راعين، وبإقامة هذا المتراس تعذر وصول المؤن والامدادات الى المدينة التي حكم عليها بالهلاك، وحاول البعض أن يهرب بعد أن قضى الأمر، إلا أنهم ضبطوا وصلبوا على مرأى من المدافعين.

وتجدد الهجوم على أنطونيا، وفي الساعة الثالثة من صباح الرابع والعشرين من شهر يوليو زحف أثنا عشر جنديا ومعهم نافخ البوق وحامل رمز الفرقة الخامسة عبر القلعة المحطمة حيث ظهروا على الأسوار ونفخ نافخ البوق في بوقه وما أن سمع الصوت حتى تقدمت الفرقة واندفع تيتوس وحرسه الخاص خلال القلعة المهدمة الى أبواب الهيكل حيث أوقع المهاجمون في عراك يائس بالسيوف والخناجر مع الزيلوت^(٩).

ورغبة من تيتوس في انقاذ الهيكل أرسل يوسيفوس ليهيب بالمدافعين أن يستسلموا فذهب يوسيفوس ومعه بعض زعماء اليهود ومن بينهم إثنان من الحاخامات الكبار السابقين ممن كانوا مع الرومان. وطلب إلى العصابات أن تقبل الصلح، إلا أن العصابات سخرت منه، واستؤنف القتال وأضرمت النيران في أبواب الهيكل.

ومرة أخرى أمر تيتوس بالحفاظ على الهيكل، ولكن في عراك بالقاعة ألقى أحد الجنود مشعلا، وما هي إلا دقائق معدودة حتى كسا اللهب تحفة هيرود، وذلك في التاسع والعشرين من شهر أغسطس سنة ٧٠ ميلادية. وكان هيرود أجريا الثاني هو وجيشه يحاربون في صفوف الرومان، وكانت أخته بيريتيس عشيقة تيتوس. ولعل هؤلاء ويوسيفوس واليهود البارزين الكثيرين في معسكر الروم هم الذين أقنعوا تيتوس أن يأمر بالحفاظ على الهيكل.

وسرعان ما اقتحم الروم المدينة السفلى من الهسكل حاجزين ومطوقين الثوار في المدينة العليا، ومرة أخرى عرض تيتوس عليهم الصلح، وفي هذه المرة جاء

(٩) يوسيفوس، «حروب اليهود».

تيتوس شخصياً ليتحدث الى الزعماء الذين رفضوا عروضه، وقد أطلق سراح أربعين ألفاً من المواطنين الذين استسلموا.

وفي السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٧٠ ميلادية استولى الروم على قصر هيرود في المدينة العليا بعد أن قتلوا أو أسروا المدافعين القلائل الذين بقوا على قيد الحياة. ومات عدة آلاف من الأسرى اليهود في حلبة المصارعين وأرسل كثير منهم كعبيد الى روما، وقد أعتق أغلب هؤلاء بعد ذلك وانضموا الى الجالية اليهودية الكبيرة التي كانت تعيش في المدينة.

* * *

إن النظرية القائلة بأن اليهود تعرضوا للاضطهاد بصفة دائمة نظرية صائبة بصفة جزئية فقط. حقيقة كان حصار الرومان لأورشليم مأساة مفزعة، ولكن لنحاول تحليل بعض العوامل على أساس تاريخي:

أولاً، لم يكن المتطرفين الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود في فلسطين. وما يشير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الادوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية ومن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم، من غير السلالة اليهودية الأصيلة، ولا يبدو أن وازعهم كان وازعاً دينياً، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكراحتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسيون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم.

ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة، كانت المعاملة التي يلقاها الأسرى معاملة وحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية في ذلك الوقت، حيث رأينا

الكسندر جاناي ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعا.

ثانيا، لا يمكن القول بصفة دقيقة، أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين، أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية في العالم خمسة أمثال اليهود في فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود في الاسكندرية وطرابلس في بداية الحرب، ولكن فيما عدا ذلك، لم يتأثر اليهود في العالم، بل أن شيئا أكثر مغزى، هو أن الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شيء، والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت هذه الحوادث، مجرد تمرد في فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيرا من يهود العالم كانوا من المحليين الرومان المتهودين أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان - ممن لم تكن لهم روابط مع فلسطين.

إن التدمير الذي أصاب يهودا وأورشليم لا يمكن أن نطلق عليه اسم اضطهاد ديني، لأن كثيرا من اليهود كانوا يساعدون الروم، حيث كان في معسكر الروم اثنان من الحاخامات العظام السابقين، كما أن أجريا الثاني، الملك اليهودي، إنحاز هو وجيشه الى جانب روما. ولا يعني هذا بالطبع أن اليهود في فلسطين كانوا يميلون إلى الروم، إلا أن الطبقات المتعلمة كانت تدرك أن الثورة يجب أن تفشل، وبالتالي كان أغلب المدافعين عن أورشليم، من الفلاحين الجهلاء.

وقد رأينا أن الحاخام يوحنا بن زكاي حصل على إذن من فسبازيان بافتتاح مدرسة حاخامية في يافا، وهو تحول غريب في التاريخ اليهودي. فمن المنازعات الضارية للزيلوت المتعصبين الى حوار معلمي الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية الخاصة بشمعون برجسورا ويوحنا الجيشالي والزيلوت اليعازار، الى الباحثين المسالمين عند جمليئيل،^(١٠) ومن قعقة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة

(١٠) جمليئيل الصغير، وهو غير معلم بولص.

ومساوىء القحط والمذابح والحرائق الى المجا دلة فى اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت^(١١).

ويىخس كانون ميلمان تقدير أهمية يفنه حيث ارتفعت الديانة اليهودية الروحانية من جديد فوق «الدم والتراب»، وفوق التجمعات السلالية والكرامية القيصرية الى مرتبة الاخاء الحقيقى، ويقول الحاخام يوحانان إن «اليهودى هو كل انسان لا يعبد الأصنام».

ويقول الحاخام بريزين «لقد أعلنت الديانة اليهودية فى يفنه بصفة رسمية أن ذرية ابراهيم لاتعتمد على الدم والتراب، بل إنها تتخطى جميع الحواجز العنصرية والقومية وتدعو كل جائع الى مائدتها لياكل منها بغض النظر عن معاملة أسلافه الأوائل لليهود»^(١٢).

وظل بعض الأحبار يصرون على الختان والعماد، «إلا أن البعض الآخر جعل هذه الطقوس الرسمية غير أساسية، وبالها من مأساة أن تهزم هذه المفاهيم الروحانية الكريمة المرة تلو المرة بالإنزالية والتعصب الأحق، ورأى بعض الأحبار فى الشتات امتيازاً وليس قصاصاً، فقد كان من واجب إسرائيل أن تنشر الدين الروحانى بين الأمم جميعاً «وكان من فضل إله على إسرائيل أن نشرهم بين الأمم».

«ويعتبر كل من دخل فى دين اليهود وكأنه طفل يهودى حديث الولادة انحدر من ذرية ابراهيم بالمفهوم العملى والروحى وهكذا تتحطم كل علاقة تربطه بأصله الوثنى القديم.. فلا تربطه صلة الدم بأقاربه بعد»^(١٣).

وقرر الأحبار فى يفنه، أيضاً أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفاً بحرف بل كتبه الانسان، أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً

(١١) هنرى هارت ميلمان، «تاريخ اليهود».

(١٢) الحاخام ريزين، «رد فعل الوثنيين للمثل اليهودية».

(١٣) المرجع السابق.

حتى عام ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودى السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بريزين كان الأخبار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية. وهكذا أنتج تدمير الهيكل عام ٧٠ بعد الميلاد أثرا روحانيا، كما فعل الغزو البابلى تماما، من حيث أنه ربط اليهود جميعا برباط روحانى وهكذا «أثبتت مدرسة يافته أكثر مما أثبت أى حدث فى التاريخ أن الروح أقوى بأسا من السيف»^(١٤).

* * *

كان تراجان (٩٨ - ١١٧ م) فى أواخر أيامه قائما بحملة عسكرية فى بابل وكان اليهود فى تلك الدولة يدينون بالولاء لبارثيا فكتبوا الى يهود مصر وطرابلس أن يشوروا ضد روما. فاستجابوا لذلك بالهجوم على جيرانهم الوثنيين. وحاول هادريان، الذى كان يعارض الحرب، عبثا أن يهدىء من نائرة هؤلاء اليهود عندما خلف تراجان كامبراطور.

وعندما نفذ صبر هادريان آخر الأمر، عكس الآية فغير مسلكه السلمى (كما فعل أنطونخوس أبيفانس من قبل) وأصدر تشريعا يقضى بتحريم الختان. فثار رجل فى يهودا يطلق على نفسه اسم «بركوخبا» (ابن الكوكب)، وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، ووصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥ م أخدمت ثورة بركوخبا بعد أن أريق دماء كثيرة، وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم كمدينة رومانية سميت باسم إيليا كبتولينا، وهكذا «فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الأسلوب الروحانى هو الأسلوب الآخر الذى اتبع بحماس شديد.. فلقد قدر لليهود الا يقيموا مملكة على هذه الأرض»^(١٥).

(١٤) سليمان جريزل: تاريخ اليهود، إقتباس موسى منوحين.

(١٥) موسى منوحين مرجع سابق الذكر.

ولم يتحول كل يهود فلسطين إلى الإدراك الروحاني، بل كانت هناك أيضا حركة عنيفة من كراهية الأجانب كراهية شديدة.. وأعدت التوجيهات في يهودا بغرض قطع أي اتصال بالعالم، وحرّم أكل كل شيء يتناوله غير اليهود كما حرّم سماع شهادة غير اليهود أو قبول هداياهم، بل حتى حرّم أيضا تعلم لغاتهم.

ومع ذلك كان أغلب أحبار اليهود لا يزالون يؤمنون بأن واجب إسرائيل هو تغيير ديانة العالم، وعلى أية حال كانت ردود الفعل الشديدة هذه مقصورة على يهودا. وفي جميع أنحاء امبراطورتي روما وبارثيا الشاسعتين استمر التعاون مع الوثنيين على أساس قبول قوانين التحريم بالنسبة لبعض الأطعمة «وطوال الفترة موضوع هذه الدراسة (حكم هادريان وما بعده) كانت مراتب الديانة اليهودية يشغلها المهتودون بصفة دائمة، ولم يكن الختان ليعوقهم عنها، ولم يكن الاضطهاد ليحول بينهم وبينها»^(١٦).

تواريخ تستق الذكر

٣٧ ميلادية	تنصيب هيرود أجريبا الأول ملكا على أورانتيس والجليل
٣٧ ميلادية	نفي هيرود انتيباس الى بلاد الغال
٤٠ ميلادية	الحاق يهودا بمملكة أجر. بأمر كلادايوس
٤٤ ميلادية	وفاة هيرود أجريبا الأول
٥٣ ميلادية	أجريبا الثاني ملكا على أورانتيس
٦٦ ميلادية	هزيمة سيستيوس جالوس
٦٧ ميلادية	فسبازيان يطهر الجليل
٦٨ ميلادية	ايقاف العمليات الحربية نظرا لموت نيرون

(١٦) الحاخام رابين: مرجع سابق الذكر.

٦٩ ميلادية	هرب يوحانان بن زكاى الى يهنة
٧٠ ميلادية	حصار اورشليم وسقوطها
من سنة ١٣٢ - ١٣٥ ميلادية	ثورة بركونجبا

أباطرة الرومان

سنة ٢٧ ق.م - سنة ١٤ ميلادية	أوغسطس
١٤ - ٣١ ميلادية	تيبريوس
٣٧ - ٤١ ميلادية	كاليجولا
٤١ - ٥٤ ميلادية	كلادئوس
٥٤ - ٦٨ ميلادية	نيرون
٦٨ - ٦٩ ميلادية	جالبا، أوثو، فيتليوس
٧٩ - ٨١ ميلادية	فسبازيان
٨١ - ٩٦ ميلادية	تيتوس
٩٦ - ٩٩ ميلادية	دوميتان
٩٩ - ١١٧ ميلادية	نيرفا
١١٧ - ١٣٨ ميلادية	تراجان

خاتمة

تحت حكم الرومانيين إنطلقت يهودا مرة أخرى فى عزلتها الحرية التى أدت إلى تدهور الديانة الروحانية وقيام الكراهية العنصرية كما حدث تحت حكم الحشمونيين.

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة المترجم
٣٠	«المنفى - الحل العصابى» (أ. ب. يهوشوع)
٥٢	الفصل الأول: آباء ورعاة
٧١	الفصل الثانى: الرب يهوه
٨٦	الفصل الثالث: الغزو
١٠٠	الفصل الرابع: أيام مجيدة
١١٨	الفصل الخامس: التفسخ والأفول
١٣٥	الفصل السادس: العزلة أو الدولية
١٥٩	الفصل السابع: اليهود يملأون العالم
١٧٩	الفصل الثامن: الهيروديون
١٩٩	الفصل التاسع: إنهيار الكفاح الخرائط
٥٥	١ - طبوغرافية الشرق الأدنى.
٦٥	٢ - سيناء والخروج
٨٢	٣ - الغزو
٩٢	٤ - الفتح
١٠٣	٥ - فلسطين فى عهد شاول (أول ملك على اليهود)
١١٢	٦ - فلسطين أيام مملكة إسرائيل ومملكة يهودا

الصفحة

الموضوع

١٢٣	٧ - فلسطين تحت حكم داود وسليمان
١٣٠	٨ - الأمبراطوريتان الآشورية والبابلية
١٣٩	٩ - فلسطين بعد العودة من بابل
١٤٦	١٠ - إمبراطوريتا السلوقيين والبطالسة
١٥١	١١ - يهودا تحت حكم الحشمونيين الأوائل
١٦٧	١٢ - الأمبراطورية الرومانية
١٨٣	١٣ - المناطق التي اجتاحتها الكسندر جاناى (يونانان)
١٨٦	١٤ - تسوية بومبى
١٩٥	١٥ - ممتلكات هيرود الأكبر
١٩٦	١٦ - فلسطين أيام يسوع المسيح
٢٠٤	١٧ - عمليات فسبازيان
٢١٠	١٨ - إستيلاء تيتوس على أورشليم
	أشجار السلالات
١٤٨	١ - البطالسة - السلوقيون
١٥٤	٢ - الحشمونيون
١٨٧	٣ - الهيروديون

هذا الكتاب

كان إبراهيم (عليه السلام) هو المهاجر الأول من أرض الرافدين إلى أرض كنعان، كما كان أيضا النازح الأول إلى مصر، عندما حل القحط بالبلاد. ومن بعده ارتحل يعقوب وأبناؤه إلى مصر ليقيموا فيها ردحا من الزمن إلى أن خرجوا منها، عائدين مرة أخرى إلى أرض كنعان، لتنشأ هناك الديانة اليهودية متأثرة بالديانات المصرية والبابلية والكنعانية إلى أن أصبحت على ما هي عليه محملة بكل الشحنة الدينية والثقافية لحضارات المنطقة. وبالرغم من أن الديانة اليهودية في صياغتها الأخيرة، سعت لتثبيت فلسطين في الوعي والتراث الديني باعتبارها «أرض الميعاد»، إلا أن اليهود ظلوا على مدار وجودهم التاريخي لا يقيمون فيها، ويفضلون البقاء خارجها، اعتبارا من فترة السبي البابلي (القرن السادس ق.م) وحتى الآن، بالرغم من أن أبوابها كانت في معظم فترات التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، إلا أنهم إكتفوا بترديد عبارات الشوق «إلى العام القادم في أورشليم»، وانتظار «المسيح المخلص» الذي سيقودهم إليها. حول هذا التلازم بين تطور العقيدة اليهودية وبين فشلها في إحياء العصور القديمة في إقامة كيان سياسي لها، يسلط الضوء هذا الكتاب على وجه الحضارات الكبرى وبين نشأة ظاهرة الشتات اليهودي في فلسطين، إلى أن أصبحت للوجود اليهودي، يدور مودعا يلقي بظلال الماضي اليهودي على الواقع المعاصر الذي نشأ



التعريف بالمؤلف

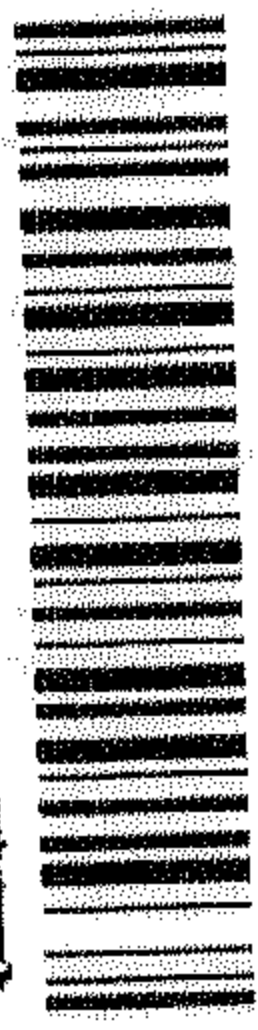
أستاذ ورئيس قسم اللغة العبرية وآدابها
كلية الآداب جامعة عين شمس
صدرت له المؤلفات التالية :

- ١- إنشاء وتطوير الطيران الإسرائيلي (١٩٧٢).
- ٢- جولة في الدين والتقاليد اليهودية (١٩٧٥).
- ٣- اللغة العبرية للمبتدئين (١٩٧٨).
- ٤- تاريخ وتطور اللغة العبرية (١٩٧٨).
- ٥- لمحات من الأدب العبري الحديث (١٩٧٨).
- ٦- الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية (١٩٨٦).
- ٧- الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي (١٩٨٨).
- ٨- عجز النصر - الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ (١٩٩٠).
- ٩- الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس (١٩٩٣).
- ١٠- الرصاصا العشر - دراسة مقارنة في اليهودية والمسيحية والإسلامية (١٩٩٣).
- ١١- القوى الدينية، في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة (١٩٩٤).
- ١٢- إشكالية الهوية في إسرائيل (١٩٩٧).
- ١٣- قواعد اللغة العبرية (١٩٩٧).
- ١٤- الرموز الدينية في اليهودية (١٩٩٩).
- ١٥- موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية (٢٠٠١).
- ١٦- العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية (٢٠٠١).
- ١٧- اليهود واليهودية في العصور القديمة بين التكوين السياسي وأبدية الشتات (٢٠٠١).

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طموم - المنيل القاهرة تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧

Bibliotheca Alexandrina



0353068